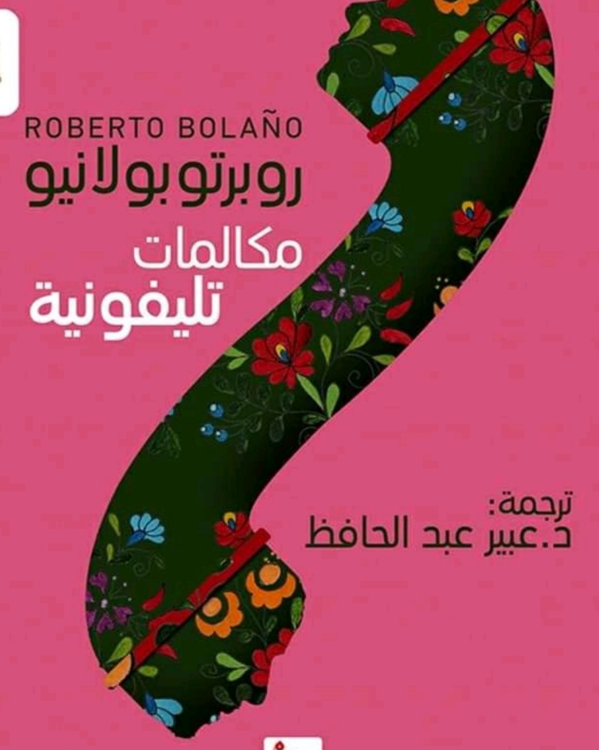


قصص

ROBERTO BOLAÑO

روبرتو بولانيو

مكالمات تليفونية

ترجمة:
د.عبير عبد الحافظ



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

مكالمات تليفونية

| روبرتو بولانيو

ترجمة
د.عبير عبد الحافظ

مكالمات تليفونية

روبرتو بولانيو

ترجمة: د.عبير عبد الحافظ

الغُلاف: عبد الرحمن الصواف

التحرير الداخلي:مؤسسة بتانة

المحرر العام: مصطفى عبادة

التصميم الداخلي: تامر فتحي

الطبعة الأولى: 2017

رَدمُك: 978-977-6233-40-9

رقم الإيداع: 2017/8602

مؤسسة بتانة

القاهرة

34 شارع طلعت حرب

عمارة يعقوبيان - شقة 25

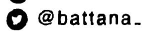
ت: 25749570 -202+

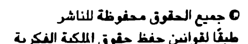
دبي

ص ب: 97721

ت: 971543446107+







مكالمات تليفونية

روبرتو بولانيو

منشورات بتانة
الطبعة الأولى
٢٠١٧

الفهرس



مقدمة الترجمة

يعتبر الكاتب «الشيلي روبرتو بولانيو» (١٩٥٣-٢٠٠٣) صوتًا من الأصوات الروائية المجددة في الفن القصصي الأمريكي اللاتيني المعاصر. استهلَّ نشاطه الأدبي بمجموعة من الدواوين الشعرية، ثم اتجه إلى الرواية والقصة القصيرة. واجتهد منذ البداية في خلق مدرسة أدبية جديدة في أدب أمريكا اللاتينية بشكل عام، وشيلي بشكل خاص.

عمد «بولانيو» منذ محاولاته الأولى في الكتابة، إلى العمل على ترسيخ فن طليعي حديث قادر على الخروج من أسر الظاهرة الأدبية، التي دُشنت باسم الواقعية السحرية، وصارت مثل سمة شبه مُلزمة لنجاح أي منتج روائي صادر عن دول أمريكا اللاتينية في فترة من الفترات.

تمرد الأديب الشاب مثله مثل باقة من الكتاب المجددين على تقنيات المدرسة المذكورة، ونجح مع مجموعة من الروائيين

المعاصرين له، والأكثر حداثة منه مثل «خورخي بولبي» و«سانتياجو رونكاجليولو» و«أندريس نيومان»، وغيرهم في التمرد على النمطية التي سادت حتى حقبة الثمانينيات من القرن المنصرم، وبدأت تتضح سمات فن روائي وقصصي لاتيني مُحدث أكثر التصاقًا بوجودية الإنسان اللاتيني المعاصر بشكل عام، والشيلي بوجه خاص، مع الأخذ في الاعتبار التغيرات العالمية التي طرأت على المجتمع الدولي كافة، ومنها على سبيل المثال الثورة المعلوماتية وتقنيات شبكات التواصل الاجتماعي وغيرها، مما طبع بدوره وجوهًا وقوالب جديدة لأشكال التعبير الإنساني.

وبالحديث عن الموتيفات السردية الأصيلة في أعمال «بولانيو»، يتصدرها بجدارة المشهد السياسي لبلاده في أعقاب الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس «سلفادور الليندي» عام ١٩٧٣، وما تبعه من حكم عسكري دكتاتوري، ظلت شيلي تئن تحت وطئته خصوصًا شبابها ومفكريها لفترة طويلة. ويطل الملمح السياسي المذكور كنقطة ارتكاز أساسية ومحورًا تلتف حوله شخصيات بولانيو ووحدات بنائه السردي.

تطل شخصية روبرتو بولانيو نفسه، كمعادل موضوعي أحيانًا، وضدي في أحيان أخرى، للكاتب نفسه، وهو أول ما يلحظ من تشابه الإسمين. ويطرح بولانيو في مجموع نصوصه السردية مكالمات تليفونية (١٩٩٧) نماذج متنوعة

تنتمي إلى عوالم مختلفة وإحداثات زمانية متقاطعة، مثل الكاتب الشهير ذي الموهبة المحدودة، والكتّاب الشباب وموهبتهم الإبداعية الجديدة، فضلا عن التماس مع أحداث تاريخية مثل الحربين العالمية الأولى والثانية، والتفاصيل التاريخية لبلاده، كما يكسر حواجز الأمكنة السردية منطلقا إلى فضاءات أخرى مثل روسيا والولايات المتحدة، وإسبانيا والمغرب، وغيرها من الأماكن التي ينطلق فيها تيار السرد الجامح في تدفقه والساكن في نبرة حكيه.

وتزداد حيرة القارىء والدارس لنص بولانيو الحالي، إذ أن الشكل النهائي للكتاب يبدو في مجمله مجموعة من القصص القصيرة المُتضمّنة بدورها في مجموعات ثلاث منفردة، إلّا أن صوت الراوي وأداءه الساخر الحالم في الوقت ذاته يطرح النص في رداء روائي تنسج خيوطه منظومة الكاتب-الراوية-البطل. إذ أن الصبغة الأوتوبيوجرافية الملفقة تعمل على أن ينحو العمل في هذا الاتجاه المضلل الذي لا يخلو من عنصري التشويق والتأمل المتلاحمين.

تطل المرأة في الكون الروائي لدى «بولانيو» في إطار هالة متكررة وأيقونة ثابتة، تستلهم الحدث وتصوغه في آن واحد. بهذا الشكل يتصدر العنصر النسائي المشهد الروائي في المجموعة البالغ عددها أربع عشرة قصة، والمقسمة إلى ثلاثة أقسام، يضم القسم الثالث أربع قصص تتنوع بطلاتها ما بين الرفيقة السياسية المناضلة، والمراهقة التي تتلمس طريقها،

وممثلة الأفلام الإيروتيكية. ولا يقتصر النموذج النسائي على جنسية أو فصيل اجتماعي بعينه، بل يمتد إلى بلاد وثقافات متنوعة، يفسح لها «بولانيو» الطريق لتقدم وجهة نظرها في الحياة والأشياء. وتبدو صورة المرأة عنده وكأنها امتداد طبيعي للصورة الطليعية التي منحها قبله «بورخس» و«كورتاثار» تحديدًا في نموذجهما القصصي. والذي يكسر نمطية كيان وكينونة ووجود المرأة التقليدي في العمل الأدبي. بصفتها فاعلًا أم مفعولًا.

وبالحديث عن أسلوبية السرد عند بولانيو، تتضح هذه البساطة والتسطيح الأفقي المتعمد في آلية الحكي، فضلًا عن اللغة السردية المجردة التي يعمد فيها إلى إبراز الجانب الانساني، بعيدًا عن الانصياع لسطوة العبارة، متخذًا من الحديث الذريعة المثلى لسبر أغوار شخصياته في وضوح وجلاء تتحد فيه المشاعر المتداخلة تارة، والمتناقضة تارة أخرى ما بين الحسرة والحنين إلى الوطن، والسخرية السوداء والدعابة الفلسفية إلى غيرها من مكونات الفلسفة لديه.

وعلى الرغم من رحيل بولانيو المبكر، فإنه خلّف نتاجًا غزيرًا في الرواية والشعر والقصة القصيرة. كما حصل على العديد من الجوائز الأدبية الرفيعة، مثل جائزة «رومولو جاييجوس»، وهي بمثابة نوبل أمريكا اللاتينية، وجائزة مدينة برشلونة، وجائزة «ألتاثور» في شيلي. وتُرجمت أعماله

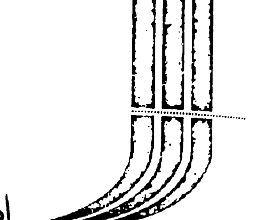
إلى أغلب لغات العالم، كما كانت ولا تزال موضوعًا للبحث والدراسة من الأكاديميين وشباب الباحثين على مستوى العالم، وليس أدل على ذلك من الترجمة التي نقدمها للقارىء لمجموعته القصصية «مكالمات تليفونية».

عبير عبد الحافظ

أستاذ م. ورئيس قسم

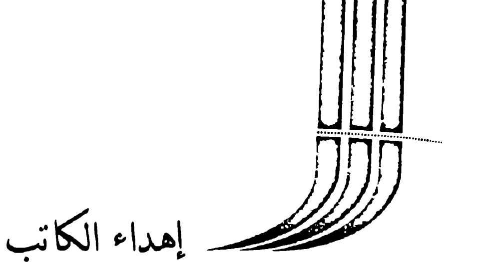
اللغة الإسبانية وآدابها

كلية الآداب- جامعة القاهرة



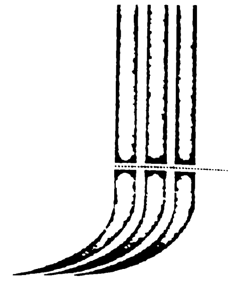
إهداء الترجمة

إلى سليم، الابن الذي أتعلم منه



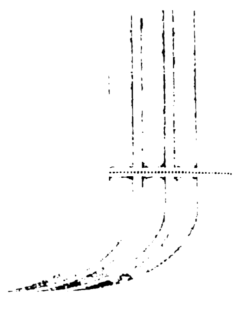
إهداء الكاتب

إلى كارلوينا لوبيث



«ومن القادر أن يفهمني أكثر منك؟»

تشيخوف



المدعو «سينسيني»

لا شك أن الطريقة التي تعرفت من خلالها على «سينسيني» تخرج عن كل ما هو مألوف.

كنت حينئذ في العشرينيات من عمري، أكثر فقرًا من فأر صغير، وأقطن في أطراف مدينة «جيرونا»، في منزل متهدم تركته لي شقيقتي وزوجها بعد أن قررا الرحيل إلى المكسيك.

في الحقبة نفسها فقدت عملي كحارس ليلي بأحد المباني في برشلونه، بعد أن قوّى العمل رغبتي في السهر ليلًا. لم يكن لدى أصدقاء تقريبًا، واستغرقتني الكتابه كلية، إضافة إلى جولات السير التي اعتدت أن أبدأها في السابعة مساء بعد أن أستيقظ، فأشعر بحركة في جسدي، هي إحساس بأنني موجود وغائب في الوقت نفسه، غائب عما يحيط بي، وأشعر برهافة مجهولة المصدر.

اعتمدت في معيشتي على مدخراتي خلال فترة الصيف،

وبالرغم من إنفاقي الشحيح فإن مدخراتي أخذت في التلاشي بحلول الخريف. وهذا ما دفعني إلى الاشتراك في المسابقة الوطنية للأدب في «ألكوي»، وهي مخصصة للأدب الناطق بالإسبانية أيًا كانت جنسية ومحل إقامة المتقدم.

تُمنح الجائزه في ثلاثة تخصصات، الشعر والقصة والنقد الأدبي. فكرتُ في البداية في التقدم بقصائدي ولكني تأملت منافسة هؤلاء السباع (أو الضباع بتعبير أفضل) فبدا لي الأمر مغامرة غير مأمونة العواقب. بعد ذلك فكرتُ في التقدم إلى مسابقة النقد الأدبي، ولكن حين أخطروني بالقواعد اكتشفت أنه يجب أن ينصب موضوعه على «مدينة ألكوي»، وما يتعلق بها وبتاريخها وبرجالها البارزين، أو عن مستقبلها وهو ما لم أطقه. لذلك قررتُ التقدم لمسابقة القصة القصيرة وأرسلت العمل (لم يكن لدي أعمال كثيرة) الذي أرتأيته الأفضل ثلاث مرات متتابعة وبقيت أنتظر.

وحين أُعلنت الجائزة كنت أعمل بائعًا متجولًا في أحد المعارض الشعبية، بالرغم من أنه لم يكن هناك ما يُباع. حصلتُ على المركز الثالث ومبلغ قيمته عشرة آلاف «بيزيتا»، دفعها لي مجلس بلدية مدينة ألكوي بالكامل. بعدها بقليل وصلني الكتاب الذي لم يخل من أخطاء وبه العمل الفائز وأفضل ستة أعمال. وبالطبع فإن العمل الذي قدمته كان أفضل من الفائز، وهو ما جعلني ألعن لجنة التحكيم وأهوّن على نفسي بأن ذلك ما يحدث دائمًا. ولكن ما آثار دهشتي

العصر هو رؤية اسم الكاتب الأرجنتيني «لويس أنطونيو سيسينو» في الكتاب نفسه، وكان مركزه الثاني، وتحكي القصة أن «الراوية» ذهب إلى الريف وهناك تُوُفي ابنه، أو ربما توفي في المدينة فذهب الأب إلى الريف، لم يكن الأمر واضحًا ولكن الأحداث تدور في الريف، ذلك الريف الممتد ليكون ثم احتضار الابن، القصة في جملتها خانقة، تعكس الأسلوب المعتاد لـ «سينسيني»، وهذه القصص ذات البعد الجغرافي الشاسع الذي ظل يضيق إلى أن أصبح في حجم التابوت. كما أنها قصة تفوق نظيرتها لدى الفائز الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس.

لا أعرف ما الذي دفعني إلى طلب عنوان «سينسيني» من مقر البلدية. كنت قد قرأت رواية له وبعض القصص في مجلات أدبية تصدر في أمريكا اللاتينية. وكانت الرواية من تلك الروايات القادرة على خلق قرائها، وعنوانها «أوجارتي»، تعالج مراحل من فترات حياة «خوان دي أوجارتي»، إحدى الشخصيات البيروقراطية الشهيرة في منطقة «بيريتاتو» النهر الفضي في الأرجنتين في القرن الثامن عشر، وتجاهلها النقاد الإسبان مدَّعين أنها مثل أعمال «كافكا» الكولونيالية، إلا أن الرواية بدأت تصنع قراءها شيئًا فشيئًا.

وفي الوقت الذي نُشرت فيه قصتي إلى جوار قصة «سينسيني» في المجموعة القصصية لـ«آلكوي»، انتشرت روايته «أوجارتي» في ربوع أمريكا اللاتينية وإسبانيا إلى

حد ما، فحظيتْ بعدد كبير من القراء، أغلبهم من الأصدقاء أو الأعداء بعضهم إلى جوار بعض. ولـ «سينسيني» - الكاتب المُستبعد- كتب أخرى منشورة في الأرجنتين أو في دور نشر إسبانية اختفت، نَشر فيها كتّاب ينتمون إلى جيل الوسط الذين ولُدوا في العشرينيات بعد «كورتاثار»، و«بيوي»، و«ساباتو»، و«موخيكا لاينث»، وأكثرهم شهرة (على الأقل بالنسبة لي) «هارولد» و«كونتي»، الذي اختفى في أحد معسكرات الدكتاتورية لـ «فيديلا» وأتباعه.

تبقّى القليل من هذا الجيل - وإن كانت كلمة الجيل مبالغًا فيها- ولا يرجع ذلك إلى الافتقار للموهبة أو العبقرية في الكتابة، فهم أتباع «روبرتو آرلت»، والصحفيون منهم والمعلمون والمترجمون، مهدوا بطريقة ما الطريق لمستقبل أشرق فيما بعد، فأعلنوا عنه بطرقهم المخزية المتشككة التي ابتلعتهم هم أنفسهم جميعًا في النهاية.

في فترة من حياتي قرأت مسرح «آبيلاردو كاسينو»، والقصص القصيرة لـ «رودولفو والش» (الذي اغتيل مثل كونتي إبان الدكتاتورية)، وبالمثل قصص«دانيل مويانو» قراءات جزئية ومتقطعة تنشرها مجلات من الأرجنتين أو كوبا أو المكسيك، أو كتب يُعثر عليها في مكتبات العجوز «د.ف»، مختارات مقرصنة للأدب الأرجنتيني، على الأرجح هي الأفضل في كل ما كُتب بالإسبانية هذا القرن، أدب ينتمي إليه باقة من الكتاب، غير «بورخس و«كورتاثار» ونضيف إليهم أيضًا

«مانويل بويج» و«أوسبالدو سوريانو»، هذا الأدب يطرح للقارىء نصوصًا مكثفة وذكية، تبعث على التأمل المتواطئ والبهجة. وكاتبي المفضل من بين هؤلاء كان «سينسيني».

لحسن الحظ فإن هذه الطريقة الـتعسة التي اشتركت من خلالها مع «سينسيني» في المسابقة نفسها دفعتني لمحاولة التواصل معه وتحيته، وإبلاغه بمدى التقدير الذي أكنه له.

من جانبه أرسل لي مجلس بلدية «آلكوي» عنوانه على وجه السرعة، في ذلك الوقت كان يعيش في مدريد، وذات يوم بعد العشاء أو الغداء، كتبت له خطابًا طويلًا تحدثت فيه عن «أوجارتي»، وعن قصصه القصيرة الأخرى التي قرأتها في مجلات، حدثته عن نفسي وعن منزلي في أطراف «جيرونا»، وعن المسابقة الأدبية (وسخرت من الفائز)، حدثته عن الوضع السياسي في شيلي والأرجنتين (كانت الدكتاتورية مستتبة في البلدين في ذاك الوقت، عن قصص «وولسن» (وكان هو الأديب المفضل لدي إلى جانب سينسيني)، عن الحياة في إسبانيا والحياة بشكل عام. وعلى عكس ما توقعت فقد تلقيت منه رسالة في أقل من أسبوع. بدأها بتوجيه الشكر لمبادرتي بإرسال الخطاب.

وأخبرني أنه هو أيضًا تلقى الكتاب من بلدية «آلكوي» وبه القصص الفائزة، ولكنه على العكس مني لم يجد الوقت لمراجعة القصة الفائزة والمرشحين، على الرغم من ذلك فقد قرأ قصتي وقال إنها ذات قيمة «قصة من الطراز الأول». (بالرغم

من أنه أخبرني بعد ذلك بشكل عفوي بشأن الموضوع نفسه أنه لم يجد حماسة كافية للقراءة)، ومازلت أحتفظ بالخطاب. وطلب مني أن أواصل - ليس مثلما فهمت في البداية أن أواصل الكتابة له بل التقدم للمسابقات. وأكد لي أنه سيقوم بالشيء نفسه. ثم سألني بعد ذلك عن المسابقات- التي قد «تلوح في الأفق»، وأوصاني أن أخبره إذا اطّلعت على شيء على الفور. وأرفق بالخطاب إعلانين لمسابقتين أدبيتين الأولى في «بلاسنثيا» والثانية في «إيخيكا»، قيمتهما ٢٥ ألف و٢٠ ألف «بيزيتا» على التوالي، ونشرت شروطهما في صحف ومجلات بـ «مدريد»، يعتبر وجودها معجزة أو ربما جريمة. فالأمور تظل دائمًا نسبية، وكان لا زال هناك متسع من الوقت لتقدمي، وأنهى «سينسيني» خطابه بشكل حماسي. وكأننا على خط الانطلاق إلى سباق بلا نهاية، سباق صعب ولا معنى له في الوقت نفسه، «نحو القيمة وإلى العمل» هذا ما قاله.

أتذكر أنني تعجبت من الخطاب الغريب، وأنني أعدت قراءة بعض المقاطع بـ «أوجارتي»، وفي ذاك الوقت ظهر في الميدان الذي توجد به دور العرض بـ جيروناً باعة الكتب المتجولون، فكانوا يحملون بضاعتهم يعرضونها في الميدان، وأغلبها من الكتب المخزنة التي لم تستخدم، ولم تعد دور النشر في حاجة إليها، كتب عن الحرب العالمية الثانية، وروايات الحب، والغرب الأمريكي، ومجموعات من بطاقات المعايدة وعثرت على واحد من كتب «سينسيني» فاشتريته. كان مثل الجديد، الحق أنه

كان جديدًا، من هذه الكتب التي تبيعها دور النشر بأقل ثمن للبائعين الجائلين حين ترفض المكتبات أو الموزعون الاقتراب منها تحسبًا لصعوبة ترويجها، وطغى حضور «سينسيني» بالكامل على ذاك الأسبوع.

فقد أعدت قراءة خطابه ما يقرب من مائة مرة، وفي مرات أخرى كنت أتصفح كتابه« أوجارتي»، وللتغيير كنت أعيد قراءة قصصه أحيانًا. وبالرغم من أن هذه القصص عالجت موضوعات ومواقف متعددة، أغلبها في الريف، وتحديدًا إقليم «البامبا» الأرجنتيني، وتركزت علـــى ما سُمي قديمًا قصص فرسان «الجاوتشو». بعبارة أخرى قصص أشخاص مسلحين، وحيدين، منهزمين وأخرى ذات طابع اجتماعي. فهذه البرودة والتوتر اللذان وسما «أوجارتي» تحولتا في القصص القصيرة إلى حميمية ودفء، مشاهد تأخذ القارىء بعيدًا وفي هدوء تصاحبه أحيانًا شخصيات تتسم بالشجاعة والإقدام.

لم أتمكن من الاشتراك في مسابقة «بلاسنثيا» ولكن نجحت في الاشتراك في مسابقة «إيخيا»، وفور أن وضعت نسخ القصص في صندوق البريد، وتحت اسم مستعار «ألويسيوس أكر»، أدركت أنه إذا ظللت في انتظار النتيجة فإن الأمور ستسوء أكثر مما هي عليه. فقررت البحث عن مسابقات أخرى واتباع نصيحة «سينسيني». وعندما نزلت لمدينة «جيرونا» بعد ذلك بأيام كرست الوقت للبحث عن معلومات في جرائد قديمة، تلك التي كانت تظهر في طبعات أخرى بين أخبار الحوادث والرياضة، بينما الأكثر جدية كانت

تضع أخبــار المسابقـــات ما بين النشرة الجوية أو أخبار الوفيات، وكما هو معتاد لم يكن هناك أي إعلان في الصفحات الثقافية. اكتشفت أيضًا صحيفة تصدرها الحكومة الإقليمية تعلن عن مسابقات ما بين أخبار المنح الدراسية، والتبادل، وإعلانات الوظائف، ودورات ما بعد التخرج الجامعي، وأغلبها بالطبع باللغة «القطالونية» خلافًا لبعض الاستثناءات. عثرت على ثلاث مسابقات ممكن أن نتقدم إليها أنا و«سينسيني» وكتبت له رسالة في التو. وكما هو معتاد وصلتني رسالته بالبريد على الفور.

أجاب عن أسئلتي وأغلبها يتعلق بالمجموعة القصصية التي كنت قد ابتعتها وأرفق بها إعلانات ثلاث مسابقات أخرى للقصة القصيرة، إحداها تنظمها خطوط السكة الحديدية، وهي جائزة ضخمة تمنح العشرة الأوائل خمسين ألف «بيزيتا»، واشترطت أن يتقدم المتسابق بشكل شخصي في المسابقة. أخبرته في رسالة تالية أنه ليس لدي ست قصص للاشتراك في هذه المسابقات، ولكنني سأحاول. ثم استرسلت في الحديث عن رحلاتي، وقصص حبي الفاشلة، عن «والش و«كونتي» و«فرانسيسكو» أوروندو»، سألته عن «خيلمان» الذي يعرفه دون أدنى شك، وانتهت بأن أقص عليه حياتي في فصول، فكلما بدأت حديثًا عن مواطن أرجنتيني ينتهي بنا الحديث عن «التانجو» والمتاهات، يحدث هذا كثيرًا مع المواطنين من شيلي.

جاءت رسالة «سينسيني» محددة وطويلة، بخاصة فيما يتعلق

بالمسابقات والقصص الجديدة. فأفرد في صفحة كاملة على الوجهين بشرح مسهب الاستراتيجية المثلى للفوز في المسابقات التي تنظمها المدن والبلديات. أحدثه عن الخبرات وفي المقابل تبدأ الرسائل دومًا بتعظيم هذه الجوائز (ولم أعرف أبدًا أكان ذلك من باب الهزل أم الجد)، ثم يذكر المصدر الذي يمول هذه الجوائز، وحين يجيء الحديث عن الهيئات المانحة لهذه الجوائز مثل مجالس البلدية والبنوك اعتاد أن يقول:

«هؤلاء الناس الطيبون الذين يؤمنون بالأدب» أو «هؤلاء القراء الأنقياء الذين يتصرفون بوازع شخصي». ولم يحدد بالطبع من هم «الناس الطيبون»، أو القراء الأنقياء الذين يقرأون هذه الكتب بشكل مقصود أو غير مقصود.

وأصر على ضرورة الاشتراك في أكبر عدد ممكن من الجوائز، وأنه اعتاد أن يتحايل ويقدم القصة بثلاثة عناوين مختلفة لمسابقات مختلفة إذا ما تصادفت هذه المسابقات في الوقت ذاته.

وأعطاني مثالًا على ذلك عنوان قصته «الشروق» التي قدمها في مسابقة أخرى، وهي قصة لم أكن قرأتها، وأرسلها هو بدوره إلى أكثر من مسابقة أدبية بشكل تجريبي تمامًا، مثلها مثل أرنب التجارب الذي يتم استخدامه لتجربة لقاح ما. وقد فازت تحت عنوان «الشروق» في المسابقة الأولى، ثم أرسلها بعنوان «فرسان الجاوتشو» في المسابقة الثانية ثم بعنوان ثالث «الجانب الآخر لسهل البامبا»، وأرسلها بعنوان أخير هو «بلا ندم». وقد فاز في المسابقة الثانية والأخيرة، وسدد إيجار مسكنه في مدريد بما يعادل

قيمة شهر ونصف الشهر، ذلك أن أسعار الإيجارات قد أضحت فلكية. وبالطبع لم يدرك أحد أن «فرســـــان الجاوتشـــو» و«بلا ندم» عنوانان لقصة واحدة، وبالرغم أن الخطر كان دائمًا قائمًا أن يتصادف وجود أحد الاشخاص في لجنة التحكيم، وهم في العادة في إسبانيا يكونون من مجموعة من الشعراء، أو الكتاب متوسطي القيمة أو من المتسابقين الذين تقدموا في مسابقات سابقة. كان يقول إن عالم الأدب فظيع فضلًا عن كونه عبثيًا. ويضيف أن الأمر ربما لا يشكل خطرًا حقيقيًا لأن أغلب لجان التحكيم هذه لا تقرأ الأعمال المقدمة أو تقرأها دون تركيز. وعلى أعلى تقدير لمستوى قراءتها فإنهم لن يدركوا أن العنوانين للقصة نفسها.

سوف يعتقدون أنها متشابهة ولكن هناك اختلافًا، واختلافًا واضحًا. وأصر الخطاب على أن التصرف المثالي سيكون القيام بشيء مختلف، قد يكون على سبيل المثال الحياة والكتابة في «بوينوس أيرس»، على الرغم من بعض الشك الذي يصاحب ذلك، ولكن الواقع هو الواقع، وعلى المرء أن يكسب حبوب الفاصوليا بنفسه (هذا هو التعبير الذي نستخدمه في شيلي، لا أعرف هل تستخدم العبارة نفسها في الأرجنتين أم لا ؟)، فهذا هو المخرج الوحيد في الوقت الحالي. وقال في نهاية خطابه وربما في الحاشية: «إنه مثل التجول في ربوع إسبانيا بجغرافيتها المتنوعة. أبلغ من العمر ستين عامًا ولكنني أشعر وكأنني في الخامسة والعشرين».

للوهلة الأولى بدت لي تصريحاته غاية في التعاسة، ولكن

حين قرأت الخطاب للمرة الثانية أو الثالثة أدركت أنه وكأنه يقول لي: «وكم تبلغ أنت من العمر أيها الصغير؟». وأذكر أن إجابتي كانت سريعة.

أخبرته أنني أبلغ من العمر ٢٨ عامًا، أي أزَيد عليه بـ ثلاث سنوات.

ربما لم أسترد السعادة ذاك الصباح، ولكن استعدت الطاقة والحماسة، كانت طاقة تشبه حس الدعابة، دعابة تشبه الذاكرة إلى حد بعيد.

لم أكرس نفسي مثلما نصحني «سينسيني» للمسابقات الأدبية للقصة القصيرة، بالرغم من أنني اشتركت في تلك المسابقات التي اكتشفناها معًا، لم أفز فيها وعاود «سينسيني» الكرة في عمله «دون بينيتو» وتقدم لمسابقة «إيخيكا» برواية عنوانها حيوانات «السمور» وقدمها في المسابقة الثانية بعنوان «السَّيفان». وفاز في مسابقة خطوط السكك الحديدية، وعلاوة على القيمة المالية فازببطاقة للسفر المجاني لمدة عام على خطوط القطارات.

ومع الوقت أصبحت أعرف عنه الكثير. كان يعيش في شقة في مدريد مع زوجته وابنته، البالغة من العمر ستة عشر عامًا وتدعى «ميراندا». ولدية ابن من زيجة سابقة، كان يمضي هائمًا في دول أمريكا اللاتينية، أو هذا ما كان يعتقده «سينسيني».

ابنه يدعى «جريجوريو»، في الخامسة والثلاثين من عمره، يعمل صحفيًا. كان يبذل جهودا متواصلة في السؤال عن ابنه

عبر المنظمات الانسانية المتصلة بأجهزة حقوق الإنسان في الاتحاد الأوروبي ليعثر عليه.

في هذه الحالة كانت خطاباته تبدو مملة ورتيبة، حين يقص جولاته البيروقراطية ويبدو كأنه يطرد أشباحه الخاصة.

أخبرني في إحدى المناسبات بأنه لم يعد يعيش مع «جريجوريو» منذ كان في الخامسة من عمره. لم يضف أكثر من تلك الكلمات، ورأيت «سينسيني» يكتب في الصحف، ولكن كل ذلك كان دون جدوى. وتساءلت عن اسمه ولا أعرف لماذا توصلت لاسم «جريجوريو سامسا» وكأن الحظ ساعدني في تقدير اسمه على هذا النحو. ولكنني لم أذكر هذا الاسم مطلقًا للأب. وعلى العكس من ذلك تمامًا، حين كان يتحدث عن «ميراندا» ابنته تغلب عليه السعادة، فقد كانت شابة ولديها رغبة عارمة في التهام العالم، يقول عنها إن لديها فضولًا لا حد له وأنها جميلة وفتاة طيبة.

كان يقول إنها تشبه أخاها، الفرق الوحيد أن «ميراندا» امرأة (وهذا واضح).

وشيئًا فشيئًا أصبحت خطابات «سينسيني» أكثر طولًا. كان يعيش في أحد أحياء مدريد الهامشية، بشقة من غرفتين وصالة، ومطبخ وحمام. دهشت لأنني أعيش في مساحة أكبر من مساحته، وشعرت بأن ذلك ليس من العدل في شيء. اعتاد «سينسيني» أن يكتب في صالة المعيشة، ومساء:

حين تكون زوجتي وابنتي نائمتين»، وكان مدخنًا شرهًا يكسب عيشه من أعمال محدودة يقوم بها في دور النشر (أعتقد تنقيح الترجمات) والقصص التي كان يتقدم بها إلى مسابقات المقاطعات. ومن وقت لآخر كان يصله مبلغ من المال من إحدى الجهات التي تنشر كتبه العديدة، إلَّا أن أغلب دور النشر كانت تتغافل وبعضها الآخر أعلن إفلاسه. والعمل الوحيد الذي ظل يدر ربحًا هو روايته «أوجارتي»، الذي اشترت حق نشرها دار نشر ببرشلونة. أدركت بعد ذلك أنه يعيش في فقر، فقر خاص بمن ينتمون إلى شريحة الطبقة المتوسطة المنخفضة، أو الطبقة المتوسطة قليلة الحظ، ولكن بكرامة وبحفظ ماء الوجه. وعلمت أن زوجته (واسمها يلفت الانتباه، كانت تدعى «كارميلا زادجمان») كانت تشتغل أيضًا من وقت لآخر في أعمال معاونة بدور النشر، أو تعطي دروسًا في اللغة الفرنسية والإنجليزية والعبرية، مع أنها كانت تقوم أغلب الوقت بالتنظيف، فيما ركزت الفتاة في دروسها لأن التحاقها بالجامعة أضحى وشيكًا. وسألت «سينسيني» في أحد الخطابات عما إذا كانت «ميراندا» ستحترف الكتابة مثله، فأجابني: «لا. الرحمة، الفتاة ستدرس الطب».

وذات يوم كتبت له أطلب صورة لعائلته. وفور أن أودعت الخطاب صندوق البريد أدركت أنني أردت رؤية «ميراندا». وصلتني الصورة بعد أسبوع، ولا شك أنها التقطت بمنتزه «الريتيرو»، ظهر فيها رجل كبير في السن، وامرأة متوسطة

العمر، وفتاة نحيفة طويلة شعرها أملس ونهداها كبيران. ابتسم العجوز بسعادة، فيما كانت الأم تطالع وجه ابنتها وكأنها تخبرها شيئًا ما، وتتأمل «ميراندا» المصور بجدية حركت مشاعري وأثارتني في الوقت نفسه.

وأرسل لي في الخطاب نفسه صورة أخرى مطبوعة، ظهر فيها شاب يماثلني في العمر تقريبًا، محدد القسمات، شفتاه حادتان، بارز الوجنتين، عريض الجبهة، لا شك في أنه طويل وقوي (ينظر إلى كاميرا المصور) فينظر بثبات وشيء من نفاد الصبر. كان «جريجوري سينسيني» قبل اختفائه وعمره حينذاك ٢٢ عامًا، أي أصغر مني في ذاك الوقت، ولكن تلوح على وجهه آيات النضج التي جعلته يبدو أكبر سنًا.

ظلت الصورتان لفترة طويلة على الطاولة التي أكتب عليها. وفي أحيان كثيرة كنت أتأملهما بعمق، وفي أحيان أخرى أحملهما إلى حجرة نومي وأظل أتطلع إليهما إلى أن يغلبني النوم. وطلب مني «سينسيني» في المقابل في أحد خطاباته أن أرسل إليه صورتي، لم تكن لديَّ صورة حديثة، وقررت أن أصور نفسي في ماكينة محطة المترو، وكانت هي الوحيدة من نوعها بمدينة «جيرونا» في ذاك الوقت. إلَّا أن الصور لم تعجبني، وجدتني قبيحًا، نحيفًا حليق الرأس بشكل سيء. أخذت أرجىء إرسال الصور يومًا بعد الآخر وأخسر يوميًا نقودي في ماكينة تصوير المترو. في النهاية التقطت واحدة بطريق الحظ ووضعتها في ظرف وأرسلتها. تأخر الرد في الوصول.

وفي خلال ذلك الوقت أذكر أنني كتبت قصيدة طويلة ورديئة

للغاية، مليئة بوجوه مجهولة وأصوات تبدو مختلفة ولكنها لكيان واحد، جميعها لـ «ميراندا سينسيني» وحين تمكنت في النهاية من التعرف على الوجه أخبرت «ميراندا» بهويتي، وأنني صديق أبيها بالمراسلة، وقد التفتت إليّ نصف التفاتة وانطلقت تجري بحثًا عن شقيقها «جريجوريو سامسا»، بحثًا عن عينيه اللامعتين في نهاية الممر وسط جو ضبابي حيث تتحرك أكوام الأجساد الداكنة. هو الرعب في أمريكا اللاتينية.

أتت الاجابة طويلة وودودًا.

أخبرني أنه وجدني هو و«كارميلا» زوجته ظريفًا للغاية، مثلما توقعا تمامًا وعلى قدر من النحافة، إلًّا أنهما اعتبرا أنني حسن الطلعة وأعجبهما للغاية الكارت بوستال الذي أرسلته لكاتدرائية «جيرونا» التي ينتظران رؤيتها في وقت قريب حين يسويان بعض المشكلات الاقتصادية والخاصة بالمنزل، وكان واضحًا في الخطاب أنهما لن يكتفيا بزيارتي في برشلونة فقط، بل إنهما سيقضيان مدة الزيارة بمنزلي.

في المقابل عرضا على الاقامة بمنزلهما إذا أردت زيارة مدريد.

قال «سينسيني»: «البيت فقير ولكنه نظيف» مستوحيًا عبارة من إحدى القصائد الشعبية «الجاوتشية» للريف الأرجنتيني، تصبغ عليه روح الفكاهة وكان شهيراً جدًّا في منطقة الجنوب في مطلع السبعينيات. ولم يذكر شيئًا عن نشاطه الأدبي أو المسابقات.

في البداية فكرت في أن أرسل القصيدة إلى ميراندا، ولكني امتنعت بعد تردد وتفكير طويلين. قلت لنفسي إنني أقترب من الجنون. فإذا أرسلت القصيدة لميراندا فمعنى ذلك أن أفقد خطابات «سينسيني» والعالم كله. وهكذا لم أرسلها. وظللت على مدار وقت أقتفي أثر المسابقات وأرسلها لـ «سينسيني»، وفي أحد خطاباته أخبرني «سينسيني» أن الحبل يكاد يفلت من أصابعه. وفسرت بدوري كلماته بسخرية على أنه لم يعد يجد مسابقات يشترك فيها بقصصه.

أصررت على دعوتهم لزيارة جيرونا، وأن منزلي على أتم استعداد لاستقباله هو و«كارميلا»، واضطررت خلال عدة أيام إلى أن أنظف وأكنس وأمسح لأزيل أي أثر للتراب من حجرات (وفرشتها بالكامل) استعدادًا له ولـ كارميلا. وأصررت على تشجيعه لأن لديه تذاكر القطار المجانية وسيتوجب عليه شراء تذكرتين فقط لكارميلا وميراندا، وأن بمقاطعة قطالونيا أشياء رائعة تستحق الزيارة. تحدثت عن «برشلونه» و«أولوت» و«كوستابرافا»، وعن الأيام السعيدة التي سنقضيها معًا.

أخبرني «سينسيني» في خطاب طويل بعد ذلك بصعوبة انتقاله وعائلته في الوقت الحالي من مدريد. لاحظت التخبط في الخطاب منذ الوهلة الأولى، بالرغم من أنه تحدث عن الجوائز (أعتقد أنه فاز بجائزة أخرى)، وشجعني على التقدم وعدم التواني في الاشتراك، وفي هذا الجزء من الخطاب

تحدث عن مهنة الكاتب، ووظيفته، وشعرت بأن الكلمات التي يعبر بها يوجهها لي مباشرة، وهي بمثابة تذكرة له. أما بقية الخطاب مثلما ذكرت فكان مضطربًا للغاية. وحين انتهيت من القراءة جاءني انطباع بأن أحد أفراد عائلته صحته ليست على ما يرام.

وبعد شهرين أو ثلاثة وصلني الخبر بأنهم على ما يبدو عثروا على جثة «جريجوريو» في أحد المقابر الجماعية السرية.

تجنب «سينسيني» في خطابه عبارات الألم، أخبرني أنه في يوم ما في ساعة ما أخبره فريق من أطباء فريق التشريح التابع لإحدى منظمات حقوق الإنسان أنهم عثروا على خمسين جثة...إلخ. للوهلة الأولى لم تكن لديَّ رغبة في الكتابة له. رغبت في أن أحادثه تليفونيًا، ولكن أعتقد أنه لم يكن لديه هاتف على الإطلاق، وإذا كان لديه بالفعل، فلم أكن أعلم رقم هاتفه. أجبته إجابة مقتضبة مشيرًا إلى احتمالية أن الجثة التي عثروا عليها ليست جثة «جريجوريو».

ثم حلَّ فصل الصيف وكنت أعمل في أحد الفنادق الساحلية. بينما صيف مدريد حافل بالنشاط الثقافي، من ندوات ودورات وأنشطة ثقافية متنوعة، ولكن لم يشارك «سينسيني» في أي منها، وإذا كان اشترك فالصحيفة التي أقرأها لم تشر إلى ذلك.

وفي نهاية شهر أغسطس أرسلت له خطابًا، وأخبرته أنه على الأرجح حين ينتهي الموسم السياحي سوف أزوره في

مدريد، وعند عودتي إلى منزلي مطلع شهر سبتمبر عثرت على خطابات كثيرة في انتظاري بينها واحد لـ«سينسيني» بتاريخ ٧ أغسطس، كان خطاب وداع، أخبرني أنه سوف يعود إلى الأرجنتين، وأنه في عهد الديمقراطية لن يصبح في مقدور أحد إيذاءه وأن قضاء الوقت خارج البلاد في هذه الفترة لا معنى له، بالإضافة إلى ذلك فإنه إن أراد أن يعرف مصير جريجوريو الحقيقي فعليه الذهاب إلى الارجنتين، وأضاف أن كارميلا سترافقه طبعًا، أما ميراندا فستبقى، أجبته على الفور على العنوان نفسه الذي أراسله فيه، ولكني لم أتلق ردًا.

شيئًا فشيئًا أعتدت الفكرة بأن سينسيني رحل نهائيًا إلى الأرجنتين، وأنه إذا لم يكتب لي من هناك فمعنى هذا انتهاء علاقة المراسلة بيننا. ظللت فترة طويلة في انتظار خطابه، أو هذا ما اعتقده الآن حين أذكره. وبالطبع فإن خطاب سينسيني لم يصل أبدًا. وعزيت نفسي بأن إيقاع الحياة في بوينوس أيرس سريع جدًّا وعنيف ولا وقت لأي شيء، فقط يستطيع الإنسان أن يتنفس ويحرك جفنيه. عاودت الكتابة إليه على عنوانه السابق في مدريد، على أمل أن ترسله له ابنته ميراندا، ولكن بعد شهر وصلتني الرسالة لعدم وجود من يتسلمها. وهكذا تراجعت مع الوقت عن الكتابة وتركت الأيام تمضي ونسيت سينسيني بالرغم من أنني من وقت إلى آخر، كنت أذهب للمكتبات القديمة وأبحث عن كتبه التي كنت أعرفها ولم أكن قرأتها. ولكني لم أجد في المكتبات سوى نسخ

قديمه لروايته «أوجارتي»، ومجموعته القصصية التي طبعت في برشلونه، وخفضت المكتبة أسعارها وكأنها إشارة موجهة لـ «سينسيني» وموجهة لي.

وبعد عام أو ربما عامين عرفت أنه تُوُفيِّ. لا أذكر في أية جريدة قرأت الخبر، أو ربما أنني لم أقرأه على الاطلاق، ربما أخبرني به أحدهم.

ولكنني لا أذكر أنني تحدثت مع أحد في هذه الحقبة قد يعرف سينسيني، لذلك فالاحتمال الأكبر أنني قرأت الخبر في أحدى الجرائد. وبدا مقتضبًا على هذا النحو: تُوُفي الكاتب الأرجنتيني «لويس أنطونيو سينسيني»، الذي نُفيَ منذ سنوات إلى إسبانيا، وقد لقي حتفه في بونيوس آيرس. وأعتقد أنهم ذكروا رواية «أوجارتي» في نهاية الخبر. لا أعرف لماذا لم أتأثر بالخبر. لا أعرف لماذا بدا لي منطقيًا عودة سينسيني إلى بوينوس أيرس ليموت هناك.

وبعد ذلك بفترة، كنت أحتفظ في صندوق ذكرياتي، والتي لا أعرف لماذا احتفظت بها ولم أحرقها حتى الآن،احتفظت بصورة سينسيني وكارميلا وميراندا والصورة المطبوعة لـ «جريجوريو»، إلى أن حضرا إلى منزلي. كانت الساعة تتراوح ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة مساءً ولكنني كنت مستيقظًا. وعلى الرغم من ذلك انتفضت. فلم يطرق باب منزلي منذ سكنت بجيرونا أي شخص إلَّا وكانت هناك مشكلة.

حين فتحت، وجدت امرأة شعرها طويل منسدل، ترتدي معطفًا أسود. كانت «ميراندا سينسيني»، بالرغم من أن السنوات التي مرت منذ أن بعث لي والدها بالصورة طبعت أثرها عليها. وإلى جوارها وقف شاب أشقر، طويل، شعره أيضًا طويل ومعقوف الأنف.

ابتسمت وقالت لي: أنا ميراندا سينسيني.

• قلت لها -أعلم ذلك- ودعوتهما للدخول كانا في طريقهما لزيارة إيطاليا ويفكران في المرور باليونان.

لم يكن معهما المال الكافي لذلك كانا يسافران بطريقة «أوتوستوب» قضيا الليل في منزلي.

أعددت لهما شيئًا للعشاء. الشاب كان يدعى «سباستيان كوهين» وقد ولد أيضًا في الأرجنتين، ولكنه يعيش في مدريد منذ صغره.

ساعدني في إعداد العشاء بينما كانت «ميراندا» تتفقد المنزل.

سألني: هل تعرفها منذ وقت طويل، أجبته أنني حتى اللحظة لم أكن قد رأيتها إلَّا في الصورة. وبعد العشاء جهزت الغرفة وأخبرتهما أن بإمكانهما الخلود إلى النوم متى رغبا في ذلك.

وفكرت أن أدخل إلى حجرتي وأنام، ولكنني أدركت صعوبة ذلك بل استحالته، وحين اعتقدت أنهما خلدا إلى النوم نزلت إلى الطابق الأرضي وقمت بتشغيل التليفزيون وجعلت الصوت منخفضًا للغاية، وأخذت أفكر في سينسيني.

بعد ذلك بقليل شعرت بخطوات على السلم، كانت ميراندا. لم تتمكن هي الأخرى من النوم، جلست إلى جواري وطلبت مني سيجارة. تحدثنا في البداية عن سفرها، وعن «جيرونا» (قضيا طيلة اليوم في المدينة ومع ذلك وصلا لمنزلي متأخرًا)، وعن المدن التي يفكران في زيارتها في إيطاليا. ثم تحدثنا عن والدها وشقيقها. ووفقًا لما ذكرته ميراندا فإن سينسيني لم يتعاف أبدًا من ألم وفاة ابنه. وسافر إلى الأرجنتين للبحث عنه بالرغم من معرفتهم جميعًا بوفاته.

• سألتها وكارميلا أيضًا ؟

- أجابت ميراندا – جميعنا فيما عداه.

• سألتها عن أحواله في الأرجنتين؟ أجابت أنها كانت مثل حاله في مدريد.

• قلت لها ولكنه محبوب في الأرجنتين.

- فأجابتني مثل هنا تمامًا. أحضرت زجاجة «كونياك» من المطبخ وصببت لها.

• سألتني ميراندا إن كنت أبكي. وحين نظرت إليها حولت بصرها في اتجاه آخر.

• سألتني هل كنت تكتب حين وصلنا أنا وسباستيان ؟

- أجبتها «نعم».

• سألتني: روايات ؟، قلت: لا، قصائد.

قالت ميراندا: آه.

شربنا لفترة طويلة في صمت، متأملين الأخيلة ذات اللونين الأبيض والأسود في التليفزيون.

• سألتها: أخبريني شيئًا لماذا أطلق والدك على جريجوريو هذا الاسم ؟

- قالت ميراندا: من أجل «كافكا» بالطبع.

• قلت لها: هذا ما توقعته.

بعد ذلك حكت لي «ميراندا» تفاصيل كثيرة عن حياة سينسيني في بوينوس آيرث.

رحل عن مدريد وكان مريضًا، وضد رغبة العديد من الأطباء الأرجنتينيين، الذين كانوا يعالجونه مجانًا ووفروا له دخول مستشفى التأمين الصحي مرتين.

كان لقاؤه بمدينة بوينوس آيرس مؤلمًا وسعيدًا في الوقت ذاته. وباشر منذ الأسبوع الأول عملية البحث عن مكان جثة جريجوريو. أراد العودة إلى الجامعة، ولكنه اصطدم بالبيروقراطية وحسد وغل الآخرين ممن هم ليسوا بحاجة لذلك، واضطر أن يكتفي بالقيام بترجمات لداري نشر. في المقابل عملت كارميلا مدرسة وفي الأيام الأخيرة كانا يعيشان بما تكسبه هي.

اعتاد سينسيني أن يكتب كل أسبوع لميراندا. قالت ميراندا

إن أباها في أيامه الأخيرة قد أدرك أنه لم يتبق له في الدنيا سوى القليل، وبدا متحمسًا للتنازل عن كل شيء ومواجهة الموت. وفيما يخص جريجوريو، فلم يصل إليه خبر واحد بريحه. ووفقًا لبعض الأطباء الشرعيين، فإن جثمانه على الأرجح كان ضمن بقايا العظام في إحدى المقابر الجماعية السرية، ولكن لمزيد من التأكد فعليه إجراء تحليل الحمض النووي، إلَّا أن الحكومة لم تكن لديها ميزانية أو الرغبة في إجراء هذا الاختبار، وكانت دائمًا تؤجله.

وكرس نشاطه في البحث عن فتاة، على الأرجح كانت صديقة جريجوريو ورافقته في الاختباء، إلَّا أن الفتاة أيضًا لم تظهر، بعد ذلك تراجعت صحته على نحو خطير ودخل المستشفي «حتى أنه لم يعد قادرًا على الكتابة »، قالت ميراندا: كانت الكتابة بالنسبة إليه مهمة جدًّا، يمارسها كل يوم تحت أي ظرف. وصدقتُ على كلامها بالإيجاب. ثم سألتها عما إذا كان قد تقدم إلى أية مسابقة في بوينوس آيرس.

أعتقدت أن عنواني كان لديها لسبب بسيط أنها ولاشك لديها عناوين أصدقاء أبيها، وفي هذه اللحظة فقط تعرفت عليَّ.

قلت لها أنا صاحب المسابقات الأدبية. صبت ميراندا الكونياك لنفسها وأخبرتني أن والدها كان يتحدث عنّي كثيراً على مدار عام. لاحظت أنها نظرت لي بطريقة مختلفة. قلت لها إنني لا شك قد أزعجته كثيراً.

- فأجابتني: لا، على الإطلاق، كانت خطاباتك تسعده كثيرًا لطالما قرأها لي ولوالدتي.

• قلت عن غير اقتناع: أتمنى أن تكون مسلية. قالت: مسلية جدًا.

حتى أن أمي أطلقت اسمين.

• قلت: اسمين، على من ؟

- أجابت: عليك وعلى أبي، وهما الرجلان المسلحان أو صائدا المنافع، لا أذكر على وجه الدقة.

وربما كان والدك الأجدر باللقب، فلم أكن أقوم سوى بتوصيل بعض المعلومات إليه.

فقالت ميراندا وقد بدت عليها الجدية: لقد كان مهنيًا تمامًا، سألتها وكم عدد الجوائز التي فاز بها ؟

أجابت غير عابئة: خمس عشرة جائزة.

وسألتني: وأنت.

قلت لها إنني لم أفز حتى ذاك الوقت سوى بجائزة واحدة.

كانت جائزة «آلكوي» التي تعرفت من خلالها على والدها.

قالت وهي تنظر إلى كوب الكونياك في يدها:

- هل تعلم أن «بورخس» ذات مرة كتب رسالة إلى أبي وأرسلها له في مدريد للإشادة بإحدى قصصه.

قلت لها: لا، لا أعرف، واصلت، وكتب عنه أيضًا «كورتاثار» و«موخيكا لاينث».

قلت لها لقد كان كاتبًا جيدًا جدًّا.

انتفضت ميراندا وصاحت «هراء»، وكأنني أذيت كرامتها.

انتظرت لثوان ثم أمسكت بزجاجة الكونياك وتبعتها.

استندت ميراندا بكوعيها على حافة النافذة بينما تتلألأ أضواء جيروتا.

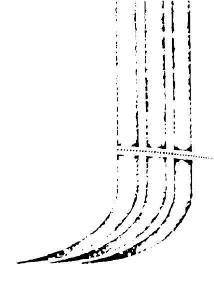
وقالت: لديك مشهد جميل من هنا.

صببت لها كأسًا ولي أخرى، ومكثنا لبرهة نتأمل المدينة تحت ضوء القمر وفجأة أدركت أننا شعرنا بسلام، ولسبب ما غير معروف وصل كلانا إلى هذه الحالة من السلام، وأنه منذ هذه اللحظة ستأخذ الأشياء في التغيير.

وكأن العالم الحقيقي يتحرك.

سألتها عن عمرها أجابت: اثنان وعشرون عامًا.

قلت: إذن لابد وأنني قد تخطيت الثلاثين وحتى صوتي، بدا لي غريبًا.



هنري
سيمون لوبرنس

بدأت أحداث هذه القصة في فرنسا قبيل الحرب العالمية الثانية بقليل وتواصلت خلالها، وامتدت بعد انتهائها.

يُدْعىَ البطل لوبرنس.

(يعطي الاسم انطباعات معينة لا يُعرف مصدرها تحديدًا)، كما أنه ليس «برنس» على الإطلاق، بل ينتمي إلى الطبقة المتوسطة أو المتوسطة الدنيا، وذو صداقات متواضعة، وهو كاتب.

هو كاتب فاشل بما لا يدع مجالاً للشك، أي يعيش على العمل في جرائد الصحافة الفرنسية الحقيرة، وينشر قصائد (يصفها الشعراء ذوو أنصاف الموهبة بأنها سيئة، أما الشعراء الجيدون فلا يحاولون حتى قراءتها) ويكتب أيضًا قصصًا قصيرة في بعض

المجلات المحلية. وعلـــى ما يبدو فإن دور النشر وفريق العمل بها يكرهونه فيما لا يدرك هو سبب هذه المعاداة. وغالبًا ما تُرفض النصوص التي يقدمها.

هو متوسط العمر أعزب ومعتاد على الفشل. يقرأ «ستاندال» على طريقته، وبفخر شديد، بشعور لا يخلو من التحدي. كما يقرأ لمجموعة من كتاب السريالية الذين يكرههم من أعماقه، (أو ربما يحسدهم) من كل قلبه. يقرأ أيضًا لـ ألفونس دوديت (فكتاباته بلسم رائق) ووفاء للأب يقرأ ليون دوديت، الذي لا يعتبر أيضًا كاتبًا سيئًا.

وفي عام ١٩٤٠، تمكنت فرنسا من توحيد الكتّاب، وجمعت صفوفهم بعد طول انقسام في أكثر من مائة مدرسة فنية مزدهرة، في فريقين متعارضين تمامًا من ناحية المثل والتوجهات: هؤلاء الذين يعتقدون أنه من الممكن المقاومة (على أن يكونوا منقسمين فيما بينهم وبين مقاومين نشطاء، أو أصحاب الحد الأدنى من النشاط، والمقاومين المتحررين، أو المقاومين بسبب التهميش، أو الانتحار أو هؤلاء الخارجين عن السياق، أو بسبب «لعبهم النظيف»، أو بسبب رهافتهم إلخ). وفي المقابل أولئك الذين يعتقدون أنه بالإمكان التعاون ولكن في شكل منفصل ومنعزل وفي أقسام متعددة، وجميعهم تحت التأثير الساحق للخطايا السبع الكبرى.

ويرى البعض أنه بعد الانتقام والثأر السياسي يحل الآن الانتقام الأدبي. وهؤلاء المتعاونون يمسكون بين أيديهم

بمقاليد بعض دور النشر والمجلات والصحف.

أما لوبرنس فهو وحيد وبعيد عن الجميع، أو ربما يعتقد أنه كذلك، وفجأة يدرك أن مكانته في بلاده هي مكانة الكتّاب ضعاف الموهبة والمرفوضين.

وبعد مضى فترة من الزمن يحاول هؤلاء المتعاونون الذين يرون فيه، وهو حق كل الحق، كاتبًا على شاكلتهم، يجب التعاون معه. ولا شك في أن البادرة كريمة من جهتهم وتعبر عن الصداقة. يستدعيه رئيس الجريدة المُعين حديثًا ويطلب إليه الاطلاع على السياسة الجديدة للإصدار، والمفترض أنها تواكب سياسة أوروبا في حقبتها الجديدة، ويعرض عليه منصبًا، وزيادة في الراتب، فضلاً عن المركز والوجاهـــــة، إلّا أن لوبرنس لم يفهم ذلك في البداية على الإطلاق.

وذات صباح، بدأ يدرك الأشياء. فحتى هذه اللحظة لم يكن يعي موقعه المتدني في الهرم الأدبي. من ناحية أخرى لم يشعر من قبل بأنه بمثل هذه الأهمية. وبعد ليلة تأمل طويلة قرر رفض الوظيفة. وتتوالى الأيام ويختبر نفسه. يواصل لوبرنس حياته وعمله وكأن شيئًا لم يكن، ولكن أضحى ذلك مستحيلاً بالنسبة إليه. حاول أن يكتب ولكن لم يتفتق ذهنه عن شيء.

حاول أن يقرأ لكتابه المفضلين، ولكن بدت له الصفحات وكأنها بيضاء خالية، أو مكتوبة بشفرة غير معروفة له

فتهزمه الفقرات. يحاول القراءة ولكن يجد نفسه عاجزًا عن التركيز أو التعلم أو الاستمتاع.

أصبح يعاني كوابيس، وأحيانًا يحادث نفسه دون أن يلاحظ، يهيم متجولًا في شوارع الأحياء لفترات طويلة. شوارع يعرفها جيدًا ويندهش لأنه يجدها على حالها غير قابلة للتغيير.

أنشأ علاقات بعد ذلك مع بعض الأفراد المنتمين إلى جماعات متمردة، هؤلاء الذين يستمعون إلى إذاعة لندن ويعتقدون في الكفاح المستمر.

بدأت مشاركته معهم بشكل محدود. فمظهره المتحفظ الهادىء (على الرغم من أن مسألة هدوئه تثير وجهات نظر مختلفة) يجعله يمر دون أن يلحظه أحد. بالرغم من ذلك يدرك هؤلاء الذين تقع عليهم المسئولية وجوده بسهولة وأيضًا الثقة به (فهم ينتمون إلى نقابة الكتاب).

ومرد هذه الثقة يرجع إلى قلة عدد الأشخاص الذين يستحقون الثقة. يلتحق لوبرنس بحركة المقاومة ويمكنه اجتهاده ودماؤه الباردة من أن يصبح مؤتمنًا على مهمات حساسة(في واقع الأمـــر مجـــرد تنقـــلات أو مناوشات ليست ذات أهمية كبيرة، باستثناء نقابة الكتاب بالطبع).

وينظر هؤلاء إلى لوبرنس باعتباره لغزًا، وأن تصرفاته مفاجئة وغير منتظرة. وهم الذين كانوا يحظون بشهرة كبيرة

قبل استسلامهم، ولم يلحظوا وجود لوبرنس من الأساس. فيجدونه منتشرًا في كل الأماكن، ليس ذلك فقط، بل ما هو أسوأ، يجدون أنفسهم مضطرين للاعتماد عليه في اختبائهم وخططهم للهروب. فيبدو لوبرنس وكأنه هبط من السماء، فهو يساعدهم ويضع بين أيديهم كل ما يملك (وهو قليل على أية حال)، يظهر اجتهادًا وتعاونًا، ويتحدث الكتاب معه. تبدأ المحادثات بينهم ليلًا في الحجرات أو الممرات، ولا تتجاوز الحديث الخفيض. يقترح عليه بعضهم أن يكتب قصصًا قصيرة، شعرًا ودراسات أدبية. ويخبرهم لوبرنس أن هذا هو ما يقوم به بالفعل منذ عام ١٩٣٣.

ويرغب البعض في معرفة المكان الذي نشر فيه أعماله (فالليالي طويلة وكئيبة، ويري البعض التلهي في الحديث).

يذكر لوبرنس بعض المجلات والصحف الضحلة، التي يتسبب مجرد ذكرها في الاحساس بالدوار أو تسبب الحزن لمن يسمع بها.

في العادة تنتهي اللقاءات في الفجر.

فيتركهم لوبرنس في بيت آمن ويضغط على أيديهم وهو يصافحهم كما يعانقهم عناقًا سريعًا تليه بعض كلمات الشكر، ولكن فور انتهاء السلام، ينفصل الكتّاب عن لوبرنس محاولين نسيانه وكأنه حلم سيء لا معنى له. يمثل وجوده إحساسًا بالرفض لا يمكن وصفه أو التعبير عنه. يجتمعون

به ويقف بينهم، ولكن في الأعماق يرفضون قبوله رفضًا باتًا وبكل قوة.

ربما لأنهم يدركون أن لوبرنس ظل سنوات طويلة في كنف دور النشر الرخيصة أو الفقيرة، ويدركون أنه لا أحد يسلم من هذه الدور أيًا كان، ولكن قد يسلم هؤلاء الكتاب الأقوياء اللامعون القادرون على القتال.

ولا يندرج لوبرنس تحت بند هؤلاء الكتاب. هو ليس فاشستيًا، ولم ينضم لأي حزب أو نقابة للكتاب.

ينظرون إليه بصفته محدث نعمة، أو انتهازيًا (يعتبر هؤلاء أنه سوف يشي بهم للبوليس ويهينهم، وأنه سيتعاون مع البوليس في تحقيقاته ويقدم خدماته كأفضل ما يكون)، وبأن وجوده بينهم كان ضربًا من الجنون، أوكأنه نوع من البكتريا التي تسبب أمراضًا معدية.

فعلي سبيل المثال السيد (د)، هذا الروائي الشهير صاحب الإنتاج الخصب، كتب في يومياته أن لوبرنس يبدو له وكأنه مثل شبح صيني ولا يضيف تعليقًا آخر.

أما بقية الكتاب باستثناء واحد او أثنين فيتجاهلونه تمامًا.

فالإشارة إلى شخصه نادرة، أما الإشارة إلى ما يكتبه فلا وجود لها. فلم يكلف أي من الكتاب الذين أنقذ حياتهم نفسه بالاطلاع على ما يكتبه الانسان الذي أنقذ حياتهم.

وبعيدًا عن كل شيء، فإن لوبرنس يواصل عمله في

الصحيفة (حيث يثير الشبهات أكثر يومًا بعد يوم) وينظم أشعاره في الوقت نفسه. وتزداد يومًا بعد يوم الأخطار التي تواجهه للمهام التي يتولاها وتتجاوز الحد الأدنى المطلوب للمحافظة على صورته. حتى أنها في الغالب تتجاوز مدى جسارته.

ذات ليلة أنقذ لوبرنس شاعرًا سورياليًّا كانت تتعقبه قوات الجستابو، وانتهت به الحال بعد أيام في معسكرات النازية في ألمانيا (ولكن لوبرنس لم يكن مسئولًا عن ذلك)، وقد رحل حتى من دون توجيه كلمة شكر لـ لوبرنس، أما لوبرنس فكان ينظر إلى الشاعر بصفته رفيقا في أزمة كبيرة، وفي هذا المستوى يجب أن يفيض الامتنان، ليس بصفته زميلًا (كلمة نظيعة في هذا السياق) أو حتى بمجرد كونه كاتبًا مماثلًا في هذه المهنة الصعبة.

في يوم آخر يرافق لوبرنس باحثًا آخر إلى الحدود الفرنسية الإسبانية، وكان قد وصف من قبل أحد كتب لوبرنس بكلمات تنم عن الاحتقار (وربما يكون مصيبًا)، ولكنه في هذه الساعة الرهيبة لا ينكر ضآلة قيمة أعمال لوبرنس أو حتى وجوده في الساحة الأدبية.

وفي بعض الأحيان يتأمل لوبرنس محيّاه، وتكوينه الأدبي، ومواقفه، وقراءاته فيشعر أنها مجتمعة في مجملها مسئولة عن هذا الرفض الذي يلاقيه من الجميع.

كتب على مدار ثلاثة أشهر قصيدة مؤلفة من ستمائة بيت. وذلك في الوقت المتاح له بعيدًا عن العمل، ومهمة حماية الكتّاب، ويغوص فيها في عوالم الشعراء الأقل قيمة: أسرارهم وتضحياتهم.

ولكن بانتهاء القصيدة (التي كلفته الألم وإرهاق سهر الليالي) يدرك وهو ذاهل أنه يعتبر من الشعراء الأقل قيمة. وربما لو كان شاعرًا آخر لتأمل وفحص الأمور. ولكن لوبرنس فقد الفضول بشأن اكتشاف نفسه وحرق القصيدة.

وفي شهر أبريل من عام ١٩٤٣ يصبح لوبرنس عاطلًا عن العمل يعيش على الكفاف، وفي حالة هرب دائم من البوليس. وممن يشون به ومن الفقر نفسه.

وذات يوم حمله الحظ للاختباء بمنزل شابة روائية.

كان لوبرنس خائفًا والفتاة في حالة أرق، فواصلا حديثًا طويلًا امتد لساعات.

لا أحد يعرف ما الأمور التي اعتملت في نفس لوبرنس تلك الليلة فأيقظت أسراره الدفينة، فقد اعترف في هذه الليلة بكل حرية، بإحباطاته وأحلامه وجميع طموحاته.

بينما الروائية الشابة التي تتصرف من منطلق أنها فرنسية قادرة على تقديمه إلى الدوائر الأدبية، فهي تعترف بـ لوبرنس أو تريد الاعتراف به وتقديره. فلقد اعتادت أن تراه خلال الأشهر الأخيرة في ظل أحد الكتاب المشاهير الواقع في

خطر، وفي مرات أخرى كثيرة في ردهة أحد المنازل لكاتب مسرحي ملتزم، أحيانًا يقوم بدور صبي المكتب أو السكرتير أو حامل الكاميرا.

قالت له الروائية الشابة: « كنت أنت الشخص الوحيد الذي لم أعرفه، وكنت أتساءل، ما الذى تفعله في هذه المنازل؟ كنت تبدو مثل الرجل غير المرئي، دائمًا في هدوء، ودائمًا مستعد للمساعدة».

أسعدت لوبرنس صراحة الشابة ولم يذهب.

تحدث عن أعماله وعن دهشته باستماعها إليه.

وتطرق حديثهما دون شك إلى نقطة « التهميش» الذي تعرض له لوبرنس، وبعد ساعات طويلة، بدا أن الفتاه قد توصلت إلى المشكلة وحلها.

كلمته بصراحة دون مواربة، أخبرته أن هناك شيئًا ما في وجهه ونظرته وطريقة حديثه تسبب الشعور بالنفور منه لغالبية من يتحدثون إليه. والحل كان واضحًا: يجب عليه أن يختفي، أن يكون كاتبًا سريًا، فليحاول ألَّا يظهر بوجهه إلى جوار كتاباته الأدبية.

فالحل بسيط وطفولي ولكنه ناجح.

استمع لوبرنس باهتمام إلى الشابة.

يعرف أنه لن يتبع نصائح الروائية الشابة، شعر بالدهشة

وربما الإهانة إلى حد ما، مدركة أنها المرة الأولى التي يجد فيها من يستمع إليه ويفهمه.

صباح اليوم التالي أتت سيارة من سيارات «المقاومة» واصطحبت لوبرنس.

وقبل رحيله مدت الشابة يدها وصافحته وتمنت له الحظ.

ثم قبلته في شفتيه وبكت.

لم يفهم لوبرنس شيئًا، فتمتم بعبارة شكر وهو مرتبك. ثم رحل. نظرت الفتاة ناحيته من النافذة. ولكن لوبرنس لم ينظر خلفه.

واصلت الروائية الشابة بقية اليوم تفكر في لوبرنس، وتحلق بخيالاتها معه، تخبره بحبها له، إلى أن غلبها التعب والنعاس ونامت على الأريكة (وقد شاهد لوبرنس كل ذلك بطريقة ما، ربما في أحد أحلامه).

لن يرى أحدهما الآخر مرة ثانية.

يتمكن لوبرنس، المتواضع، والمثير للقرف، من الحياة وقت الحرب وفي عام ١٩٤٦ ينزوي للعيش في إحدى القرى الصغيرة واسمها «بيكارديا» ويمارس مهنة التدريس.

لم ينقطع عن النشر في بعض الصحف والمجلات الأدبية، لم يكن ينشر كثيرًا ولكن بانتظام.

ولكن بداخله أيقن تمامًا أنه كاتب سيء، كما أدرك في

المقابل أن الكتاب الجيدين في حاجة إلى السيئيين على الأقل ليقرأوا لهم أو ليكونوا مساعدين.

وعرف أيضًا أنه حين أنقذ (أو ساعد) بعض الكتاب الجيدين، فإنه بهذا الشكل قد أصبح لديه الحق في كتابة أي شيء على الصفحات وفي أن يخطىء أو يصيب.

وحالفه الحظ في أن ينشر في مجلتين أو ربما ثلاث.

وفي لحظة ما حاول رؤية الروائية الشابه مرة ثانية، أو معرفة أخبار عنها. ولكن حين ذهب إلى مسكنها مرة أخرى، وجد أناسًا آخرين يقطنون المنزل وأخبروه أنهم لا يعرفون شيئًا عنها.

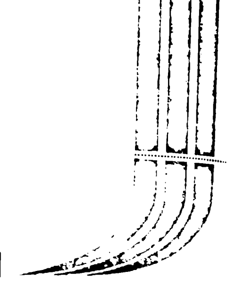
ويحاول لوبرنس بالطبع البحث عنها، ولكن هذه قصة أخرى.

والمؤكد أنه لم يرها مجددًا أبدًا.

كان يرى الكتّاب في باريس.

ليس بشكل متواصل مثلما كان يرغب قبلًا، ولكنه يراهم وأحيانًا يتحدث معهم، وبعضهم يعرفونه (وإن بشكل مبهم)، وبعضهم الآخر قرأ له ربما قصيدة أو قصيدتين نثريتين.

يعتبر وجوده، وضعفه وهشاشته، وقوة حضوره المخيف مجرد حافز أو عنصر للتذكرة للآخرين.



إنريكي مارتين

إلى إنريكي بيلاماتاس

الشاعر قادر على احتمال أي شيء، مثل القول بأن الإنسان قادر على احتمال كل شيء، ولكن ليس هذا حقيقيًّا: فالأشياء التي يستطيع أن يتحملها الإنسان قليلة، تلك التي يستطيع أن يتحملها بالفعل.

في المقابل يستطيع الشاعر تحمل كل شيء، وبهذه القناعة نمضي نحن الشعراء قدما في النضوج.

يعتبر هذا التصريح حقيقة لا شك فيها، ولكنه يؤدي إلى الانهيار والجنون والموت في أحوال أخرى. تعرفت على «إنريكي مارتين» بعد وقت قصير من وصولي إلى برشلونة. كان في عمري نفسه، ولد عام ١٩٥٣ وكان شاعرًا.

يكتب بالإسبانية والقطالونية، ولأعماله نفس التأثير بالرغم

من اختلافها الشكلي واللغوي. تميز شعره المكتوب باللغة الإسبانية بأنه مصطنع، تعبيراته مقحمة وأحيانًا أخرق. يخلو من أية لمحة أصالة وكان شاعره المفضل بهذه اللغة هو «ميجيل إرنانديث»، شاعر جيد، ولكنني أجهل تمامًا سبب إعجاب جميع الشعراء به (أستطيع أن أخاطر بذكر هذه الإجابة والتي قد تكون منقوصة إلى حد ما).

يتحدث إرنانديث عن الألم بصوره كافة . والشعراء السيئون اعتادوا على تحمل الألم مثل حيوانات التجارب وخصوصًا على مدار سنوات شبابهم. وعلى العكس من ذلك كله في شعره بالقطالونية، اعتاد أن يتحدث عن أشياء حقيقية ومن الحياة اليومية، نعرفها نحن أصدقاؤه فقط، وهو ما يعتبر لطفًا في التعبير: وكنا نحن أصدقاؤه نقرأ أيضًا شعره بالإسبانية، إلّا أن الفرق الوحيد – على الأقل بالنسبة للقراء- أنه اعتاد نشر الشعر بالإسبانية في المجالات كثيفة التوزيع التافهة، وأعتقد أنه لم يعرض شعره بالقطالونية سوى علينا نحن الأصدقاء في البارات أو في زياراته المنزلية لنا.

ولكن قطالونية إنريكي كانت سيئة، فكيف تخرج القصائد بهذه الحدة بالرغم من أن الشاعر الذي يكتبها لا يجيد تمامًا اللغة التي يكتب بها؟

أعتقد أن هذا يدخل في إطار أسرار حقبة الشباب.

الأمر أن إنريكي لم تكن لديه معرفة حتى بمبادىء اللغة

القطالونية الأساسية، والحقيقة أنه كان يكتب بشكل سيء، سواء باللغة الإسبانية أو القطالونية، ولكنني لازلت أذكر بعض قصائده ببعض العاطفة، فهي ليست ببعيدة عن فترة شبابي.

أراد إنريكي أن يصبح شاعرًا، ولهذا بذل كل طاقته وقوته لتحقيق ذلك الهدف.

كان عنيدًا (وعناده الأعمى وضعف تمييزه مثل رعاة البقر في الأفلام. الذين يسقطون أمام رصاص البطل مثل الذباب ويثابرون بشكل انتحاري لتحقيق هدفهم)، ولكن ذلك العند في المقابل كان يكسبه هالة أدبية قدسية، تشبه تلك التي تميز الشعراء الشباب والعاهرات العجائز.

في ذاك الوقت كنت أبلغ ٢٥ عامًا وكنت أعتقد أنني قمت بكل شيء.

وعلى العكس من ذلك. كان إنريكي يريد أن يفعل كل شيء أعد نفسه بطريقته ليلتهم العالم.

وكانت خطوته الأولى تأسيس مجلة أو مطبوعة للهواة، واستنفذت جميع مدخراته وعمله لمدة ١٥ عامًا في أحد المكاتب المظلمة قرب الميناء. وفي آخر لحظة قرر بعض أصدقاء إنريكي (وأحد أصدقائي) ألَّا ينشروا قصائدي في العدد الأول، وعلى الرغم من أن ذكر ذلك يضايقني، وعكر صداقتنا لفترة.

ووفقًا لإنريكي فإن السبب أن صديقًا «شيليًا» آخر – صديقًا كنت

عرفته منذ مدة طويلة - أشار إلى أن وجود شاعرين اثنين من شيلي في عدد نفسه يعتبر أمرًا مبالغًا فيه في مجلة إسبانية.

خلال هذه الأيام كنت في البرتغال وحين عدت قررت أن أتغاضى عن الأمر. فلم يكن هناك للمجلة صلة بي أو صلة لي بها.

ولم أقبل التبريرات التي قدمها إنريكي، من جانب لأن ذلك يريحني. ومن جانب آخر لأرضي كرامتي الجريحة، وتجاهلت الأمر برمته.

ولم يعد يرى أحدنا الآخر لفترة.

ولم أتجاهل معرفة أخباره وصولاته بشكل موجز من خلال أصدقاء مشتركين لنا. كنت أقابلهم في بارات الحي القديم.

وعرفت أن المجلة (واسمها الحبل الأبيض، وهو عنوان تنبؤ، مع أنني أعتقد أنه لم يكن من اختياره). أصدر عددًا واحدًا، ثم حاول عرض عمل مسرحي على مسرح «نووباريس»، ولكن الأمور لم تمض على نحو طيب بعد العرض الأول، وحاول إصدار العدد الثاني.

وذات مساء وجدته يطرق بابي. كانت بيديه محفظة مكتظة بالقصائد ورغب في أن أقرأها. ذهبنا للعشاء في مطعم بشارع «كوستا»، وبينما يشرب قهوته كنت أقرأ بعض القصائد.

انتظر إنريكي رأيي بمزيج من الرضا عن النفس والخوف. وأدركت أنني لو أخبرته بأنها قصائد رديئة فلن أراه مرة

ثانية، بالإضافة إلى ساعات النقاش الطويلة التي قد تصل إلى وقت متأخر ليلًا.

أخبرته أنها تبدو لي مكتوبة بشكل جيد. لم أبد حماسة شديدة، ولكنني حرصت على ألَّا أنزلق إلى الحد الأدنى من النقد. حتى أنني أخبرته أن إحداها تبدو لي جيدة جدًّا، على طراز كتابة الشاعر ليون فيليبي»، قصيدة يتغنى فيها بالحنين إلى إقليم «إكستريمادورا» بالرغم من أنه لم يزره طيلة حياته.

لا أعلم هل صدق كلامي أم لا.

كان يعرف أنني في ذاك الوقت مولعًا بقراءة «سانجينيتي» وكنت أتابع تقنيات الشعر الايطالي الحديث وبالتالي لم تكن تعجبني قصيدة «إكستريمادورا» ولكنه تظاهر بالاعتقاد برأيي وكأنه سعد بمجرد قراءتي للقصائد، ثم بدأ الحديث بشكل عرضي عن مجلته التي انتهت في عددها الأول، وعندئذ أدركت أنه لم يصدق ما قلته له ولكنه آثر الصمت.

هذا هو كل شيء.

جعلنا نتحدث لبرهه عن سانجينيتي وفرانك أوهارا (أوهارا ما زال يعجبني ولكنني الآن لم أعد أقرا سانجينيتى)، ثم حدثني عن المجلة الجديدة التي يفكر في إصدارها، ولم يطلب مني قصائد لينشرها بها، ثم تبادلنا التحية بالقرب من منزلي.

ومر عام أو ربما اثنان على لقائنا الثاني.

في ذاك الوقت كنت أعيش مع شابة مكسيكية، ولكن علاقتنا

انتهت. أيضًا علاقتنا بالجيران، والأصدقاء الذين أصبحوا لا يجرؤون على زيارة منزلنا، في هذه الفترة لم نكن نرى أحدًا تقريبًا. كنا غاية في الفقر (المكسيكية كانت تنتمي إلى عائلة غنية في المكسيك. ولكنها ترفض تلقي أية مساعدة من ذويها).

ومن الصعب إدراك أهدافه الغامضة في ذلك، فقد راقت اللقاءات لـ إنريكي وصديقته واستمرت لخمس مرات وحسب.

وبالرغم من علاقات الصداقة. كلمة الصداقة مبالغ فيها. فإن الأشياء التي تجمعنا كانت قليلة للغاية.

كانت دهشتي الكبرى حين رأيت مسكنه (حين انقطعت علاقتنا كان يعيش مع والديه وبعد ذلك عرفت أنه يشارك اثنين آخرين منزلًا مؤجرًا ولكنني لم أذهب لأراه هناك أبدًا). والآن هو يعيش في الطابق الأخير في مبنى بحي «جراثيا» بيته مليء بالاسطوانات واللوحات. بيت فسيح، ربما يكون مظلمًا بعض الشيء، ويرجع ذلك للطريقة متعددة الألوان التي صممت بها صديقته المنزل، على الرغم من عدم افتقاره لبعض التفاصيل المميزة مثل التذكارات التي أحضراها من رحلاتهما السياحية إلى (مصر وإسرائيل وتركيا وبلغاريا) والتي تذكر السائح بذكرياته.

أما دهشتي الثانية فكانت عندما أخبرني أنه لم يعد يكتب

شعراً. قال ذلك بعد أن انتهينا من العشاء، في حضور صديقته المكسيكية، ولكن الاعتراف كان موجهًا لي أنا (وقتها كنت ألهو بخنجر عربي فخم على صفحة معدنية مشغولة من الجانبين، أعتقد أنها مجرد زينة وليست للاستخدام).

وحين نظرت إلى وجهه رمقني بنظرة معناها « لقد أصبحت ناضجًا»، لقد فهمت أنك لكي تستمتع بالأدب فليس عليك أن تسفه من نفسك، لا حاجة لك للكتابة أو بذل الجهد.

أما المكسيكية (وكانت مثل الديناميت الحي) فأبدت تعاطفًا معه، وأرغمته على أن يقص علينا حكاية مجلته الأدبية التي لم أنشربها أشعاري، وجدت أسبابه معقولة ومقبولة وحكيمة في تركه لكتابة الشعر، وقرر أنه لن يعود للأدب حتى بقوة ومجهود متجددين. وافقت صديقته على كلامه بنسبة ٩٩ ٪.

ووجدت الفتاتان (ولكن بالطبع صديقة إنريكي بشكل أكبر) أنه اكثر شاعرية لإنريكي تركه للشعر وتركيزه على عمله - كان قد ترقى في عمله وهو ما جعله يزور «كارتاخينا» و«مالاجا» من وقت لآخر لأسباب لم أرغب في معرفتها - بالإضافة إلى اسطواناته ومنزله وسيارته، فلماذا عليه أن يبذل ساعات طويلة في تقليد الشاعر «ليون فيليبي» أو حتى في أفضل الأحوال تقليد «سانجينيتي».

لم أعبر عن رأيي وحين سألني إنريكي بشكل مباشر، أخذت أفكر (يا إلهى وكأنها خسارة لا تعوض للشعر الإسباني أو

القطالوني). فأخبرته أن أي اختيار يتخذه سيكون جيدًا. ولم يصدقني.

تحدثنا في تلك الليلة عن أشياء كثيرة منها موضوع الأبناء. هذا منطقي: الشعر والأبناء. وأتذكر (نعم أتذكر ما يلي بوضوح تام) أن إنريكي أكد رغبته في أن يكون أبًا، والمرور بتجربة الأبوة. هذا ما قاله حرفيًا. ولا علاقة لصديقته بذلك، أراد أن يحمل ابنه في بطنه، ويمر بنفسه بفترة الحمل ويلد ابنه. أذكر أنني تجمدت تمامًا لدى سماعي لما قاله. فيما نظرت إليه صديقته والفتاة المكسيكية بحنان بالغ. فهذا جعلني أرى ما حدث أو ما سيحدث بعد ذلك بسنوات للأسف ليست طويلة.

وبعد تلاشي دهشتي القصيرة، التي زالت كالومضة، بدا لي تصريح إنريكي لا يستحق أي رد. في النهاية، لقد أرادا أن يحصلا على طفل. وفي المقابل لم تكن لدي أية رغبة في ذلك، وبعد مرور سنوات، الوحيد الذي حظى بطفل من الأصدقاء الأربعة كان أنا.

الحياة ليست فقط سوقية ولكنها أيضًا لا تتحمل أي تفسير.

وفي العشاء الأخير الذي جمعنا، كانت علاقتي بالفتاة المكسيكية على وشك الانتهاء، فحدثنا إنريكي عن مجلة يتعاون معها.

قلت لنفسي، يكفي هذا. ثم أصلح عبارته بأنهما يتعاونان مع المجلة.

حين استخدم الفعل في صيغة الجمع تخيلت أنه يشير إليّ

ثم أدركت أنه يقصد نفسه هو وصديقته. ولمرة من المرات القليلة التي اتفقنا فيها أنا والمكسيكية (وهي المرة الأخيرة)، طلبنا مشاهدة هذه المجلة والإطلاع عليها. كانت واحدة من هذه المجلات التي تباع في الأكشاك وتتنوع موضوعاتها ما بين الظواهر الغريبة والأشباح وتجلِّي العذراء، وثقافات السكان الأصليين في أمريكا اللاتينية، وغيرها من الظواهر والأحداث.

واسم المجلة «أسئلة وإجابات»، وأعتقد أنها لاتزال تباع حتى الآن، وتتعلق بما يفعلانه في حياتهما بشكل كامل.

يذهب إنريكي وصديقته (التي لم تتكلم خلال عشائنا الأخير)، يذهبان في نهاية الأسبوع إلى أماكن لرؤية ظواهرها (مثل الأطباق الطائرة)، فيتحدثان مع الأشخاص الذين رأوا هذه الظاهرة ويجرون معهم حديثًا، يختبران المناطق ويبحثان عن الكهوف (أخبرني إنريكي ذات يوم أن العديد من جبال قطالونيا ومناطق أخرى في إسبانيا كانت جوفاء).

كانا يقضيان الليل على ضوء الشموع في خيام والكاميرا الفوتوغرافية إلى جوارهما.

أحيانًا كانا يذهبان بمفردهما وأحيانًا أخرى مع مجموعة، من أربعة أو ستة أشخاص، أمسيات رائعة في الهواء الطلق، وحين ينتهي كل شيء، يكتبان تقريرًا مفصلاً (ولكن لمن تحديدًا كانا يرسلان التقرير المفصل ؟) ويرسلانه لمجلة أسئلة وإجابات بعد أن يرفقانه بالصور.

وقرأت خلال جلستنا معًا مقالتين موقعتين باسمهما، وجدتهما مكتوبتين بصياغة رديئة، مهلهلة، تكرر بها لفظ «العلم» مرات عديدة، كانتا لا تحتملان. أراد معرفة رأيي في المقالتين.

لفت انتباهي أنه للمرة الأولى يهتم برأيي ولو قدر أنملة، وللمرة الأولى كنت صادقًا وصريحًا معه. اقترحت عليه بعض التغييرات، وأخبرته أن عليه أن يتعلم كيف يكتب، وسألته عما إذا كانت المجلة تتعامل مع مصحح لغوي.

وعند خروجنا من المنزل لم نكف أنا والمكسيكية عن الضحك، وأعتقد أننا انفصلنا في هذا الأسبوع نفسه، ذهبت هي إلى روما، وبقيت أنا في برشلونه عامًا آخر ولم تصلني أخبار عن إنريكي لفترة طويلة.

في الحقيقة أعتقد أنني نسيت أمره تمامًا.

في هذا الوقت كنت أسكن في ضواحي برشلونه بمنطقة جيرونا بصحبة كلبة وخمس قطط. ولم أعد أرى أصدقائي، اللهم من وقت لآخر يمر أحدهم بي في المنزل لفترة لا تتجاوز ليلتين، فنتحدث عن الأصدقاء في برشلونة والمكسيك، ولا أتذكر أنه تمت الإشارة إلى إنريكي مارتين وكنت أنزل إلى القرية مرة واحدة أسبوعيًا برفقة كلبتي لأتسوق طعامًا وأنقب عن خطابات في صندوق البريد، وأحيانًا كنت أجد خطابات من شقيقتي التي تعيش في المكسيك الجديدة التي لم أعد

أعرفها. أما الخطابات الأخرى فكانت خاصة جدًّا بالنسبة لي، فهي من شعراء من أمريكا الجنوبية كنت أتواصل معهم دون انتظام، في علاقة اتسمت بالألم والمفاجآت، انعكاس صادق لأنفسنا وقت أن بدأنا في توديع شبابنا، وأن نقبل في النهاية بالأحلام.

وذات يوم، تلقيت رسالة مختلفة، في الواقع لم تكن رسالة. ولكنها دعوة أنيقة من إحدى دور النشر في برشلونه لحضور حفل «كوكتيل» بمناسبة تقديم روايتي الأولى.

ولم أحضر الحفل لأن شخصًا ما كتب البيانات على هذا النحو:

٥١١٧٩+?٤٦٩٩٩٣-٤٢٩٧٧٧+٢٨٦٠

٤٩٨٢٠٧٨٥٦+٣٩١٤٦-٩٦٦+٥٨٨٩٠٤

ولم تكن الرسالة موقعة. وطبيعي أن المرسل قد حضر حفل توقيع كتابي الذي تغيبت عنه أنا.

وعليه لم أتجشم عناء فك شفرة الدعوة: لاشك في أنها جملة مؤلفة من ثماني كلمات ولاشك في أن من قام بها أحد أصدقائي باستثناء الرسومات في البطاقة، فالأمر ليس بلغز يستحق التفكير.

كان الرسم عبارة عن طريق متعرج، وهناك منزل إلى جانبه شجرة، ونهر يتفرع إلى فرعين، وجسر، وجبل أو ربما ربوة وكهف.

وعلى الجانب رسم لبوصلة تشير إلى اتجاه الشمال والجنوب.

وعلى الجانب المقابل إلى جوار الطريق وفي الاتجاه العكسي للجبل (تمنيت لو أنني كنت جبلًا) والكهف سهم يشير إلى اسم القرية «أمبوردان».

وخلال المساء بينما كنت أجهز طعامًا، تأكدت بما لا يدع مجالًا للشك أن الدعوة كانت من «إنريكي مارتين».

تخيلته خلال حفل التقديم، يتحدث مع مجموعة من أصدقائي (فلا شك أن أحدهم قد أعطاه بياناتى البريدية)، وينتقد كتابي بعنف، بينما يتحرك من مكان لآخر وبيده كأس نبيذ، فيما يوجه تحياته للجميع، ويتساءل بصوت يتعمد أن يكون مرتفعًا عما اذا كنت سأظهر أم لا.

أعتقد أنني شعرت بشيء ما يشبه الاحتقار.

وأظن أنني تذكرت ما تعرضت له قبلًا بشأن مجلة «الجبل الأبيض».

بعد ذلك بأسبوع تلقيت رسالة مجهولة.

ومرة أخرى دعوة في ورق مقوى من أجل حفل تقديم كتابي (لا شك أنه فعل الكثير خلال حفل التقديم)، بالرغم من أنني اكتشفت هذه المرة بعض الاختلافات. ظهر تحت اسمي أبيات شعر للشاعر «ميجيل إرنانديث» أحد هذه الأبيات التي تتحدث عن العمل والسعادة.

وخلف البطاقة التي اشتملت على الرموز السابقة نفسها، أفردت الخريطة اختلافات أساسية.

في البداية اعتقدت أنها لا تعني شيئًا، فالخطوط بدت متداخلة، متراكبة فيما بينها ومعها نقاط متقطعة وأسهم غير واضحة، وعلامات تعجب، رسومات ضبابية ومتقاطعة. وبعد ما تأملت الرسومات لمرات عديدة وقارنتها بالبطاقة السابقة: أدركت أن الخريطة القديمة ليست إلَّا امتدادًا للأولى، فالخريطة الثانية كانت للكهف.

أتذكر أنني فكرت في حينها أننا لم نعد صغارًا لمثل هذه المزحات، وذات مرة كنت أتصفح مجلة «أسئلة واجابات» في كشك الجرائد ولم أعثر على اسم إنريكي مارتين بين فريق العمل وبعد أيام نسيته ونسيت خطاباته.

أعتقد أنه مرت عدة شهور، ربما ثلاثة أشهر أو أربعة.

سمعت صوت سيارة إلى جوار مسكني. واعتقـــدت أنها لشخـــص ما ضل طريقه.

خرجت مع كلبتي لأرى من القادم.

كانت السيارة متوقفة إلى جوار مجموعة شجيرات، ويسمع صوت الموتور وترى مصابيح السيارة مضاءة.

لم يحدث شيء خلال اللحظات التالية. لم أتمكن من رؤية عدد الموجودين بالسيارة، ولكن لم أشعر بالخوف.

فطالما الكلبة إلى جواري لا أخاف أبدًا. أخذت الكلبة تنبح متحمسة لتنقض على الغرباء.

حينئذ توقف محرك السيارة وأطفئت الأنوار، ونزل الراكب الوحيد من السيارة ليحييني بحرارة.

كان إنريكي مارتين. أخشى أنني قد بادلته التحية بفتور.

أول سؤال وجهه إليَّ كان عما إذا كنت قدتسلمت خطاباته. أجبته بالإيجاب.

سألني: هل عبث أحدهم بالأظرف، هل كانت مغلقة بشكل جيد؟ رددت بالإيجاب وسألته ما الأمر؟ أخبرني أن هناك بعض المشكلات، بينما كان ينظر إلى أضواء القرية وظهره إلى المحجر.

طلبت منه أن ندخل إلى المنزل، ولكنه لم يتحرك من مكانه، ماهذا؟ سألني مشيراً إلى الأضواء والضوضاء في المحجر في الجهة المقابله لنا. أخبرته أن ذلك ما يحدث كل عام، مرة على الأقل وأنني أجهل السبب، وأن العمال في هذه الناحية يشتغلون إلى منتصف الليل.

قال إنريكي: هذا غريب.

عاودت طلبي أن ندخل إلى المنزل ولكنه لم يتحرك ويبدو أنه تصنع أنه لم يسمعني.

قال بينما الكلبة تتشممه: لا أرغب في مضايقتك.

قلت: أدخل لنشرب شيئًا.

قال: لا أحتسي الكحول.

لقد كنت في حفل تقديم روايتك واعتقدت أنك ستحضر.

قلت: لم أذهب.

أعتقدت أنها اللحظة التي سيبدأ فيها إنريكي بانتقاد كتابي.

ولكنه قال لي: أريد أن أحفظ لديك شيئًا.

لاحظت أنه يمسك في يده برزمة أوراق، اعتقدت أنها قصائده.

بدا وكأنه خَمَّن ما يجول بخاطري.

أجاب بابتسامة عاجزة وفي الوقت نفسه شجاعة، لم أرها لسنوات مضت على الأقل على وجهه: لا، ليست قصائد.

سألته: ما هي؟

فقال: لا شيء، ليست أشياء أرغب في أن تقرأها، بل تحفظها لديك ليس إلّا.

قلت له: حسنًا، فلندخل.

لا، لا أرغب في مضايقتك، وبالمثل لا وقت لديَّ للدخول، يجب أن أرحل حالًا.

سألته: كيف عرفت عنواني؟ نطق إنريكي باسم صديقنا «الشيلي» المشترك، الذي اعتقد قبلًا بأن وجود اسمين لشاعرين من شيلي في العدد نفسه لمجلة «الجبل الأبيض» لا معنى له.

قلت: وكيف يجرؤ هذا التيس على أن يعطي عنواني لأحد.

سألني إنريكي: ألم تعودا صديقين؟

قلت: بلى، أعتقد هذا، ولكننا لم يرَ أحدنا الآخر منذ فترة طويلة. قال إنريكي: ولكنني سعيد أنه أعطاني العنوان، لقد سعدت برؤيتك مجددًا.

كان يجب أن أقول وأنا أيضًا، ولكنني لم أقل شيئًا.قال إنريكي: حسنًا، سوف أذهب.

في تلك اللحظة بدأت أصوات ضوضاء شديدة قوية، وكأنها انفجارات، صادرة عن المحجر، فجعلته يضطرب.

أخذت في تهدئته وقلت له: اهدأ، لا شيء هناك.

ولكن في الحقيقة كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها مثل هذه الانفجارات في مثل هذا الوقت قال لي: حسنًا، سوف أذهب.

قلت له: اعتن بنفسك.

سألني: هل بإمكاني معانقتك ؟ قلت له طبعًا.

سألني: هل سيعضنى الكلب ؟

أخبرته: إنها كلبة، ولن تعضك.

احتفظت على مدار عامين برزمة الأوراق التي استودعني إياها إنريكي، لم تمس كما هي بأربطتها وعقدتها، بين أوراقى التي

احتفظ بها، وزاد عددها بشكل هائل للأسف خلال ذلك الوقت.

الأخبار التي وصلتني عن إنريكي كانت عن طريق صديقنا الشيلي، الذي تحدثنا معه قبل ذلك عن المجلة والسنوات الماضية. استوضحت إقصائي من نشر قصائدي في المجلة، والدور الذي لعبه في ذلك، ولكن النفي كان أقوى من التوضيح. وعلى الرغم من ذلك، فإن مثل هذه الأمور لم تعد تهم.

ولكنه كان يعرف أن لدى إنريكي مكتبة لبيع الكتب مع امرأته السابقة. ولكنه لم يعد يعيش برفقة صديقته. أخبرني أنهما لم يتزوجا قط، إلّا أن إنريكي منحها هذه الوظيفة لأنها كانت بلا عمل، كما أنها تجيد هذا الأمر.

- سألته: وهل سارت معه الأمور على ما يرام في المكتبة؟

- قال: بشكل جيد جدًا فهو على ما يبدو قد ترك الشركة التي كان يعمل فيها منذ صباه، وقد أعطوه مبلغًا مرضيًا جدًا.

- قلت له: وهو يعيش هناك، في غرفتين تقعان في نهاية المكتبة، ليستا واسعتين. عرفت بعد ذلك أن الغرفتين متصلتان بفناء تدخله الشمس، زرع فيه مجموعة من نباتات الفيكس وزهور السوسن والبنفسج والقرنفل.

كان للمكتبة بابان، حين يغلق المكتبة يسدل الستائر المعدنية فوقهما ويسكّر بمفتاح، وباب صغير آخر يفضي إلى ممر بالمبنى.

لم أرغب في سؤاله عن العنوان، وبالمثل لم أسأله عما إذا كان

إنريكي يكتب أم لا. بعد ذلك بقليل، تلقيت رسالة من إنريكي وقعها وكتب في نهاية الصفحه: مدريد (أعتقد أنه كان في مدريد في ذلك الوقت، ولكني لست متأكدًا)، أخبرني في الرسالة أنه يشارك في المؤتمر الدولي لكتاب الخيال العلمي.

لا، أعتقد أنه لم يكتب: «خيال علمي»، بل أكتفي بحرفي (خ – ع)، كان هناك مراسلاً لمجلة «أسئلة وإجابات»، أما بقية الرسالة فكانت مرتبكة، حدثني عن كاتب فرنسي اسمه غير معروف، ولكنه أكد أن مخلوقات الفضاء ليست إلَّا البشر أنفسهم، نحن الذين نعيش على كوكب الأرض، وهم المنفيون والمطرودون من بلادهم، بحسب حديث إنريكي.

ثم تحدث عن الجهد الكبير الذي بذله الكاتب ليصل إلى مثل هذه الإجابة الخرقاء. وكان هذا الجزء غير مفهوم على الإطلاق.

ثم أشار إلى شرطة العقل.

أطلق تخمينات بشأن جسور متقاطعة في أبعادها، وقع في الشرك مجددًا وكأنه يكتب قصيدة.

وانتهى الخطاب بعبارة ملغزة: جميع من يعرفون ينجون.

ثم شدد في النهاية على التحية، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي راسلني فيها.

جاءتني أخباره التالية عن طريق صديقنا الشيلي المشترك، وبشكل عرضي، أي دون ضغط منِّي وذلك خلال أحد تنقلاتي المتعددة لتغيير مسكني في برشلونة، وبينما كنا نتناول طعام الغداء معًا.

كان إنريكي قد تُوُفيّ منذ أسبوعين، ووقعت الأمور على هذا النحو: أتت صديقته السابقة وزميلته في العمل في الوقت ذاته، فوجدت المكتبة مغلقة وهو ما أثار دهشتها شيئًا ما، لأن إنريكي كان يغلبه النوم في بعض الأحيان.

وتحسبًا لذلك، كان لديها مفتاح خاص، وهو ما استخدمته في فتح الباب المعدني ثم الباب الزجاجي.

توجهت بعد ذلك إلى الحجرتين في نهاية المكتبة، وعثرت على إنريكي، متدليًا وقد شنق نفسه.

أصابتها نوبة قلبية من وقع ما رأت، ولكنها تحاملت على نفسها واتصلت بشرطة النجدة ثم أغلقت المكتبة وجلست على الرصيف تبكي، أعتقد أنها استمرت على هذه الحالة إلى أن وصلت عربة الدورية. حين دخلت الشرطة رافقتها صديقته، ثم أمطرتها بالأسئلة، ولوحظ أن جدران الحجرة كُتبت عليها أرقام كثيرة، بخط كبير وصغير بأقلام وإسبراي.

سجلت الشرطة التفاصيل، والتقطوا صورًا للأرقام وهي:

(٦٥٩٩٨٣+٧٧٩٥١١+٢٣٦٩٢٢ وأشياء أخرى من هذا القبيل وغير مفهومة)، وكان هناك جسد إنريكي المتدلي، ينظر إليهم من أعلى، دون أي اعتبار.

اعتقدت صديقته السابقة أن الأرقام ربما تعود لديون تراكمت عليه. الحق أنه كانت لديه ديون، ولكن ليست لدرجة أن يرغب أحد في قتله، ولكنه كان مدينًا بالفعل. وسألها

رجال الشرطة عما إذا كانت هذه الأرقام كانت موجوده في اليوم السابق وأجابت بالنفي.

ثم استدركت قائلة لأنها لا تعلم، ثم أضافت إنها غير متأكدة لأنها لم تدخل منذ وقت طويل إلى هذه الحجرة.

فحص رجال الشرطه الباب.

فوجدوا أن الباب المفضي إلى ممر المبنى كان مغلقًا بالمفتاح من الداخل، ولم يعثروا على أية قرينة تدل على استخدام العنف لفتح أي من الأبواب وعثروا على النسخة الثالثة للأبواب بجوار خزينة الحساب، فيما الأولى والثانية بحوزة صديقته وعاملة النظافة. وبحضور القاضي تم إنزال جسد إنريكي وحملوه خارج المكتبة. وكشفت دلائل التشريح أن الموت كان فوريا، وأن الحادث يتعلق بحالة انتحار مثل تلك الحالات المتعدده في برشلونة.

خلال إقامتي في منطقة «أمبوردان» التي سريعًا ما هجرتها، ظللت أفكر لليالي طويلة في انتحار إنريكي، كان من الصعب عليَّ الاعتقاد بأن الرجل الذي حلم بالأبوة، الذي حلم بأن يحمل طفله بنفسه، أن تخونه مروءته فيسمح لعاملة النظافه ورفيقته السابقة أن تريا جثته مشنوقة متدلية على هذا النحو، أكان عاريًا؟ أم بملابسه؟ أم في بيجامته؟ ولربما كانت جثته لازالت تتأرجح وسط الحجرة حين تم اكتشافها.

أما مسألة الأرقام فلا زالت تتراءى لي.

لم أبذل جهدًا في تخيل إنريكي يقوم بالكتابة على الجدران

طوال الليل، بدءًا من الثامنة عقب إغلاق المكتبة وحتى الرابعة صباحًا، وقت مناسب للموت.

بدأت أفكر في بعض الافتراضات التي فسرت موته شيئًا ما. الافتراض الأول على خلفية خطابه الأخير، ثم اعتقاده بالعوة إلى الكوكب الأصلي. والافتراض الثاني شمل رؤيتين للحادث، ولكن كليهما مبالغ فيه، والثاني متجاوز للحد.

تذكرت لقاءنا الأخير أمام المنزل، اضطرابه وقلقه، وإحساسه بأن شخصًا ما يتبعه.

وخلال تنقلاتي بعد ذلك في برشلونة أخذت أقارن، روايات أصدقائه الآخرين بشأن الحادث، لم يلاحظ أحد أية تغيرات في سلوكه، وفي المقابل هو لم يعط أحدًا رسومات توضيحية أو ملفات أوراق، أو صورًا أو أظرف مغلقة، ولعل الموقف الوحيد الذي لاحظت فيه تناقضات كان ذلك الخاص بمجلة أسئلة وإجابات.

قال لي البعض إنه لا يتعاون مع المجلة منذ فترة طويلة، فيما قال آخرون إنه واظب على التعاون معها.

وذات يوم، بعد أن أنجزت بعض المهام في برشلونة، توجهت إلى مجلة «أسئلة وأجابات».

استقبلني المدير. توقعت أن أجد شخصًا غامضًا، ولكن خاب ظني، بدا الرجل مثل موظفي شركات التأمين، تقريبًا مثل جميع مديري المجلات.

أخبرته بوفاة إنريكي مارتين.

لم يكن يعرف، وتمتم بعبارات العزاء وانتظر. سألته عما إذا كان إنريكي قد تعاون مع مجلته بشكل منتظم، ومثلما توقعت أجاب بالنفي.

ذكرته بالمؤتمر الدولي الذي نُظم في مدريد لكتابة الخيال العلمي منذ فترة قصيرة. فأخبرني أنهم لم يرسلوا أي مراسل لتغطية المؤتمر، لأن نشاطهم يتعلق بالصحافة العلمية الإخبارية، وليس بالخيال العلمي. ثم أضاف « على الرغم من أن الخيال العلمي كان يستهويه».

فكرت بصوت عال: إذًا ذهب إنريكي على نفقته.

فأجاب المدير: مؤكد أن ذلك ما حدث، فهو لم يقم بذلك من أجل الدار.

وقبل أن ينساه الجميع، وقبل أن يواصل أصدقاؤه العيش في ظل قناعة موته، تمكنت من الحصول على هاتف صديقته السابقة وعاملة النظافة. اتصلت بصديقته وتذكرتني بصعوبة.

قلت: «أنا أرتورو بيلانو»، لقد زرت منزلكم خمس مرات، كنت أواعد حينئذ فتاة مكسيكية.

قالت: نعم.. نعم.

بعد ذلك التزمت الصمت واعتقدت أنا أن شيئًا ما حل بالهاتف. قلت: اتصلت بك لأخبرك عن أسفي الشديد لما حدث.

قالت: لقد ذهب إنريكي لحفل تقديم كتابك.

أجبت: نعم، أعرف، أعرف. قالت: لقد أراد أن يراك.

قلت: لقد تقابلنا.

قالت: لم أعرف لماذا أراد أن يقابلك.

قلت: أنا أيضًا كنت أحب أن أعرف السبب.

قالت: ولكن الوقت الآن متأخر، أليس كذلك ؟

قلت: نعم، هذا ما يبدو.

ظلت تتحدث معي، ربما بسبب حالتها النفسية السيئة، ولكن انتهت العملات التي وضعتها (كنت أتحدث من جيرونا)، وانقطعت المكالمة.

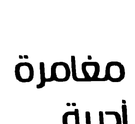
وبعد ذلك بشهور غادرت ذاك المنزل.

واصطحبت معي الكلبة.

واحتفظ جار لي بالقطط. وقبل رحيلي بيوم فتحت الطرد الذي أعطاني إياه إنريكي، انتظرت أن أجد خرائط تفصيلية وأرقام، أو ربما الملابسات التي صاحبت وفاته.

وجدت خمسين ورقة من القطع العادي، مغلفة بدقة. ولم أعثر على أرقام أو رسومات، فقط قصائد مكتوبة على نهج «ميجيل إرنانديث»، وأخرى تشبه قصائد «ليون فيليبي»، وأخرى لـ «بلاس دي أوتيرو»، و«جابرييل ثيلايا».

لم أتمكن من النوم تلك الليلة. كان الدور قد حان عليَّ الآن لأهرب.



مغامرة أدبية

يكتب (ب) كتابًا يسخر فيه من بعض الكتّاب، ولكن من خلال أقنعة متعددة وبشكل ملغز، هو بعبارة أدق يسخر فيه من نماذج لبعض الكتّاب. يتعرض في إحدى قصصه للكاتب (أ)، من نفس جيلـــه وعمـــره، إلّا أنه يفوقه في الشهرة والمال والقرّاء بالقدر الذي يتطلبه طموح رجل يمتهن الأدب حرفة. (ب) ليس أديبًا مشهورًا، بل فقير، وتنشر قصائده في مجلات محلية متواضعة. بالرغم من ذلك، يشترك (أ)، و(ب) في أمور أخرى. كلاهما ينتمي لعائلتين برجوازيتين، أو بمعنى أدق لعائلتين من البروليتاريا المستقرة ماديًا نوعًا ما.

توجه الكاتبان إلى جبهة اليسار، لديهما نفس النهم إلى المعرفة، ويفتقدان نفس المواد الخاصة بتكوينهما العلمي.

وأكسبت دراسة الفلك (أ) طابعًا من الاحتشام والتحفظ،

واعتبرها بدوره (ب) وهو القارئ النهم شيئًا لا يُحتمل.

يقدِّس (ب) منذ بداياته الأولى في صفحات الجرائد وكتبه الجديدة، الحديث عما هو ملموس وموجود بالفعل، بالمثل ما هو إنساني وإلهي، في أسلوب يغلب عليه التكلف الأكاديمي، كمن يستخدم الأدب للترقي إلى مكانة اجتماعية، ولنيل احترام الآخرين، ومن مقامه بصفته من الأغنياء الجدد، يصنعون مرآة يتأملون فيها أنفسهم، ومن بعد ذلك العالم من حولهم.

خلاصة القول، تحول (أ) إلى مجرد كاتب يقلد نموذجًا وفقًا لما يراه (ب).

وكما ذكرنا فإن (ب) يؤلف كتابًا، ويسخر من (أ) في أحد فصوله.

وهي على كل حال ليست سخرية دموية (خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار أنه مجرد فصل في كتاب ضخم).

يخلق شخصية يطلق عليها «ألبارو مدينا مينا»، ويقدمه ككاتب ناجح، ويجعله يتبنى الآراء نفسها التي يعتنقها (أ). تتبدل المشاهدة يتشدق (أ) بمعارضة البورنوجرافيا، ويتبنى «ألبارو مدينا» الموقف نفسه ضد العنف، بشكل آخر، يتصدى (أ) لسياسة التسويق للفن الحديث، ويواصل «مدينا» الكيل للبورنوجرافيا ولا تبرز من بين قصصه قصة «ألبارومدينا».

فالقصص الأخرى ليست أفضل (ولكنها مكتوبه بشكل منظم) ويصدر كتاب (ب)، وهي المرة الأولى له التي يصدر

له كتاب من دار نشر كبيرة، ويبدأ في تلقي المقالات الناقدة.

في البداية لا يلفت كتابه الانتباه، ولكن (أ) ينشر دراسة عن كتاب (ب) في إحدى الصحف الكبرى، يشيد به ويجذب النقاد، فيحقق الكتاب أعلي مبيعات وبالطبع فإن (ب) يشعر بعدم الارتياح، على الأقل، فإن هذا هو ما يشعر به في البداية، وكما هو معتاد، لا يشعر(ب) بغرابة في أن يمتدح (أ) كتابه، فالكتاب جيد من عدة أوجه، وبلا شك فإن (أ) ليس بالناقد السيء.

إلا أنه بعد مرور شهرين، يذكر (أ) كتاب (ب) مرة أخرى في حوار بإحدى الصحف (ليست صحيفة مهمة مثل الأولى) وليس ذلك فقط، بل إنه يمتدحه ويشيد به وينصح بقراءته ويشير قائلًا: «إنه بمثابة مرآة مصقولة ».

شعر (ب) أنه أكتشف شيئًا ما، وكأن الكاتب الشهير يقـــول لـــــه: لا تحسب أنك خدعتني، أعلم أنك وصفتني، وأعلم أنك تسخر مني.

فكر (ب): « إنه يمجد كتابي ليجعله يهوي بعد ذلك، أو على الأرجح يمتدحه لـكيلا يتعرف أحد على شخصية «مدينا مينا»، أو احتمال آخر، وهو أنه لم يلتفت للمغزى وأن لقاء الكاتب - القاريء، كان لقاءً سعيدًا، وتبدو له جميع الاحتمالات بشعة. من جهة أخرى فإن (ب) لا يعتقد في اللقاءات السعيدة (أي البريئة الساذجة) فيبدأ في بذل أقصى الجهد ليتعرف على

(أ) بشكل شخصي.

يشعر في قناعته الداخليه بأن (أ) اكتشف صورته في شخصية «مدينا مينا»،على الأقل فإن لديه القناعة بأن (أ) قرأ كتابه بالكامل، كما أنه قرأه بالشكل الذي كان يتمناه ولكن، لماذا أشار إليه على هذا النحو ؟

ما الغرض من المدح مقابل الذم الموجه له؟ في ذاك الوقت شعر (ب) بأن السخرية ربما كان مبالغًا فيها، وكانت غير مبررة إلى حد ما.

لم يجد أي تفسير يرضيه. الاحتمال الأقرب أن (أ) لم يلحظ الهجاء، وهو احتمال قائم، ذلك أن (أ) يزداد كل يوم بلاهة عن اليوم السابق يقرأ (ب) كل المقالات التي يكتبها (أ) وخصوصًا بعد عرض الكتاب الذي قدمه بمثل ذاك المديح، وفي بعض المرات كان يرغب في سحق وجهه، وجه (أ) يزداد يومًا بعد يوم هدوءًا، وامتلاءً، وبفعل الحقيقة الظاهرة، وعدم الصبر، وكأن (أ) يعتقد أنه مثل «أونامونو» أو ما شابه.

يبذل (ب) أقصى ما لديه لمقابلة (أ) ولكن دون جدوى، فهما يعيشان في مدينتين مختلفتين، كما أن (أ) يسافر كثيرًا، وليس مضمونًا العثور عليه بمنزله، وهاتفه دائمًا مشغول أو يرد المجيب الآلي، فيضع (ب) السماعة على الفور لأنه يشعر بالرعب من هذه الأجهزة.

وبعد زمن، يقتنع (ب) بأنه لن يقابل (أ)، ويحاول نسيان

الأمر، وينجح في ذلك إلى حد بعيد.

ينشر كتابًا جديدًا.

ومرة أخرى يكون (أ) أول من يعرض له.

ويفكر (ب) في أن طاقته في القراءة مهولة تتحدى أية سرعة.

لقد أرسل الكتاب إلى النقاد يوم الخميس، وظهر عرض (ب) عنه يوم السبت فيما لا يقل عن خمس صفحات، وتبرز في العرض قراءته الواعية الفاحصة، قراءة كاشفة وعميقة، بالنسبة لـ (ب) نفسه، الذي يكتشف بعض النقاط في عمل لم يلتفت إليه قبلًا. في البداية يشعر (ب) بـ الامتنان والسعادة، ثم يشعر بالرعب.

يفهم أن الأمر مستحيل، أن يتمكن (أ) من قراءة الكتاب في يوم وأن يرسل للجريدة الدراسة فتنشر، في إسبانيا يُرسل طرد البريد الخميس فيصل الاثنين من الأسبوع التالي. اذن فالاحتمال الأول أن (ب) يعتقد أن (أ) كتب مقاله دون أن يقرأ الكتاب، ولكنه يطرد هذه الفكرة على الفور.

لا شك في أن (أ) قد قرأ كتابه وبدقة متناهية أيضًا. الاحتمال الثاني الأكثر منطقية أن (أ) قد قرأ الكتاب بعد أن حصل علية من دار النشر مباشرة فور صدوره.

يتصل بدار النشر ويتحدث مع مسئولة المبيعات، ويسألها متعجبًا كيف قرأ (أ) كتابه بهذه السرعة، إلَّا أن المسئولة لا

تدري من قريب أو بعيد (على الرغم من أنها قرأت التعليق وسعيدة جدًا به)، ووعدته أن تتحقق من الأمر.

يجلس (ب) على ركبتيه، أمام التليفون يتصل بـ (أ) ويبتهل لكي ينجح في التواصل معه، وبقية اليوم يجلس ليتخيل قصصًا أخرى، جميعها غاية في الحماقة. وبينما هو في منزله حادثته تليفونيًا مسئولة المبيعات في دار النشر حوالي التاسعة مساء: لا يوجد شيء غامض في الموضوع، كل ما في الأمر أن (أ) كان في زيارة لدار النشر قبل توزيع الكتاب بأيام فأخذ الكتاب وقرأه قراءة متأنية سمحت له بكتابة التعليق على هذا النحو.

أعادت هذه المعلومات الهدوء لـ (ب). يستعد لإعداد العشاء، ولكنه لم يجد شيئًا في البراد، فقرر الخروج والعشاء خارج المنزل.

أخذ معه الجريدة وقام بجولة على غير هدى في الطرقات، ثم وجد مطعمًا مفتوحًا لم يدخله من قبل، فدخل.

جميع موائد المطعم غير مشغولة. فيجلس (ب) إلى جوار النافذة في أحد الأركان بالقرب من المدفأة التي تدفيء المكان بالكاد.

تسأله فتاة عما يريد.

يقول (ب) إنه يريد أن يأكل.

الفتاة جميلة جدًا، شعرها طويل وأشعث كأنها استيقظت لتوها من النوم.

يطلب (ب) حساء ثم طبق الخضار مع اللحم، وبينما ينتظر يعاود قراءة المقالة.

لابد أن أرى (أ) أخذ يفكر، يجب أن أخبره بندمي، وأنني لم أرغب في اللعب على هذا النحو. وبالطبع فإن المقالة لا تحمل أي نوع من الإهانة، كما أنها لا تذكر شيئًا لن يذكره النقاد الآخرون. يفكر (ب) أن (أ) يعرف كيف يكتب.

كان الطعام سيئًا للغاية، فمكوناته قديمة آسنة ومتخثرة.

وتغلغل برد المطعم في عظامه. يشعر في اليوم التالي بألم شديد في معدته ويجر قدميه إلى إحدى العيادات المحلية القريبة. أعطته الطبيبة التي باشرت حالته مضادًا حيويًا، ونصحته بأن يتبع نظامًا غذائيًا خفيفا لمدة أسبوع.

يقرر بينما هو راقد في منزله أن يتصل بأحد أصدقائه ويحكي له الموضوع من بدايته.

يتردد في البداية ليختار الصديق.

ثم يفكر: وماذا اذا اتصلت بــ (أ) وحكيت له ؟

ولكنه يقرر إلَّا يفعل، ففي أفضل الأحوال سينسب ما حدث لكونه مجرد مصادفة، وفي الخطوة التالية سيقرأ نصوص (ب) الجديدة بعين أخرى ويقرر أن يسحقه.

وفي أسوأ الأحوال سيتظاهر بأنه لا يفهم ما يجري.

يقرر (ب) في النهاية عدم الاتصال بأحد، ثم يبدأ خوف من

نوع شديد يتولد داخله، وهو أن أحد القراء قد تمكن من فهم ما يشير إليه في كتابه بشأن شخصية «ألبارو مدينا مينا»، وأنه صورة طبق الأصل، بدا له الموقف مرعبًا.

يفكر أنه في حالة أن يطلع على السر أكثر من شخصية سيكون الموقف مروعًا، ولكن من هم القراء القادرون على اكتشاف هوية شخصية «البارو مدينا مينا»؟

في الواقع فإن عدد النسخ ٣٥٠٠ نسخة للطبعة الأولى مـــــن كتابـــه لا يتناسب مع عدد القراء المتواضع الذي سيقرأ مقالة (أ)، وأغلبهم من النوع الذي يتابع مسابقات الجرائد، وجميعهم مثله نفد صبرهم من موضوعات المواعظ وما شابه التي صاحبت الألفية الثانية.

ولكن ماذا يجب أن يفعل (ب) حتى لا يلاحظ أحد ما كتبه ؟

هو لايدرك.

يضرب أخماسًا في أسداس ويفكر في عدة أفكار ممكنة، بداية من تأليف كتاب عن الأعمال الكاملة لـ (أ) (بما في ذلك مقالاته التعسة في الجرائد)، ثم يفكر في محادثته في الهاتف، وأن يجعل الأوراق مكشوفة (ولكن أية أوراق)، بل ويصل تفكيره إلى محاولة زيارته ليلًا، والالتقاء به في مدخل بيته، وإجباره عنوة ليعترف: ما هدفه، ولماذا يلتصق بأعماله بهذا الشكل، وما أغراضه التي تجعله يضغط عليه على هذا النحو وبشكل ضمني.

في النهاية لا يفعل (ب) أي شيء.

يحظى كتابه الجديد بتعليقات جيدة من النقاد، ولكن لا يحقق نجاحًا مماثلًا بين جمهور القراء.

ولا يبدو غريبًا لأي شخص أن (أ) يعول على أعماله. ولا شك في أن (أ) حين يكون منشغلًا بالجانب الأدبي (أو السياسي) لإسبانيا، فيمنح وقته بسخاء للكتاب الجدد.

وبمرور الوقت ينسى (ب) الموضوع برمته.

ربما تعزَّى عن الأمر بفيض الخيال الذي اجتاحه وكانت نتيجته نشر كتابين جديدين له في اثنين من دور النشر المرموقة.

ربما نتيجة لخوفه المجهول أو إرهاق جهازه العصبي بعد سنوات العمل الشاق في ظل كونه كاتبًا مغمورًا.

ربما بسبب كل ذلك نسي كل شيء، ولكن جد جديد وهو ما سيظل موجودًا بذاكرته..

تمت دعوته ذات يوم لكي يلقي كلمة في أحد اللقاءات الثقافية في مدريد، عن الأدب الحديث.

يذهب (ب) وهو غاية في السعادة.

فاللقاء بالنسبة له مناسبة طيبة، ذلك أنه على وشك أن يصدر كتابًا جديدًا.

الرحلة والإقامة في الفندق مدفوعة، فأراد (ب) أن يستغل

الفرصة لكي يتفقد المتاحف في العاصمة وبالمثل ليستريح.

يستمر اللقاء لمدة يومين، يشارك (ب) في الجلسة الافتتاحية اليوم الأول، ويحضر اليوم الثاني كمشاهد.

وفي نهاية اليومين يتوجه الأدباء المشاركون لتلبية الدعوة في منزل الكونتيسة «باهامونتيس»، يشهد أنشطة عديدة، منها مناسبات ثقافية، وإصدار صحيفة للشعر ربما هي الأفضل من نوعها في العاصمة، كما يعرضون منحة تفرغ للأدباء باسمها.

لا يعرف (ب) أحدًا في العاصمة، لذلك يرافق المجموعة التي تتوجه لقضاء الأمسية في بيت الكونتيسة.

وسبق الحفل عشاء خفيف شهي وصاحبه نبيذ فاخر من أراضي الكونتيسة، وامتد الحفل حتى فجر اليوم التالي.

في البداية كان عدد المدعوين محدودًا ولكن بمرور الوقت ازداد وتجمع إلى جانب الكتاب صحفيون وفنانون سينمائيون، وفنانون تشكيليون وممثلون ومذيعو برامج تلفزيونية وأشهر مصارعي الثيران.

وفي وقت محدد، يتم تقديم (ب) إلى الكونتيسة، ينال شرف أن تنتحي به هي جانبًا في الشرفة المطلة على الحديقة.

تقول له الكونتيسة إن هناك صديقًا بانتظاره، تبتسم وتشير له بذقنها إلى تعريشة بالحديقة تحيط بها أشجار الموز والنخل والصنوبر.

يتأملها (ب) دون أن يفهم شيئًا.

يفكر (ب) أن الكونتيسة في زمان سابق، لا شك كانت جميلة، ولكنها الآن كتلة من العظام والغضاريف تمشي على الأرض.

لا يجرؤ (ب) على السؤال عن هوية «الصديق». تطلب منه الجلوس وتخبره أن الصديق سينزل على الفور وعليه ألَّا يتحرك.

وبالمثل لا تتحرك الكونتيسة، فيجلسان كل مقابل الآخر، ينظران إلى بعضهما دون أن يتبادلا الحديث، وكأنهما قد تعارفا (تحابا أو تباغضا) في عالم آخر.

بعد قليل ينادي المدعوون الكونتيسة ويبقى (ب) وحيدًا، ينظر بخوف إلى الحديقة إلى أن يلمح شبحًا وحركة بين الأشجار.

يفكر، لابد أنه (أ)، وكخطوه ثانية للتفكير المنطقي يقول: لابد أنه مسلح.

يفكر (ب) في البداية في الهرب والدخول إلى إحدى حجرات القصر انتظارًا لشروق الشمس في اليوم التالي.

ثم يفكر (ب)، في أن الصديق ربما لا يكون (أ)، بل رئيس تحرير مجلة أو كاتب أو كاتبة يرغب في التعرف إليه.

ودون أن يشعر، ينزل (ب) إلى الحديقة، يتناول كأسًا،

ويشعل سيجارة ويقترب من التعريشة، لا يجد أحدًا في البداية ولكنه يقرر الانتظار.

يمكث لمدة ساعة ثم يشعر بالملل، ويدخل إلى المنزل مرة ثانية، ينظر إلى المدعووين يبدون وكأنهم مغيبين يتحركون ببطء في أحد المشاهد المسرحية، يسأل عن الكونتيسة ولا ينجح في الفوز بجواب.

يخبره أحد العاملين بالمنزل (يبدو كمدعو أو كخادم، مظهره يحتمل الفرضية)، يخبره أن الكونتيسة صعدت إلى حجرتها، فهي مسألة كبر في السن كما هو معروف.

يجلس (ب) ويفكر في أن كبر السن لا يمنح فرصًا كثيرة.

ثم يمد يده ليحيي العامل ويغادر متجهًا إلى الفندق.

ويستغرق ساعتين في طريق العودة.

وفي اليوم التالي، وبدلًا من أن يستقل الطائرة عائدًا إلى مدينته، يتوجه إلى فندق بتكلفة أقل، يقيم فيه وكأنه سيبقى لفترة طويلة في العاصمة، ثم يقضي النصف الثاني من اليوم في محاولة الاتصال بـ (أ) في منزله في البداية يرد المجيب الآلي، يعلن عدم وجود أحد بصوت (أ)، وبعد ذلك يجيب صوت زوجته المرح بالرسالة نفسها، مع إضافة أنه في حالة وجود شيء طارئ، يفضل ترك التليفون ليتمكنوا من معاودة الاتصال بالشخص.

يتصل (ب) عدة مرات ولكنه لا يتلقى إجابة، ولا يترك رسالة.

بدأ (ب) يكون مجموعة أفكار بشأن (أ) وزوجته، وهوية كل منهما غير الظاهرة.

في البداية، يبدو صوت السيدة شابًا، فهي أصغر سنًا منه بشكل ملحوظ، ولكنها حيوية قادرة على أن تتقلد مكانًا مهمًا في حياة (أ) وبالمثل احترام هذا المكان داخل بيته، يا لها من بلهاء تعسة، يفكر (ب)، أما عن (أ)، فيعتقد (ب) أن صوته نموذج للكاتب التقليدى الهادىء.

ويفكر (ب) أنه على الأرجح يماثله أو يكبره قليلًا في العمر.

ولكنه يبدو وكأنه يكبرني بـ خمسة عشر عامًا أو عشرين.

وفي النهاية، الرسالة نفسها، لماذا هذه النبرة السعيدة ؟

ولماذا يعتقدان بأنه لو كان الأمر مهمًا فإن المتصل سيكف عن الاتصال ثم سيكتفي بترك رسالة ورقم هاتفه؟

ولماذا يتحدثان وكأنهما يمثلان في عمل مسرحي؟ وكأنهما يرغبان في إبراز السعادة التي يحيا فيها رجل وامرأة.

وبالطبع لا يحصل (ب) على أية إجابة لأسئلته. ولكنه يواصل الاتصال، مرة كل نصف ساعة، ثم الساعة العاشرة مساء من كابينة تليفون أحد الفنادق الرخيصة، ثم يجاوبه صوت امرأة.

يسقط في يدي (ب) في البداية ولا يعرف بماذا يجيب. تسأل السيدة عمن يتصل. تكرر سؤالها عدة مرات، ثم

تصمت دون أن تضع السماعة وكأنها تتأمل وتنتظر في هدوء، ثم تغلق الخط.

بعد ذلك بنصف ساعة، يعاود (ب) الاتصال من تليفون آخر.

هذه المرة ترد السيدة، وتسأل من الطالب.

فيرد (ب) بأنه يرغب في مقابلة (أ).

على الأرجح أنه قال: «أريد أن أتحدث مع (أ)».

أو على الأقل هذا هو ما فهمته السيدة.

ثم يصر (ب) أنه يرغب في رؤية (أ)، تعاود السيدة السؤال: من معي؟ يجاوبها (ب) معلنًا اسمه، تتردد السيدة قليلًا وكأنها تفكر ثم تقول له: حسنًا، انتظر دقيقة. لم تتغير نبرة صوتها، هكذا فكر (ب).

لم يستشف (ب) أي خوف أو تهديد.

شعر أن السيدة وضعت سماعة الهاتف فوق طاولة ما أو مقعد أو على قائم مثبت بالمطبخ.

يسمع أصواتًا غير مفهومة، على الأرجح صوت (أ) وصوت رفيقته الشابة، ثم ينضم صوت ثالث لهذه الأصوات، صوت رجل أكثر غلظة من الأصوات الأخرى. يبدو للوهلة الأولى أنهم يتناقشون، أن (أ) غير قادر على عدم مواصلة الحديث ولو للحظة. ثم فكر (ب) في أنهم على الأرجح يناقشون

موضوعًا، أو أنهم يتناقشون بشأن اتفاقهم على أن يجيب (أ) على الهاتف. وفي النهاية يصرخ أحدهم، على الأرجح (أ)، ثم تلت ذلك فترة صمت، وكأن السيدة صبت شمعًا مصبوبًا بسمع (ب).

وبعد ذلك (بعد استهلاك العديد من العملات) يقوم أحدهم بوضع السماعة بهدوء شديد.

لم يتمكن (ب) من النوم هذه الليلة. يندم على كل الأشياء التي تراجع عن فعلها. في البداية فكر في الإصرار على الاتصال بعد أن يغير الكابينة، ربما لتغيير حسن الطالع، إلَّا أن الهاتفين الأولين كانا معطلين (العاصمة مدينة مهملة وأيضًا قذرة)، وحين عثر على هاتف غير معطل، فوجىء بنفسه يرتعش بينما يضع العملات، وكأنه يعاني أزمة، حين رأى حركة يديه على هذا النحو انزعج بشدة حتى أنه كان على وشك البكاء.

في النهاية وجد أن أفضل شيء أن يستجمع قوته وأفضل وسيلة لذلك التوجه إلى حانة.

مر بالعديد من الحانات ولم يدخل إحداها لأسباب متعددة ومتناقضة، ثم دخل أحد البارات الصغيرة كثيفة الضوء، احتشد به زبائن تجاوز عددهم الثلاثين.

لم يستغرق وقتًا ليلاحظ أن مجموع الزبائن ينتمي إلى هذا القطيع من الرفاق المتهورين ضحايا العنصرية، كما أن

صوتهم عالٍ جدًا. وفجأة وجد نفسه يتحدث مع أشخاص يتعرف عليهم للمرة الأولى، وأنه في حياته الخاصة (سواء في مدينته أو في حياته اليومية) كان ليتجنبهم.

كانوا يحتفلون احتفال عزاب لزواج صديق، أو فوز أحد فرق الكرة.

ثم عاد فجرًا إلى الفندق وهو يشعر بخزي كبير.

في اليوم التالي لم يبحث عن مكان يتناول فيه شيئًا، (اكتشف أنه غير قادر على بلع شيء)، توجه إلى إحدى الكبائن واتصل بـ (أ). جاوبته المرأة ذاتها، تعرفت عليه على الفور على عكس ما كان (ب) ينتظر. قالت السيدة (أ) ليس موجودًا ولكنه يرغب في رؤيتك، وبعد برهة قصيرة أضافت: نأسف لما حدث بالأمس.

سألها (ب) بصدق: ماذا حدث بالأمس ؟

لقد أغلقت الهاتف، ذلك أن (أ) أراد أن يتحدث معك، ولكنني رأيت أن هذا لم يكن مناسبًا.

سأل (ب)، ولماذا لم يكن مناسبًا؟ متجاوزًا جميع حدود اللياقة.

أجابت السيدة: صحة (أ) ليست على مايرام، وعندما يتحدث في التليفون ينفعل، كما أنه كان يعمل ومن غير المستحب مقاطعته.

يفكر (ب) في أن صوت المرأة لم يعد يلمح فيه هذه الروح

الشابة. على الأرجح أنها تكذب. ولا تكلف نفسها عناء الكذب بحجج مقبولة. ثم إنها لا تنكر الرجل ذا الصوت الغليظ.

وعلى الرغم من ذلك يعتقد (ب) أنها لطيفة تكذب مثل طفلة متحمسة. وتدرك أنني سوف أسامحها. ومن جهة أخرى فإن الطريقة التي تحاول أن تحمي بها (أ) بدت له وكأنها تبرز جمالها.

سألته السيدة: إلى متى سوف تبقى في المدينة ؟ أجابها فقط حتى الوقت الذي أستطيع أن أقابل فيه (أ). وبعدها سوف أرحل.

أجابت: أجل. أجل. وشعر (ب) بقشعريرة . وجعل يتأمل صمتها خلال برهة. ويستغل (ب) هذه الفترة ليتخيل محياها. وتكون النتيجة مزعجة. بالرغم من أنها غير مؤكدة. تقول السيدة: الأفضل أن تأتي اليوم مساء. هل تعرف العنوان؟ يجيب (ب) بالإيجاب.

قالت: حسنًا سننتظرك على العشاء في الساعة الثامنة.

أجاب (ب) بصوت لاهث: حسنًا. ثم وضع السماعة.

يقضي (ب) بقية اليوم متجولًا في الطرقات مثل شحاذ أو شخص معتوه.

لا يزور أي متحف. ولكنه يدخل مكتبتين ويشتري كتابًا لـ (أ). يدخل أحد المتنزهات ويبدأ في القراءة.

الكتاب مدهش، على الرغم من كم التعاسة الذي يقطر من كل صفحة.

يفكر (ب) في أن (أ) كاتب ممتاز.

يعتقد (ب) أن أعماله تطغى عليها عناصر مثل السخرية والغضب، ويقارنها بأعماله فيشعر بإحباط.

يغلبه النعاس تحت الشمس، وحين يستيقظ يجد المنتزه وقد امتلأ بالشحاذين والشباب الهيبز، يتخيل أنها مسيرة ثم يجدهم في أماكنهم لا يتحركون، مع أنهم يتحركون قليلاً بعد ذلك.

يعود (ب) إلى الفندق، فيغتسل ويحلق ذقنه، ويرتدي أنظف الملابس التي بحوزته، ثم يخرج إلى الشارع.

يقيم (أ) في وسط المدينة في إحدى المناطق العتيقة من خمسة طوابق. يضغط زر المجيب الأتوماتيكي بمدخل المبنى ويجيبه صوت امرأة يسأله عن هويته.

يقول أنا (ب)، يسمع صوت المرأة تدعوه للدخول كما يسمع أزيز الباب يفتح إلى أن يصل إلى المصعد.

يسمع (ب) صوت الأزيز وكأنه لأفعى أو لسحلية زاحفة.

ينتظره (أ) إلى جوار الباب.

طويل، شاحب البشرة، أكثر امتلاءً مما يبدو عليه في الصور.

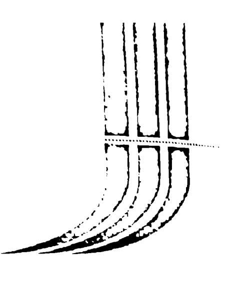
يبتسم بشيء من الخجل، يشعر (ب) بأنه يفقد كل الطاقة

التي استجمعها ليقابل (أ)، ويمد يده.

يفكر في أن أهم شيء أن يتجنب أي مشهد عنيف، وأن يستبعد أي حضور ميلودرامي.

يقول له (أ) في النهاية: كيف حالك.

فيجيب (ب): في أحسن حال.



الرجل الدودة

كان يبدو مثل الدودة البيضاء، بقبعته المصنوعة من القش والحلق يتدلي من شفته السفلية. اعتدتُ أن أراه يوميًا جالسًا على أحد المقاعد في «آلاميدا»، بينما أنا في مكتبة «كريستال» أتصفح الكتب. وحين أرفع بصري عن جدران المكتبة الزجاجية كنت أراه جالسًا، ساكنًا بين الأشجار، ينظر إلى الفضاء.

أعتقد أن الأمر انتهى بنا أن اعتاد أحدنا الآخر. كنت أصل حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحًا، ويكون هو قد وصل هناك، جالسًا على المقعد الحجري، لا يفعل شيئًا سوى التدخين وعيناه مفتوحتان.

لم أر معه أبدًا صحيفة، أو شطيرة أو علبة بيرة، أو كتاب.

ولم أره يحادث أحدًا.

وفي أحد الأيام بينما أتطلع إليه من خلف رفوف الكتب الفرنسية، خطر ببالي أنه يبيت في حي «آلاميدا»، على مقعد حجري أو في مداخل المباني القريبة، ثم لاحظت أنه نظيف الثياب لدرجة كافية تؤكد أنه لا ينام في الطرقات، وأنه على الأرجح يقضي الليل في أحد البنسيونات القريبة. أدركت أنه مثلي، حيوان أسير لعاداته.

ترسخت عاداتي اليومية على الاستيقاظ مبكرًا ثم الافطار مع والدتي ووالدي وشقيقتي.

أتظاهر بأنني سأذهب للمدرسة، ثم استقل حافلة تحملني لوسط المدينة، فأخصص الجزء الأول من الجولة لمتابعة المكتبات والتنزه، والجزء الثاني للسينما وبشكل مستتر السينما التي تعرض الأفلام الجنسية.

اعتدت شراء الكتب من مكتبتي «كريستال» و"البدروم».

إن شحّت النقود معي أجلس في الأولى حيث يتم عرض الكتب على موائد، وإن كانت لدي نقود كافية أجلس في مكتبة «البدروم» حيث الإصدارات الجديدة، وفي بعض الأحيان كنت أقوم بالسرقة من المكتبتين.

ومهما تكن الأحوال والظروف فإن مروري بالمكتبتين صار إجباريًا، مكتبة «كريستال» تقع في حي«ألاميدا»، بينما المكتبة الثانية عبارة عن بدروم مثلما يشير اسمها. في بعض الأحيان كنت أصل قبل موعد فتح المكتبات فأتجول بحثًا عن الباعة

الجائلين وأشتري شطيرة من لحم الخنزير المقدد وعصير مانجو وأنتظر.

أجلس أحيانًا على مقعد في «الاميدا»، أحد المقاعد غير المرئية وسط النباتات الجافة، وأكتب.

كل ذلك كان يستمر حتى حدود العاشرة صباحًا، وهي الساعة التي تبدأ فيها حفلات دور العرض الصباحية.

كنت أفضل الأفلام الأوربية، إلَّا أنني لم أستبعد الأفلام المكسيكية الإيروتيكية الحديثة وأفلام الرعب، وكانت جميعها لديّ سواء.

أعتقد أن أكثر الأفلام التي شاهدتها هي الفرنسية، فيلما يتحدث عن فتاتين تعيشان بمفرديهما بمنزل بمنطقة على أطراف المدينة، واحدة شقراء والأخرى صهباء.

صديق الفتاة الشقراء هجرها وفي الوقت نفسه (أريد أن أقول في الوقت نفسه، وبالألم نفسه) فلديها مشكلات أخرى شخصية: فهي تعتقد أنها واقعة في غرام صديقتها.

الشابة الصهباء أكثر شبابًا وأكثر براءة والتزامًا، بمعنى آخر هي أكثر سعادة (بالرغم من أنني في الوقت نفسه كنت شابًا وبريئًا وغير ملتزم، ولكنني اعتبرت نفسي تعسًا).

ويدخل في أحد الأيام شاب هارب من العدالة خفية إلى منزلهما، ويحتجزهما.

والمثير للعجب أن اقتحام المنزل يتم في اليوم نفسه الذي تقيم فيه الفتاة الشقراء علاقة مع الصهباء، وبعدها تقرر الانتحار.

يدخل الهارب إلى المنزل عبر النافذة وفي يده مطواة، ويتجول بحذر في المنزل، ثم يصل إلى حجرة الفتاة الصهباء، يمسك بها ويقيدها، ويسألها إذا ما كان هناك أناس آخرون يعيشون في المنزل، فتجيبه أنها وصديقتها الشقراء تعيشان في المنزل، فيقوم بتكميمها.

لم يعثر على الشقراء في حجرتها وبدأ في تفقد المنزل، وتزداد عصبيته في كل دقيقة إلى أن يعثر على الفتاة الشقراء ملقاة في البدروم، مغشيًا عليها ويبدو أنها ابتلعت جميع أدوية المنزل.

والهارب ليس بقاتل، في كل الأحوال ليس بقاتل للنساء، فينقذ الشقراء، ويجعلها تتقيأ ويعد لها مقدار لتر من القهوة، ويجبرها على تناول اللبن إلخ.

تمر الأيام وتتوطد العلاقة بين الهارب والفتاتين.

ويقص عليهما حكايته، فهو لص بنوك ومحكوم عليه بالأشغال الشاقة، قتل رفاقه السابقون زوجته.

تعمل الفتاتان في ملهى ليلي، وفي إحدى الليالي أو الأمسيـات، لا يُعرف على وجه التحديد، فهم يعيشون في منزل ستائره مسدلة على الدوام، يؤديان عرضًا أمامه، ترتدي الفتاة الشقراء «فرو دب» رائع، وتلعب الصهباء شخصية المروضة.

ينصاع الدب في البداية للمدربة ولكنه يتمرد بعد ذلك،

ويبدأ في تمزيق ملابسها ويجردها منها شيئا فشيئا. وفي النهاية تنهزم المروضة ويقفز الدب فوقها.

لا، ليقتلها بل ليقيم معها علاقة عاطفية.

ويبدو هنا شيء يثير الدهشة: الهارب بعد لحظات تأمل يقع في غرام الفتاة الشقراء، لا الصهباء، أي يقع في غرام الدب.

نهاية الفيلم متوقعة، وإن كانت لا تخلو من شيء شاعري: في إحدى الأمسيات الممطرة يقتل الهارب اثنين من رفاقه القدامى، ويهرب مع الفتاة الشقراء إلى مصير مجهول. بينما أجلس لرؤية الفيلم تنبهت إلى أنها رواية «السقوط» لـ «ألبير كامى».

وشاهدتُ أفلامًا مكسيكية من الطراز نفسه تقريبًا. نساء يتم احتجازهن من قبل رجال خارجين عن القانون، ولكن في النهاية تكتشف الجوانب الطيبة في شخصياتهم.

هؤلاء الهاربون يحتجزون سيدات ثريات وشبابًا، وفي أعقاب ليلة عاطفية يتم تمزيق أجسادهم بطلقات الرصاص، أو خادمات جميلات في منازل يبدأن من الصفر، وبعد المرور بسلسلة من الجرائم يتمكنَّ من الوصول إلى السلطة والثروة.

في تلك الحقبة كانت أغلب الأفلام التي تعرض في استوديوهات دور عرض «تشوروبوسكو» من طراز القصص المثيرة جنسيًا، فضلًا عن الأفلام الجنسية السادية، والأفلام الجنسية الكوميدية. أما أفلام الرعب المكسيكي فكانت تستند إلى نفس مدرسة سينما الخمسينيات في المكسيك بتأثير من مدرسة الفن الجداري.

أهم شخصياتها هم: القديس، العالِم المجنون، مصاصو الدماء، الفتاة البريئة، مع جرعة من مشاهد العرى الحديث تقوم به بعض الممثلات ومفضل أن يكن مجهولات، من أمريكا أو أوروبا أو الأرجنتين.

مشاهد جنسية ملفقة، وبعض مشاهد مضحكة وأخرى لا حل لها. ولكن الأفلام الجنسية الكوميدية لم تَرُقْ لي أبدًا.

وذات صباح بينما أتصفح كتابًا في مكتبة «البدروم»، رأيتهم يصورون فيلمًا داخل حديقة «ألاميدا» فاقتربت بدافع الفضول، وتعرفت على الفور إلى الممثلة «جاكلين أندريه».

وقفت بمفردها تتأمل الحاجز المؤلف من سلسلة الأشجار على يسارها، دون أن تتحرك وكأنها بانتظار إشارة ما.

وأحاطت بها مصادر إضاءة متعددة.

لا أعرف لماذا خطر ببالي أن أطلب إليها توقيع أوتوجراف، فهذه الأمور لم تهمني على الإطلاق.

انتظرت إلى أن انتهت من التصوير، واقترب منها شاب وتحادثا (ترى هل كان إجنائيولوبث نارسو؟) أعرب عن ضيقه وبدا ذلك من خلال حركات جسده وابتعد إلى ناحية أخرى من «ألاميدا»، وبعد تردد لمدة ثوان اتجهت جاكلين أندريه إلى طريق مقابل. جاءت مباشرة ناحيتي. وبدأت أنا أيضًا أسير والتقينا في منتصف الطريق.

كان هذا الموقف من أكثر المواقف حساسية التي مررت بها

في حياتي: لم يوقفني أحد، لم يقل لي شيئًا، ولم يعترض طريقي إليها، ولم يسألني أحد ماذا كنت أفعل هناك.

وقبل أن نلتقي، التفتت جاكلين إلى الوراء، على الرغم من أنه لم ينادها أحد من فريق التصوير، وكأنها سمعت شيئًا.

ثم توجهت باللامبالاة نفسها إلى قصر «الفنـــون الجميلـــة»، وكل ما فعلته أنني توقفت لتحيتها لتوقع لي الأتوجراف، وحاولت أن أخفي دهشتي حين اكتشفت قامتها القصيرة، وأنها لا ترتدي حذاء بكعب عال ومدبب لتخفي قصرها.

وفي لحظة حين كنا قريبين، خطر على بالي أنني كنت قادرًا على اختطافها، ومجرد التفكير في هذا الاحتمال جعل شعر قفاي ينتصب. نظرت إليَّ من أخمص قدمي إلى أعلى رأسي، شعرها أشقر رمادي (على الأرجح قامت بصبغه) وعيناها بنيتا اللون لوزيتا الشكل، واسعتان وعذبتان، ولكن لا، صفة العذوبة غير ملائمة، عيناها بهما هدوء ذاهل وكأنها مخدرة أو كأنها كائن فضائي، وقالت لي شيئًا لم أفهمه.

قالت لي: اعطني القلم، القلم لأوقع.

أخذت أبحث في حقيبتي عن قلم وجعلتها توقع لي على غلاف رواية «السقوط».

انتزعت مني الكتاب وجعلت تنظر إليه للحظات. يداها صغيرتان ونحيفتان للغاية.

- قالت: كيف تريدني أن أوقع؟ باسم ألبيركامى أو جاكلين أندريه؟

- قلت لها: كما ترغبين.

وبالرغم من أنها لم ترفع رأسها عن الكتاب فإنني لاحظت ابتسامة.

- سألتني: هل أنت طالب؟ رددت بالإيجاب.

- وماذا تفعل هنا بدلًا من حضورك لدروسك؟ قلت: أعتقد أنني لن أعود للمدرسة أبدًا.

- ما عمرك؟

- قلت: ستة عشرة عامًا.

- وهل يعلم والداك أنك لا تذهب إلى المدرسة؟

- أجبت: لا، بالطبع لا.

- قالت: لم تجب عن سؤالي.

قلت: أي سؤال، قالت وهي ترفع عينها وتركزها في عيني: لم تجبني، ماذا تفعل هنا؟

ثم أضافت: عندما كنت صغيرة في السن كنا نهرب من المدرسة ونذهب للعب البلياردو أو التنزه.

- قلت: أقرأ الكتب وأذهب إلى السينما، وأنا لا أفعل مثل من يتسللون من المدرسة.

قالت: إذن فأنت تهرب من الجندية. ضحكت هذه المرة. سألتني: وما نوع الأفلام التي تشاهدها الآن؟

قلت: من كل الأنواع، بما فيها أفلامك: لم يعجبها هذا الرد، فعاودت النظر إلى الكتاب وعضت على شفتها السفلى، وحركت جفونها ونظرت إليَّ، وكأن ألمًا ما بعينيها.

ثم سألتني عن اسمي، بعدها قالت: حسنًا، فلنوقع. كانت عسراء، حروفها كبيرة وغير واضحة.

مدت يدها إليَّ بالكتاب والقلم وقالت: يجب أن أرحل. مدت لي يدها. تصافحنا، ثم التفتت عائدة إلى «ألاميدا» حيث فريق التصوير في انتظارها. وقفت ساكنًا أنظر إليها، اقتربت منها سيدتان على بعد حوالي خمسين مترًا، ترتديان ملابس الراهبات المبشرات. راهبتان مكسيكيتان رافقتا جاكلين إلى أن جلست تحت شجرة ضخمة وبعدها اقترب منهم رجل، فتحدثوا، ثم سار الأربعة في طريق واحد خارجين من «ألاميدا».

كتبت جاكلين على الصفحة الأولى من الكتاب: «إلى أرتورو بولانو، الطالب المتحرر، مع قبلة من جاكلين أندريه».

وفجأة شعرت بعدم الرغبة في المكتبات أو القراءة، أو حفلات السينما الصباحية (خصوصًا حفلات السينما الصباحية).

ظهرت مقدمة سحابة كبيرة وسط سماء المدينة، فيما سُمعت في الأجزاء الشمالية للمدينة بدايات الرعد.

فهمت أن تصوير فيلم «جاكلين» توقف بسبب سوء الأحوال الجوية وموجة المطر وشعرت بوحدة.

لمدة دقائق لم أفهم ماذا يجب عليَّ فعله، أو إلى أين يجب أن أذهب.

وفي ذاك الوقت اقترب «الرجل الدودة» وحياني. أعتقد أنه بعد عدة أيام كان هو أيضًا يدقق النظر صوبي ويراقبني. عدت، وكان جالسًا على المقعد نفسه كما هو معتاد، واضح وحقيقي، واضعًا قبعته القشية وقميصه الأبيض.

أحسست بخوف وتأكدت أنه برحيل الفريق السينمائي تغير المشهد قليلاً ولكنه واضح: بدا كأن البحر قد انفتح وأصبح في الإمكان رؤية قاعه. كانت ألاميدا مثل الفضاء البحري، والرجل الدودة جوهرتها الثمينة.

قمت بتحيته، من المؤكد حييته بإشارة بلهاء، بدأ المطر في الهطول بشدة، فغادرنا المكان متجهين صوب جادة «إيدالجو» ثم مررنا من «لاثاروكارديناس» إلى «بيرو».

ما حدث بعد ذلك كان ضبابيًا، بفعل ماء المطر الذي غسل جميع الطرق، كما أن ذلك كله تم بتلقائية شديدة.

اسم البار كان «لاس كاميلياس»، وبه الكثير من فناني فرق المارياتشي، طلبت بدوري طبق الفلفل المتبل ومشروبًا غازيًا، فيما طلب الرجل الدودة «كوكاكولا»، ثم اشترى بعد ذلك (ليس بعد ذلك بكثير) ثلاث بيضات لسلحفاة. أردت أن أتحدث عن جاكلين أندريه.

فهمت بعد ذلك أن «الرجل الدودة» لم يكن يعرف أن جاكلين ممثلة سينما. أوضحت له أن الفريق الذي صاحبها كان يسجل فيلمًا سينمائيًا، ولكن يبدو أنه ببساطة لم يتذكر فريق

الفنيين والأجهزة المعدة للتصوير.

لقاء جاكلين في الطريق بهذا الشكل جعله ينسى كل شيء. وبعد أن وقف المطر، سحب «الدودة» محفظته من الجيب الخلفي ودفع الحساب ثم خرج.

تقابلنا في اليوم التالي.

بدا على وجه «الدودة» تعبير فكرت أنه ربما لم يتعرف عليَّ أو ربما لا يرغب في تحيتي.

بالرغم من كل شيء اقترب مني وبدا مثل النائم على الرغم من عينيه المفتوحتين.

كان نحيفًا، وجسده مترهلًا باستثناء الذراعين والساقين، مترهل مثل الرياضيين الذين هجروا الرياضة والتدريبات.

بدا أن هزاله ناجم عن سبب معنوي أكثر منه بدني. كانت عظامه صغيرة لكنها قوية، وعرفت على الفور أنه من الشمال، أو عاش فترة طويلة في الشمال، فالنتيجة واحدة.

قال لي: إنني من «سونورا».

وبدا لي ذلك مدهشًا لأن جدي أيضًا من هناك، وأثار هذا اهتمام الرجل، وأراد أن يعرف من أية منطقة على وجه التحديد، فقلت له: من «سانتا بتريسا».

- فقال: أنا من «بيا بيثيوسا».

وسألت أبي عما إذا كان يعرف «بيا بيثيوسا»، فأكد بالايجاب،

وأنها تقع بعد مسافة قريبة من «سانتا بتريسا». فطلبت منه أن يصفها لي.

- قال أبي: إنها قرية صغيرة لن يصل عدد قاطنيها إلى ألف نسمة (علمت بعد ذلك أنه لا يتجاوز الخمسمائة)، فقيرة للغاية، ومواردها قليلة، ولاتوجد صناعة واحدة بها، وأضاف أبي: إنها في طريقها للاختفاء.

- سألته: كيف تختفي.

- قال: بسبب الهجرة، فالناس ترحل إلى سانتا نيريسا، أو إيرموسيا أو الولايات المتحدة.

وحين أخبرت «الرجل الدودة» بما قال أبي، لم يتفق مع رأيه، ولكن الموافقة أو الاعتراض، لم تكن من الأمور ذات المعنى لديه.

فهو لا يتناقش أبدًا، وبالمثل لا يعبر عن رأيه، باختصار كان يستمع ويخزن ما يسمعه، ربما كان ينسى ما يسمعه بعد ذلك، ليغرق في مجال آخر لأناس آخرين.

كان صوته رقيقًا وأحاديًا رتيبًا، وفي بعض الأحيان يرتفع صوته فيبدو وكأن مجنونًا يقلد مجنونًا آخر، ولم أعرف أبدًا هل يفعل ذلك عن قصد أم لا، أم كجزء من لعبة لا يفهمها غيره؟ أو أنه غير قادر على التحكم في صوته وتخرج هذه الأصوات كجزء من الجحيم.

كان يربط أمنه في البقاء بوجوده في بيابيثيوسا، القرية القديمة، ولكنني فهمت ذلك فيما بعد على خلفية رقة الحال

التي تنخر في الظروف المحيطة به، وهي الأسباب التي اعتبرها أبي تهديدًا لاستمرار وجودها.

لم يكن من النماذج الفضولية، على الرغم من بعض تجاوزاته. ذات مرة نظر إلى الكتب التي أحملها واحدًا واحدًا، وكأنه لا يستطيع القراءة أو يقرأ بصعوبة.

وبعدها لم يهتم بكتبي على الإطلاق على الرغم من أنني كل يوم كنت أحضر ومعي كتب جديدة.

وفي بعض الأحيان كنا نتحدث عن «سوتورا»، ربما لأنه يعتبرني من بلدياته، كنت بالكاد أعرف القرية، لم أذهب إليها إلَّا مرة واحدة خلال جنازة جدي.

اعتاد أن يذكر أسماء قرى أخرى مثل «ناكوثارى»، «باكواتشى»، «فرونثيراس»،«بياهيدالجو»،«باثيراك»،«بابيسبى»،«أجوابريتو»،و«ناكو»، وبدت لي هذه الأماكن في ندرة الذهب.

ذكر أيضًا قرى مهجورة في مقاطعات ناكورى تشيكو، وباكاديها وتشى المتاخمة لحدود ولاية «تشيهواهوا»، وعندها كان يغطي فمه وكأنه على وشك أن يعطس أو يتثاءب.

بدا أنه تجول وقضى ليالي في كل المناطق الجبلية: مثل «لاماماديرا»، «لاسيراسان أنطونيو»، و«لاسيرا توماكاكوري» و«لاسيرا سيريتا» الواقعة في أرض «أريزونا»، و«لاسيرا كويباس»، و«لاسيرا» أو «تشيتاهويكا» في الشمال الشرقي المجاور لـ تشيهواهوا، وكأنك في الاتجاه إلى كاليفورنيا

السفلى. كان يعرف سونورا بأكملها، من أوتابامبو وإمبالمي عند ساحل خليج كاليفورنيا وحتى بياوريوس، المهجورة في الصحراء. كان يجيد لغة الـ «ياكى» و"باباجو» (المنتشرة في سونورا وأريزونا) وكان قادرًا على فهم «لاسيري» و"لابيما، و "لامايو »، والإنجليزية.

لغته الإسبانية جامدة بعض الشيء، وفي بعض الأحيان تظهر بها لكنة خفيفة قال لي ذات مرة: لقد تجولت بأرض جدك الذي يرقد في سلام، وكأنني شبح طليق.

اعتدنا اللقاء كل صباح، كنت افتعل الغفلة أحيانا، ربما لأستعيد جولاتي المنفردة، وحفلات السينما الصباحية، ولكنه كان دائمًا هناك، جالسًا على المقعد نفسه في «ألاميدا»، هادئًا وسيجارته بين شفتيه، معتمرًا القبعة المصنوعة من القش تغطي جبهته (جبهته التي تشبه الدودة البيضاء).

كانت رؤيته إجبارية من زجاج مكتبة «كريستال» من بين أرفف الكتب. كنت أتأمله لبرهة قليلة، ثم أذهب للجلوس إلى جواره.

لاحظت على الفور أنه يذهب دائمًا مسلحًا. في البداية اعتقدت أنه ربما يكون من رجال الشرطة، أو أن أحدًا يتعقبه، ولكن بدا واضحًا أنه ليس من الشرطة (أو على الأقل لم يعد من الشرطة)، لقد رأيت في مرات قليلة مثل هذه الشخصيات التي تبدي عدم اهتمام بالناس حولها: لم ينظر أبدًا إلى الخلف، لم ينظر أبدًا إلى جانبيه، وفي أحوال نادرة كان ينظر إلى الأرض.

وحين سألته لماذا يمشي دائمًا مسلحًا، أجابني بأنها العادة، وصدقته على الفور.

كان يحمل سلاحه في ظهره ما بين عموده الفقري وبنطاله. سألته:

- هل استخدمت سلاحك عدة مرات، ورد على بالإيجاب، وكأنه في حلم.

وتسلط عليّ سلاح «الرجل الدودة» لعدة أيام. أحيانًا كان ينزع عنه الذخيرة ويعطيني إياها لأفحصها، كانت تبدو قديمة ومن طراز بائد. عمومًا كنت أعيدها إليه بعد لحظات، وأرجو منه أن يحفظها. أحيانًا كنت أشعر بالخوف من جلوسي إلى الرجل على المقعد في ألاميدا وهو مسلح، ليس لإمكانية أن يصيبني بسوء، فمنذ اللحظة الأولى أدركت أننا أصدقاء، ولكن خوفًا من أن ترانا الشرطة الفيدرالية، فتقوم بتفتيشنا وتكتشف السلاح معه وينتهي بنا الأمر في زنزانة مظلمة.

مرض في أحد الأيام وحادثني من بيابثيوسا.

رأيته من خلال مكتبة «كريستال» وبدا لي مثلما اعتدت رؤيته دائمًا ولكن حين اقتربت منه لاحظت أن قميصه مجعد وكأنه نام به.

وحين جلست إلى جواره لاحظت أنه يرتعش، وزادت الارتعاشات بعد ذلك. سألته: هل تعاني الحمى؟ يجب أن تلزم الفراش.

صحبته إلى البنسيون الذي يقيم فيه بالرغم من اعتراضه.

قلت له: نم على الفور.

خلع الرجل قميصه، ووضع المسدس تحت وسادته وبدا أنه نام في الحال، وإن بقيت عيناه مفتوحتين، مصوبتين ناحية السقف.

كان في الحجرة فراش ضيق، وطاولة صغيرة، ودولاب متهالك، رأيت داخله ثلاثة قمصان بيضاء، مثل ذلك الذي خلعه، ومطبقة بعناية. وبنطالين من اللون نفسه، معلقين على شماعة.

ولاحظت حقيبة سفر جلدية تحت الفراش عالية الجودة، من تلك التي تقفل بقفل مثبت فيها ومتين.

لم أر صحيفة أو مجلة واحدة، فاحت في الحجرة رائحة منظف مثل رائحة سلم البنسيون.

قلت له: اعطني نقودًا لأذهب إلى الصيدلية وأشتري لك شيئًا. أعطاني حزمة أوراق مالية جذبها من جيب بنطاله، ثم بقى ساكنًا.

كانت تنتابه ارتعاشات قوية من قمة رأسه إلى أخمص قدميه من حين إلى آخر وكأنه على وشك الموت، ولكن من حين إلى آخر.

فكرت أن أستدعي الطبيب، ولكنني اعتقدت أن «الرجل الدودة» لن يعجبه ذلك.

وحين عدت حاملًا الأدوية وعبوات المياه الغازية كان غارقًا في النوم.

أعطيته أقراصًا من مضاد حيوي قوي، وأخرى لتخفيض الحرارة، ثم جعلته يشرب نصف لتر من الكوكاكولا.

وكنت قد اشتريت أيضًا كعكات، وتركتها ربما يستيقظ جائعًا.

وحين هممت بالرحيل أفاق من نومه وفتح عينيه وبدأ الحديث عن بيابيثيوسا.

أسهب في التفاصيل. وأشار إلى أن القرية لا يوجد بها أكثر من ستين بيتًا، ومتجر واحد للمواد الغذائية، وحانتان وقال إن المنازل كانت مبنية من الطوب وأن بعض الأفنية كانت مكسوة بالأسمنت.

وقال إن بعض هذه الأفنية كانت تنبعث منها رائحة كريهة أحيانًا لا يمكن تحملها.

قال إنها رائحة بشعة لا تتحملها النفس أو الحواس.

لذلك قال إن بعض الأفنية كانت مغطاة بالأسمنت، وأن تاريخ القرية يمتد لـ ألفين أو ثلاثة آلاف عام، وأن سكانها يعملون كقتلة مأجورين وحراس.

كما ذكر أن القاتل لا يتعقب قاتلًا مثله، لأن الأمر سيكون مثل أن تقوم حية بعض ذيلها، ولكنه أضاف أن بعض الحيات تقمن بعض ذيلهن.

وقال إن بعض الحيات يبتلعن أنفسن، وأن الأفضل أن ينطلق في الجري من يراهم، لأنه في النهاية يحدث دائمًا

شيء سيء مثل انفجار حقيقي. وقال إن القرية يمر بها نهر اسمه «النهر الأسود» بسبب لون مياهه التي تشكل دلتا في نهايتها، إلَّا أن الأرض القاحلة ابتلعتها.

وقال إن الناس يبقون أحيانًا لفترة طويلة يتأملون الأفق، والشمس تختفي وراء هضبة: «البرص»، وأن لون الأفق مثل اللحم، لحم ظهر إنسان يحتضر.

سألته: وما الذي كانوا ينتظرونه ليظهر هناك؟

أفزعني صوتي.

قال: لا أعرف.

ثم أضاف: عارضة الصاري، وربما الرياح والتراب أيضًا.

ثم بدأ يهدأ وفي النهاية اعتقدت أنه نام.

همست له: سأعود غدًا، تناول أدويتك ولا تنهض من الفراش.

ورحلت في صمت.

وفي اليوم التالي مررت بمكتبة «كريستال» قبل أن أذهب إلى البنسيون وقبل أن أخرج لمحته عبر الواجهة الزجاجية للمكتبة. كان جالسًا على المقعد نفسه، مرتديًا قميصًا أبيض نظيفا وبنطالاً أبيض ناصعًا.

غطت نصف وجهه القبعة المصنوعة من القش، ووضع السيجارة في شفته السفلى.

نظر أمامه مثل عادته وبدا متعافيًا.

مد لي يده بحركة مباغتة قابضًا على حفنة من الأوراق المالية، وتمتم بشيء عن مضايقات الليلة السابقة.

كانت أموال كثيرة.

وقلت له إنه لا يدين لي بشيء، وأنني كنت لأفعل ما فعلت مع أي صديق آخر.

ولكنه أصر على أن آخذ النقود وقال: هكذا ستتمكن من شراء الكتب التي ترغب بها.

أجبته بأن لدي الكثير قال لي: هكذا ستتوقف عن سرقة الكتب لفترة. في النهاية أخذت النقود من يديه.

لقد مرت فترة طويلة ولا أتذكر القيمة تمامًا، فالبيزو المكسيكي قلت قيمته مرات عديدة، وكل ما أذكر أنني اشتريت عشرين كتابًا واسطوانتين لــ فريق «دوورس»، وأن هذا المبلغ كان لي بمثابة ثروة. «الرجل الدودة» لم يكن تنقصة النقود.

لم يعد أبدًا للحديث مجددًا عن بيا بيثيوسا.

وخلال شهر ونصف الشهر بل على الأرجح شهرين كنا نتقابل كل صباح، وينصرف كلانا منتصف النهار حين تقترب ساعة الغداء، فاستقل الحافلة إلى «لافيا» أو اذهب إلى منزلي سيرًا على الأقدام.

وذات يوم دعوته لمرافقتي إلى السينما ولكنه رفض،

كان يفضل الجلوس معي في «ألاميدا» وتجاذب أطراف الحديث، أو القيام بجولة في الشوارع المجاورة.

ومن وقت إلى آخر كان يدخل إلى أحد البارات ليبحث عن البائع المتجول الذي يبيع بيض السلحفاة.

لم أره أبدًا يتناول الخمر.

وقبل أن يختفي بأيام قليلة إلى الأبد، جعلني أحدثه عن جاكلين أندريه، ففهمت أنها كانت طريقة ليتذكرها.

حادثته عن شعرها الأشقر الرمادي، وقارنته بإعجاب بلون شعرها الأشقر العسلي في أفلامها الأخرى، بينما يشخص الرجل ببصره إلى الأمام وكأنه ينظر إليها، ويراها في مقلة عينيه للمرة الأولى.

وذات مرة سألته عن طراز النساء الذي يعجبه، كان مجرد سؤال تافه من مراهق غبي أراد أن يقتل الوقت وحسب، إلَّا أن الرجل أخذ الأمر على محمل الجد، وظل يتأمل طويلًا ليظفر بالإجابة.

قال: الهادئات.

ثم أضاف: الموتى فقط هم من ينعمون بالهدوء، ولا حتى الموتى فيما أعتقد.

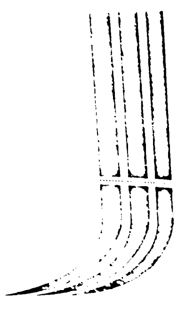
أهداني ذات صباح مطواة، كتب على مقبضها المصنوع من العظم: «كابوركا» بحروف دقيقة على شريحة معدنية.

أذكر أنني شكرته بحرارة، وفي هذا الصباح بينما نتنزه في «الاميدا»، أو في الشوارع المجاورة وسط المدينة، ظللت افتح وأغلق المطواة، معجبًا بمقبضها وأبعادها المثالية.

كان هذا اليوم عاديًا بالنسبة إلى الجميع، وفي اليوم التالي كان الرجل الدودة قد ذهب.

بعد ذلك بيومين ذهبت لأبحث عنه في البنسيون، فأخبروني أنه رحل إلى الشمال.

ولم أره بعد ذلك أبدًا.



الجليد

عرفته في بار بشارع «تابيرس» في برشلونة، ومنذ خمس سنوات حين عرف أنني مواطن شيلي، جاء لتحيتي لأنه هو أيضًا ولد في تلك الأراضي البعيدة.

كان في مثل عمري تقريبًا، أي في الثلاثين وفوقها بضع سنوات، يشرب بشراهة على الرغم من أنني لم أره أبدًا في حالة سكر.

كان يُدعى «روخيليو إسترادا»، نحيف، تميل قامته إلى القصر وقمحي اللون، لديه ضحكة دائمة ما بين الدهشة والخبث، ولكن مع الوقت اكتشفت أنه كان أكثر براءة مما يبدو عليه.

ذات يوم ذهبت إلى البار مع مجموعة من أصدقائي الكتالونيين، وبدأنا الحديث عن الكتب، فاقترب «روخيليو» من مائدتنا وأخبرنا أن أعظم كُتّاب هذا القرن هو «ميخائيل بولجاكوف» دون شك.

أحد الأصدقاء كان قد قرأ له (المايسترو ومارجريتا) و(الرواية المسرحية)، إلَّا أن روخيليو شرع يعدد بقية أعمال الكاتب مشيرًا إلى عشرة كتب متحدثًا باللغة الروسية. أعتقدت أنا وأصدقائي أنه يمزح، وبدأنا نتحدث في أشياء أخرى.

وذات يوم دعاني إلى منزله، ولا أعرف لماذا قبلت الدعوة.

كان يعيش في شارع قريب من دار عرض شعبية، اعتاد أطفال الحي أن يطلقوا عليها «السينما الشبح».

بدا المنزل قديمًا ومليئًا بقطع الأثاث التي لا تنتمي له.

جلسنا في الصالة ووضع «روخيليو» اسطوانة، موسيقى فظيعة عالية وملأ كأسين من شراب «الفودكا».

توسطت الصالة صورة فتاة في برواز فضي موضوع فوق رف على الحائط. أما بقية تفاصيل الزينة فكانت بسيطة: كروت معايدة من دول أوروبية مختلفة، شعارات دعائية قديمة، أحدها من جامعة شيلي، وآخر من «سانتيا جومورنينج»، جميعها قديم وبال.

نظر روخيليو إلى صورة الفتاة وقال: جميلة، أليس كذلك؟

- أجبته: نعم جميلة جدًا. ثم عدت إلى الجلوس، وأخذنا نشرب في صمت.

وحين بدأ روخيليو في الحديث مرة ثانية كانت زجاجة الفودكا قد انتهت.

قال: في البداية يجب تفريغ الزجاجة، وبعد ذلك الروح. أتذكر أنني انكمشت، ثم قلت له: لا أعتقد في الروح.

فقال: ولكن القضية الأساسية هي الزمن.

- هل لديك وقت لتسمع قصتي؟

- قلت له: هذا يعتمد على القصة، ولكن أعتقد أن بامكاني سماعها.

- قال روخيليو: لن تكون طويلة جدًا. ثم قام وأمسك بالصورة في بروازها الفضي وجلس أمامي معتمدًا على الصورة بذراعه الأيسر. وكأس الفودكا في يده اليمين وبدأ قصته:

كانت طفولتي سعيدة ولا شأن لها بما حدث لي في حياتي بعد ذلك.بدأت الأمور تسوء خلال فترة مراهقتي. كنت أعيش في سانتياجو ووفقًا لرأي أبي فقد كان مقدرًا لي أن أتحول إلى شاب مجرم. فوالدي اذا كنت لا تعلم (ولا أدرك لماذا كان عليَّ أن أعلم) هو «خوسيه إسترادا مارتينيث»، المعروف بـ «جواتون استرادا»، وهو أحد قيادات الحزب الشيوعي في شيلي.

عائلتي من طبقة «البروليتاريا» وإن لم تخل من رقي اجتماعي. عائلة مناضلة وشريفة وهو حق يشهد به الجميع.

وحين كنت في الثالثة عشرة من عمري سرقت دراجة، وأعتقد أنني بذكر هذه الحادثة أكون قد أخبرتك بكل شيء.

ثم القبض عليَّ بعد يومين وتلقيت علقة مبرحة، لن أقص عليك تفاصيلها.

بدأت أدخن الماريجوانا وأنا في الرابعة عشرة، كان بعض زملائي في الحي يزرعونها عند سفح الجبل. تقلد أبي في ذاك الحين مركزًا مرموقًا في حكومة الرئيس «الليندي»، وكان خوفه الأكبر – هذا العجوز المسكين - أن تكشف الصحافة الصفراء تصرفات ابنه الصغير.

حين بلغت الخامسة عشرة، سرقت سيارة.

لم يتمكنوا من القبض عليَّ (بالرغم من أنني أدرك الآن أنها كانت مسألة وقت)، وبعد عدة أيام حدث الانقلاب العسكري، ولجأت عائلتي بأكملها إلى سفارة روسيا. لقد كانت أيامًا مرعبة.

كنت أقضي الليل في الممر، وأحاول أن أغازل ابنة رفيق أبي، ولكن هذه المجموعة كانت تقضي اليوم كله تغني النشيد القومي، أو نشيد «أبدًا لن يمروا» وكأننا في حفلة.

وفي الأشهر الأولى من عام ١٩٧٤ وصلنا إلى موسكو. وإذا أردت أن أخبرك الحقيقة فقد كنت سعيدًا، الذهاب إلى مدينة جديدة، ورؤية الروسيات الشقراوات بعيونهن الزرقاء، والسفر في طائرة، وزيارة أوروبا ومعرفة ثقافة جديدة.

الحقيقة كانت مختلفة تمامًا. موسكو كانت تشبه «سانتياجو»، ولكنها أكثر هدوءًا وأكبر وشتاؤها لا يحتمل.

وضعوني في البداية في مدرسة إسبانية – روسية. ثم انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة روسية كنت قد أجدت اللغة إلى درجة لا بأس بها، ولكنني شعرت بملل رهيب، ثم التحقت

بالجامعة بعد ذلك بفضل التوصيات، ذلك أنني كنت أذاكر قليلًا جدًا، درست في العام الأول الطب، ثم تركت الدراسة، فالطب لم يكن يناسبني.

وهناك صادقت أول صاحب لي من غير اللاجئين الشيليين، وكان يدعى «جيمي فوديبا»، من جمهورية أفريقيا الوسطى، التي تقع وسط أفريقيا مثلما يشير اسمها. كان أبو جيمي شيوعيًا مثل أبي، ويتعقبونه.

كان جيمي ذكيًا جدًا، ولكن من داخله مثلي تمامًا. أي يحب السهر، والشراب، وتدخين المخدرات من وقت لآخر، ويحب أيضًا النساء. بعد وقت قصير أصبح كل منا ملازمًا للآخر.

كان هو أفضل صديق حظيت به، إذا استبعدت زملاء سانتياجو، الذين بقوا هناك، وعلى الأرجح لن أراهم مجددًا، ولكن من يعلم؟

حسنًا الأمر أنني أنا وجيمي كثفنا جهودنا ورغباتنا، وأيضًا احتياجاتنا، ومنذ ذاك الحين لم نعد اثنين لاجئين منطويين، بل ثعلبان ينطلقان في شوارع موسكو، وهكذا تجرأ كلانا على فعل أي شيء، وبعد ذلك شيئًا فشيئًا (لأن جيمي كان يستذكر جيدًا، فقد كان طالبًا مجتهدًا)، بدأت تتشكل لدينا فكرة عن المدينة التي كان مقدرًا أننا سنعيش فيها وقتًا طويلًا.

لن أسهب كثيرًا في مغامراتنا، ولكن بمرور عام كنا نعرف أين نجد المخدرات، وكان ذلك من الأمور الصعبة في ذاك

الحين في موسكو، وهكذا كانت حياتنا مغامرة مستمرة.

بدأت أدرس أدب أمريكا اللاتينية، ثم الأدب الروسي، ثم تقنيات الإذاعة، وتقنيات حفظ الأطعمة، ولم أوفق في أي منها، ربما لأنني كنت أشعر بالملل، أو لعدم انتظامي في الحضور، أو حضور الفصول الدراسية المهمة لهذه التخصصات. المسألة أنني فشلت في كل ذلك، إلى أن جاء يوم هددني أبي بإرسالي إلى سيبيريا للعمل في مصنع هناك، العجوز المسكين، لقد كان يفكر على هذا النحو.

وكان هذا هو السبب في التحاقي بمدرسة التربية البدنية، التي أطلق عليها بعض الروس المتفائلين اسم، المدرسة العليا للتربية البدنية. وتحَملني الرجل إلى أن تمكنت من الحصول على الدبلوما.

أجل يا صديقي، كما ترى فإنني مدرب جيمنازيوم.

بالطبع من هؤلاء المدرسين غير الأكفاء، خصوصًا إذا ما قارنتني بالمدربين الروس، ولكنني مدرب جيمنازيوم قبل أي شيء.

وحين قدمت الشهادة لأبي، تساقطت دموع العجوز من التأثر. وأعتقد أنه في هذه اللحظة انتهت مراهقتي.

في تلك الحقبة أطلقت على نفسي اسم «روجيرا ستررادا»، وكنت أدخل في مشاكل متتالية، وبالمثل كانت صداقاتي مع أشخاص لا يمكن أن تطلق عليهم إناسًا طيبين، ولكنني أنا أيضًا كنت متمردًا، وبرغبة منِّي لأكون كذلك. عملت مساعدًا لمدرب رياضي، من هؤلاء الأشخاص ذوي الطبيعة المتقلبة المتناقضة (بحسب ما

كنت أنا نفسي أعتقد)، وكرس جهده للبحث عن أبطال رياضيين في المدارس الثانوية، وكنت أقضي أغلب الأوقات في حفلات، أو في القيام بمهام معينة، أو صفقات قذرة، وهذا ما جعلني أكتسب خبرة على أرض الواقع.

رئيسي في العمل كان يُدْعى «بولتاكوف»، كان مطلقًا ويسكن في شقة صغيرة بشارع «ليلو شينكور» عند ميدان روجاشيف.

مثلما أخبرتك، فقد كنت شخصًا سيئًا وعن قناعة شخصية كاملة بذلك، وبالمثل كان جيمي فوبيدا، وجميع من عرفانا كانوا على دراية تامة بذلك (حتى أنني حين أطلقت على نفسي اسم «روجريرا» على الأقل في البداية، كان ذلك للتناغم مع اسم جيمي، ولأنني في داخلي أردت أن نشبه رجال العصابات الإيطالية)، إلَّا أن بولتاكوف كان شريرًا بحق، ومع مرور الأيام والتعامل اليومي، بدأت أتعلم كل الحيل والألاعيب والمساوىء الخاصة به. فيما كان أبي يعيش في موسكو حيث البيروقراطية والأوامر، والأوامر المضادة، والضغائن، والمهام اليومية، والكراهية الداخلية، كان يعيش في موسكو المدينة المثالية.

فيما كنت أعيش أنا في موسكو المخدرات والدعارة والسوق السوداء،

والمتعة والتهديد والجرائم.

في الكثير من الأحيان كان وجها المدينتين يتماسان، إلى الدرجة التي تتداخلان فيها في حلقات محددة ويصعب

التفريق بينهما، ولكنهما في النهاية تظلان مدينتين منفصلتين، تجهل كل منهما الأخرى.

بدأت عالم الرهانات الرياضية مع بولتاكوف.

بالطبع كنا نراهن بأموال الآخرين، وأيضًا بأموالنا، في مباريات كرة القدم والهوكي وكرة السلة والملاكمة وحتى التزلج على الجليد، هذه الرياضة التي لم أجد فيها أي نوع من المتعة، ولكننا كنا نتعامل مع كل هذه الرياضات.

وتعاملنا أيضًا مع نماذج بشرية مختلفة، ومن جميع الطبقات، ظرفاء ومجرمين دون المستوى، ومثلي تمامًا، على الرغم من أنني كنت أتعرف أحيانًا على مجرمين عتاة، أشخاص لديهم القدرة على فعــــل أي شــــيء، أو في أوقات معينة قد يفعلون أي وكل شيء.

ومدفوعًا بغريزة البقاء لم أقم علاقات وطيدة مع هؤلاء، فهم إما محكوم عليهم بالأشغال الشاقة أو القتل، حتى أنهم كانوا قادرين على إخافة بولتاكوف والتسبب في الرعب لي ولـ جيمي.

فيما عدا شخص واحد كان في مثل عمرنا، ولا أعرف لماذا كنت أقع لديه موقعًا طيبًا، وكان يدعى «ميشا سيمونوفيتش بافلوف»، وكان نموذجًا لساحر العجائب في موسكو.

أنا وبولتاكوف كنا نقدم له التقاريرالرياضية من أجل مراهناته، ومن وقت إلى آخر كان يدعونا إلى منزله، والذى

دائمًا ما يتغير، وجميعها أكثر تواضعًا من منزل بولتاكوف أو من منزلي، وأغلبها في مناطق سكن العمال، شمال شرق موسكو، في الأحياء القديمة مثل بولبوياروف، فيكتوريا، والسوق العتيق.

لم يعجب بولتاكوف (حسنًا، بولتاكوف لم يكن يعجب بأحد تقريبًا) وكان يتعمد أن يقتصد في علاقاته مع بافلوف قدر الإمكان، ولكنني كنت دائمًا ساذجًا والتصقت به كطفل معجزة، بالإضافة إلى العلاقة الطيبة بيننا، أحيانًا كان يهديني الدجاج، أو زجاجة فودكا أو زوج أحذية، وانتهى الأمر بأن امتلكني قلبًا وقالبًا كما يقال واستسلمتُ له بالكامل.

وبمرور السنوات عادت عائلتى إلى شيلي ما عدا شقيقتي الصغيرة التي تزوجت من روسي، وتُوفيٍ والدي في سانتياجو، وكانت جنازته كأفضل ما يكون، بحسب ما كتبوا لي.

واصل «جيمي فوديبا» الحياة في موسكو، وعمل في إحدى المستشفيات (عاد والده إلى جمهورية أفريقيا الوسطى، وقتل هناك)، وبينما واصلنا أنا وبولتاكوف نشاطنا في التجول بين صالات الجيمنازيوم وقاعات الرياضة. ثم حلت فترة الديمقراطية (مع العلم بأنني لم أهتم بالسياسة على الاطلاق)، انهار الاتحاد السوفيتي وحلت الحرية، ووصلت عصابات المافيا. تحولت موسكو إلى مدينة جميلة ومبهجة، هذه البهجة العنيفة الخاصة بالطبيعة الروسية. ولكن لكي تتفهم كل ذلك، لابد أن تعرف الشخصية السلافية، وأعتقد أنه

بالرغم من جميع الكتب التي قرأتها، فإنني لا أفهمها. وفجأة أصبحت المسائل جميعها أكبر من طاقتنا أنا وبولتاكوف. كان بولتاكوف في أعماقه يؤيد ستالين (شيء لم أفهمه على الإطلاق، لأن مع الانصياع لفكر هذا الرجل، سيكون مكاني سيبيريا لا محالة)، وكان يشعر بحنين للأيام الخوالي.

ولكنني على العكس منه، تكيفت مع الأوضاع الجديدة وقررت أن أدخر النقود، لأرحل من روسيا وأتجول في العالم وأسافر إلى أوروبا وأفريقيا، وكنت في حينها قد تجاوزت الثلاثين.

نضجت في هذه المرحلة، وجعلت أتخيل عالم المغامرة، عالم بلا حدود، وكأنه قصة أطفال أدخلها وأستطيع أن أبدأ من جديد، أكون سعيدًا، وأجد نفسي، مثلما كان يُقال في سانتياجو عام ١٩٧٣. وهكذا أصبحت، موظفًا دائمًا لدى «ميشا بافلوف»، الذي أصبح شهيرًا وثريًا وكانوا يطلقون عليه «بيلي- الـ نينيو»، ولا تسألني لماذا كان بيلي سريعًا جدًّا في استخدام السلاح، حتى أنه كان أسرع في جذب مسدسه من جذب بطاقته الائتمانية.

كان «بيلي النينيو» شجاعًا ورشيقا بحسب المشاهد التي رأيتها، ولكنه كان سمينًا مثل تمثال «بوذا» (حتى في رأي الروس أنفسهم) وغير قادر على أداء أية حركة رياضية.

واصلت عملي في الرهانات الرياضية، ولكنني بعد ذلك بدأت أقوم ببعض الأعمال الأخرى.

كان يرسلني أحيانًا إلى أحد الرياضيين ومعي دفتر بطاقات كامل بهدف إفشال إحدى المباريات.

وفي إحدى المرات قمت برشوة نصف فريق كرة القدم مشجعًا لمن قبلوا ومهددًا تهديدًا سافرًا للرافضين.

وفي مرة أخرى طلب مني أن أقنع مراهنين آخرين لينسحبوا من اللعبة أو يمتنعوا عن الدعاية.

مع ذلك، فإن أهم عمل كنت أقوم به هو كتابة التقارير عن الرياضيين. واحدًا تلو الآخر، ويقوم بافلوف بتخزين التقارير في جهاز الكمبيوتر.

كنت أفعل شيئًا آخر، فصديقات أفراد العصابات كن من فنانات الملاهي الليلية والممثلات ومن يقمن بعروض الاستربتيز، والأمر ليس غريبًا فقد كان هكذا على الدوام.

ولكن «بافلوف» كان يعجب بالبطلات الرياضيات، خصوصًا اللاتي تمارسن الوثب العالي، وبطلات الجري للمسافات الطويلة والمتوسطة والقصيرة، وبطلات القفز الثلاثي، وأحيانًا يعجب بلاعبات قذف الرمح، ولكن يظل اهتمامه الأساسي بلاعبات الوثب العالي.

كان يقول إنهن مثل الغزالات ونساء بمعنى الكلمة، ولم يكن مخطئًا في ذلك.

وكنتُ أطاردهن من أجله هو. اعتدت الاقتراب من أماكن التدريب والاتفاق على مواعدته لهن. بعضهن كن يشعرن بالفرح من إمكانية الالتقاء والبقاء مع ميشا بافلوف لمدة

أسبوع، ولكن أغلب هؤلاء التعيسات لم يكن يردن ذلك.

ولكنني كنت أنجح في جلب الفتيات اللاتي يرغب فيهن، مضطرًا في بعض الأحيان لدفع أموال من جيبي الخاص، أو اللجوء إلى التهديدات أحيانًا أخرى.

وذات مساء أخبرني برغبته في «ناتاليا ميخايلوفنا تشويكوفا»، بطلة رياضية في الثامنة عشرة من عمرها من مقاطعة «فولفوجرادو»، وصلت أخيرًا إلى موسكو ولديها أمل كبير في الالتحاق بالفريق الأوليمبي.

لا أعرف ما الذي لفت انتباهي، ولكنني لاحظت منذ اليوم الأول أن بافلوف يتحدث عن تشويكوفا بنبرة مختلفة.

وفور أن أعطاني الأمر، غمز لي اثنان من أتباعه وكأنهما يقولان: انتبه يا روجريرا سترادا، ونفذ الأمر بحذافيره فإن بيلي النينيو لا يمزح هذه المرة.

تمكنتُ بعد يومين من الحديث مع «ناتاليا تشويكوفا» في الصالة المغطاة في إسبارتافوفكا في التاسعة صباحًا، وهي الساعة التي لم أعتد أن أستيقظ فيها، ولكنه الوقت الوحيد الذي أتمكن فيه من العثور على لاعبة الوثب. في البداية لمحتها عن بعد: كانت على وشك الجري ناحية العارضة الخشبية، وركزت قابضة على كفيها تنظر إلى أعلى، وكأنها تصلي أو تبحث عن ملاك.

بعد ذلك، اقتربت منها وأخبرتها بهويتي. قالت: «روجريرا سترادا»؟ هذا يعني أنك إيطالي.

لم أجرؤ أن أخيب أملها، فأخبرتها أنني من شيلي، وهناك يعيش الكثير من الإيطاليين.

تصل قامتها إلى ١٧٨ سم ولا يزيد وزنها على ٥٥ كجم. شعرها كستنائي طويل، تضمه في ذيل حصان، وهيئته مثل أجمل شيء في الوجود. عيناها سوداوان تقريبًا، وأقسم لك أن ساقيها أطول وأبدع سيقان مما رأيت في حياتي، لم أجرؤ أن أخبرها بسبب حضوري فدعوتها لتناول «بيبسي كولا»، وأخبرتها أن أداءها يعجبني ثم رحلت بعد ذلك.

في النهاية تخيرت الحل الأبسط، وقلت لنفسي إن «ناتاليا تشويكوفا» فتاة تحتاج إلى وقت، فهي نموذج يختلف عما عرفهن قبلًا، تطلع إليَّ ميشا بعينيه اللتين تشبهان عيون الفقمة، ورمقني بنظرة طفل، أخبرني بأنه لابأس، وأمهلني ثلاثة أيام. حين يمهلك ميشا ثلاثة أيام، فذلك يعني أن عليَّ قضاء الأمر في ثلاثة أيام، بلا زيادة. وهكذا جعلت أتأمل موقفي لساعات طويلة، أتساءل عن الدافع لموقفي هذا. فما الذي يشل حركتي، إلى أن قررت أن أنجز المهمة في أسرع وقت. كنت أول شخص يصل إلى الملعب، وجعلت أراقب اللاعبين يذهبون ويجيئون، أغلبهم نصف نائمين مثلي، يتحدثون أو يتناقشون، إلَّا أن أصواتهم بالكاد تصل إليَّ في شكل همهمات، أصوات خافتة، أو صرخات باللغة الروسية، ولم أعد أفهم شيئًا وكأنني نسيت اللغة، ثم حضرت «ناتاليا» وبدأت في تمارين الإحماء، بينما يسجل مدربها بعض

الملاحظات في نوتة بيده، ثم جاءت فتاتان متدربتان في الوثب العالي للحديث إليها.

أحيانًا كن يتضاحكن، وأحيانًا أخرى يضعن ستراتهن الرياضية بلونها الأزرق والأحمر وتجلسن على الأرض، ثم يخلعنها مجددًا. تشربن الماء أحيانًا، وبعد انقضاء نصف الساعة من السعادة، أدركت أنني واقع في غرامها. وهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا الشعور، كنت قد أعجبت قبل ذلك باثنتين من فتيات الليل، هل كان شعوري صادقًا أم لا؟ لا أعرف، فالأمر لا يهم الآن.

الآن أنا غارق في الحب.

تحدثت إليها وكلمتها عن «ميشا بافلوف»، من هو، وماذا يريد.

في البداية بُهتت، ثم بدا لها الأمر مسليًا. وقررت أن تراه على الرغم من نصائحي بألَّا تفعل.

حددت موعد اللقاء في وقت متأخر قدر ما استطعت. دعوتها خلال وقت الاستراحة لمشاهدة فيلم بطولة «بروس ويلز» الذي كانت تعشقه، ثم للعشاء في مطعم جيد. تحدثنا طويلًا باستفاضة.

كانت حياتها مثالًا للإصرار والتصميم، على الرغم من بعض الصعوبات وخيبة الأمل، على العكس منِّي تمامًا. كانت أحلامها بسيطة للغاية، لم تطمح في الثروة، بل في أن تصبح سعيدة.

وفيما يختص بالجانب الجنسي الذي حاولت أنا استدراجها

إليه، فكان متعدد الرؤى والأشكال.

شعرت بالتعاسة في البداية، اعتقدت أنها دخلت في جراب بافلوف، وتخيلتها في فراش جميع حراسه، ولم أحتمل الفكرة.

ولكن بعد ذلك أدركت أن «ناتاليا» كانت تتحدث عن رؤية جنسية لم أفهمها أنا ببساطة (ولازلت لا أفهمها)، تلك التي لم تدفعها لأحضان بقية العصابة، ولكنني أدركت أنني يتوجب عليَّ حمايتها قبل أي شيء.

وبعد أسبوع، أرسلني بافلوف إلى الملعب، بباقة أزهار بيضاء ووردية، كلفته ولاشك ثمنًا باهظًا، أمسكت ناتاليا بالباقة وطلبت مني أن أنتظرها، وقضينا اليوم معًا، أهديتها كتابين لـ «بولجاكوف» كاتبها المفضل، (من منفذ بيع في شارع ستارايا باسمانايا)، ثم ذهبنا إلى الاستوديو الذي تعيش فيه، وسألتها عن رأيها في جولتنا، وأقسم لك أن إجابتها جعلتني متجمدًا، فقد أخبرتني أن الأزهار تشرح كل شيء، يالها من إجابة فائقة الإيجاز، وياله من برود، فهي روسية وأنا شيلي، شعرت وكأنني انجرفت إلى هاوية وجعلت أبكي بكاءً حارًا، في أحيان كثيرة أتذكر ليلة البكاء الطويلة هذه والتي غيرت بدورها حياتي.

كل ما أدركته أنني مثل طفل، وللمرة الأولى أشعر ببرودة موسكو، وبأنني غير قادر على تحمل هذا الصقيع، ومارسنا الحب في هذه الليلة.

ومنذ ذاك اليوم أصبحت بين يدي ناتاليا، بينما هي في أيدي بافلوف.

لم يكن في الأمر في حد ذاته أي غموض، ولكنني كنت على يقين من أنني أخاطر بحياتي على خلفية علاقتي بناتاليا. بالإضافة إلى ذلك، فمع مرور الأيام ويقيني من أن ناتاليا تمارس الحب مع بافلوف، أصبحت طباعي أكثر حدة، وخضعت لموجات من الإحباط وبدأت أنظر إلى حياتي (ولأمور الحياة بشكل عام)، بشكل سوداوي.

تمنيت لو أن لي صديقًا أستطيع أن أتحدث إليه وأطلعه على خبايا نفسي. ولكن ذلك كان مستحيلا مع بولتاكوف وبالمثل مع جيمي بوديفا الذي أصبح مشغولاً ولم نعد نتقابل مثلما اعتدنا في الماضي.

ولم يكن أمامي غير الصبر والانتظار.

وهكذا مر عام.

كانت الحياة مع بافلوف مثيرة، فحياته الخاصة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء، وكان لديّ الشرف أو سوء الحظ للاطلاع عليها جميعًا: الأولى لبافلوف رجل الأعمال المحاط بالحراسة الشخصية، وتضوع من حوله رائحة الأموال والدماء بشكل يُرهب الحواس، والآخر وجه بافلوف العاشق أو كما نقول في سانتياجو: من يلعب دور العشيق، وهو ما أيقظ في داخلي الخيالات التعسة، وجعلني أتألم، والأخير لبافلوف في الدائرة

الخاصة، لروحه القلقة، حين يكون مشغولًا بملء فراغه في «أوقات راحته الخاصة»، بحسب ما كان يقول، في مسائل تتعلق بالأدب والفنون، لأن بافلوف – وهو ما يصعب تصديقه – كان يقرأ كثيراً، وبالطبع كان يحب الحديث عما يقرأ.

لذلك اعتاد أن يجلس مع ثلاثة أشخاص يمكننا القول بأنهم يمثلون الجانب الفكري أو الكوزموبوليتي من العصابة، وهم الروائي «فيدرو بتروفيتش سيميونوف»، وإيطالي (حقيقي هذه المرة) مبعوث في مدرسة اللغات في موسكو واسمه «باولو ريبيلينو»، وأنا، كان يقدمني على أنني صديقه «روجريرا استرادا»، بالرغم من أنه اعتاد أن يعاملني في أحيان أخرى وكأنني كلب.

روسيان وإيطاليان، هذا ما كان يقوله بافلوف بنصف ابتسامة. تعمد أن يقول ذلك أمام ريبينو ليحط من شأني، ولكن هذا كان يحترمني كثيراً.

وعلى الرغم من كل شيء كانت اللقاءات مسلية جدًّا، وفي بعض الأحيان كنا نتلقى مكالمة في منتصف الليل فنضطر لمغادرة المكان على الفور والتوجه إلى أحد منازل بافلوف العديدة في موسكو، وتكون أجسادنا منهكة ترغب في الاستلقاء والنوم والقدرة على احتمال أحاديث الرئيس المستطردة. كان ذوق بافلوف انتقائيًّا كما يقال، والحق أنني لم أقرأ سوى لـ بولجاكوف، وذلك حبًا في ناتاليا، أما الكتاب الآخرون، فليس لدى أية فكرة عنهم، فلست ممن يهوون القراءة، وذلك شيء ملحوظ. «سيمسنوف» يكتب روايات

«بورنوجرافية»، أما ريبيلينو، فكان لديه سيناريو يرغب في أن يموله له بافلوف، شيء عن الـ مافيا والـ كاراتيكاس. أما الوحيد في مجموعتنا الذي يقرأ الأدب، فكان مضيفنا نفسه. يقضي ساعات يتحدث عنْ دوستويفسكي على سبيل المثال، فيما نحن جالسون نستمع إليه.

في اليوم التالي ذهبت إلى المكتبة لأبحث عن كتاب لملخصات أعماله وحياته، ووجدت معلومات عنه، وبهذا وجدت شيئًا لأتحدث عنه في الجلسة التالية، على الرغم من أن بافلوف لم يكرر حديثه أبدًا، يتحدث أسبوعًا عن دوستويفسكى والتالي عن «بوريس بيلانياك»، وبعد أسبوعين عن «تشيخوف» (والذي قال عنه إنه مثلي الجنس، ولا أعرف لماذا)، ثم يتعرض لـ «جوجول» أو «سيميونوف» ورواياته البورنوجرافية التي بلغت شهرتها السماء. كان رجلًا مميز الشخصية، في نفس عمري أو ربما أكبر قليلًا، وواحد ممن يحظون بحماية بافلوف.

وأخبروني ذات مرة أنه مسئول عن اختفاء زوجته، لم أصدق ما قالوه وفي الوقت نفسه لم أغفله، بدا أن «سيميونوف» قادر على فعل أي شيء فيما عدا «عض يد» بافلوف.

كان ريبينو مختلفًا، شابًا طيبًا، والوحيد الذي أعترف بكل صراحة إنه لم يقرأ لأي روائي يتحدث عنهم زعيمنا، بالرغم من أنه قرأ شعرًا (شعر روسى، قافيته محكمة ويمكن تذكره بسهولة)، وكان يتلوه من الذاكرة، خصوصًا حين نفرط جميعنا في الشراب. وحينها يتساءل سيميونوف بصوت

أجش عن الشاعر. فيجيبه ريبينو إنه «بوشكين»، فمن سيكون غيره؟ فكنت أنتهز حينها الفرصة وأتحدث عن دستويفسكي، فيعاود بافلوف وريبينو قراءة شعر بوشكين معًا، وتظاهر سيميونوف بأنه يدون ملاحظات من أجل روايته الجديدة.

وفي أحايين أخرى اعتادوا أن يناقشوا قضية الروح السلافية واللاتينية، وحينها نخسر أنا وريبينو بالطبع. ويا لكم الأشياء التي كان يعرفها بافلوف عن النفس السلافية، شيء لا يخطر بالبال، يا لكم الحزن والعمق الذي يبدو حينذاك.

غالبًا ما كان الحديث ينتهي ببكاء سيميونوف، فيما استسلم أنا وريبينو في أول فرصة لذلك.

لم تقتصر الجلسات على وجودنا وحدنا نحن الأربعة، في بعض الأحيان اعتاد بافلوف أن يدعو بعض فتيات الليل.

في مرات أخرى كان يدعو بعض الأشخاص، مثل مدير تحرير مجلة متواضعة، أو ممثل عاطل عن العمل، أو أحد رجال الجيش المتقاعدين الذي يعرف بحق الأعمال الكاملة لـ ليوتولستوي. أشخاص مقبولون أو غير مقبولين، أناس لديهم صفقات مع بافلوف أو يرغبون في طلب خدمات منه.

أحيانًا ما كانت تنتهي هذه الامسيات على نحو طيب، وأحيانًا أخرى كانت تنتهي بشكل سيء، أقولها بكل صراحة.

لن أفهم أبدًا النفس السلافية. وذات يوم عرض بافلوف على الحضور صورًا التقطها لبطلات الوثب العالي.

في البداية لم أرغب في مشاهدتها، ولكنهم دعوني واضطررت إلى الذهاب، كانت الصور لأربع أو خمس فتيات كنت جلبتهن بنفسي له. وبينهن ناتاليا تشويكوفا.

امتعضت وأعتقد أن بافلوف لاحظ ذلك، فاحتضنني بذراعيه الضخمين، وشرع يغني بصوت عالٍ أغنية عن سكير يتحدث عن الموت والحب، باعتبارهما الركنين الحقيقين في الحياة.

أتذكر أنني ابتسمت أو حاولت الابتسام. ولكن بالكاد استطعت ذلك.

وبعد ذلك، بعد أن خلد الجميع للنوم أو ذهب منهم من ذهب، جلست إلى جوار النافذة أتطلع إلى الصور بهدوء.

الأمر أن كل شيء بدا لي جيدًا. كل شيء بدا متوافقًا (مثلما اعتاد أن يقول أبي). أخذت أتنفس بقوة وهدوء وحرية، وأخذت أفكر أن النفس السلافية لا تختلف كثيراً عن مثيلتها اللاتينية، كلتيهما تلخصان الشيء نفسه، مثلهما مثل النفس الأفريقية، وهو ما يمكن افتراضه بشأن صديقي الأفريقي «جيمي فوديبا». ربما النفس السلافية قادرة على تحمل المشروبات الكحولية بشكل أكبر، وهذا هو كل شيء.

وهكذا مر الزمن.

استبعدوا «ناتاليا» من الفريق الأوليمبي لأنها لم تتمكن من القفز بالمقاييس المطلوبة. شاركت في مباريات محلية، ولم تتأهل للمراكز الأولى، بالمثل لم تتغلب وتفوز بأية مشاركة.

انتهت مسيرتها الرياضية، بالرغم من أنها كانت تنكر ذلك، وكنا نتحدث أحيانًا عن المستقبل بخوف وتوقع.

بينما شهدت علاقتها بـ «بافلوف» صعودًا وهبوطًا. في بعض الأيام كان يبدو وكأنها محبوبته الأولى في العالم، وفي أحيان أخرى كان يعاملها كأسوأ ما يكون. وذات يوم رأيت وجهها مكسوًا بالكدمات، سألتها وأخبرتني أنها إصابات أثناء التدريب، ولكنني عرفت أنه بافلوف.

أحيانًا كنا نتحدث حتى وقت متأخر عن السفر والدول الأجنبية.

حكيت لها أشياء عن شيلي، أشياء اخترعتها أنا عن شيلي التي أتخيلها، أعتقد أنها اعتقدت أنها شبيهة بـ روسيا، ولم تتحمس لها ولكن ربما استثارت فضولها.

وذات مرة سافرت مع بافلوف إلى إيطاليا وإسبانيا.

لم تتم دعوتي لتوديعهما، ولكنني ذهبت مع من ذهب لاستقبالهم في المطار.

عادت ناتاليا ببشرة جميلة لفحتها الشمس. وقدمت لها صحبة ورد أبيض أمرني بافلوف منذ أن كان في إسبانيا أن أشتريه من أجلها. فقالت لي: شكرًا لك يا روجريرا.

فأجبتها: لا توجد مدعاة للشكر يا ناتاليا ميخالينوفا، ولم أعترف لها أن بافلوف رئيسنا نحن الاثنين طلب مني شراءها في مكالمة هاتفية من مسافة بعيدة. كان بافلوف وقتها يتحدث مع مجموعة من البلطجية ولم يلحظ العذوبة التي

بدت في عيني نحوها (عيناي اللتان وصفهما الجميع بأنهما تشبهان عيني فأر، حتى المرحومة والدتي نفسها). الحقيقة أنني أنا وناتاليا بمرور الوقت أهملنا درجة حذرنا.

وذات ليلة، اتصل بي بافلوف هاتفيًا، وبدا ثائرًا، وطلب مني الذهاب في الحال إلى منزله. وكنت قد سمعت أن بعض صفقاته لا تمضي على ما يرام.

تعللت بأن الجو بارد والوقت متأخر للخروج في هذه الساعة، فقال لي: إما أن تحضر خلال نصف ساعة، أو أقطع لك خصيتيك غدًا.

ارتديت ملابسي على عجل بأسرع ما استطعت، ووضعت بجيبي مشرطًا صغيرًا، كنت ابتعته عندما كنت طالبًا في كلية الطب، فشوارع موسكو الرابعة صباحًا ليست آمنة، أعتقد أنك على دراية بذلك.

بدا المشوار مثل الكابوس الذي حلمت به حين حادثني بافلوف في الهاتف وأيقظني. الشوارع مغطاة بالجليد، ودرجة الحرارة قد تصل إلى عشر أو خمس عشرة درجة تحت الصفر، ولم أر أي إنسان باستثنائي في الطريق.

في البداية صرت أمشي عشرة أمتار ثم أسرع في العشرة التالية، لكي أشعر بالدفء.

إلًّا أن جسدي استسلم خلال خمس عشرة دقيقة، وبدأت أمشي خطوة بخطوة محني الظهر من أثر البرودة.

شاهدت سيارة الشرطة مرتين ولكنني تواريت عنها. ومرت سيارتا أجرة، ولكنهما لم تتوقفا.

لم أشاهد غير السكارى، وبعض الأشباح تتوارى في مداخل شارع «ميدفيتيسا»، بينما المنزل الذي طلب إليَّ بافلوف أن أقابله فيه كان يقع بشارع «نيميتسكايا»، يستغرق الوصول إلى هناك عادة قرابة خمس وثلاثين دقيقة إلَّا أنني استغرقت ساعة ونصف الساعة ووصلت وقد تجمدت أربعة من أصابع قدمي اليسرى.

كان بافلوف في انتظاري إلى جوار المدفأة، يقرأ ويشرب الكونياك. وفاجأتني قبضة يده بضربة في أنفي قبل أن أنطق.

لم أشعر بالضربة تقريبًا إلَّا أنني سقطت على الأرض.

سمعته يقول: لا تجعل السجادة تتسخ. ثم جلس وتناول كتابه وكأسه وبدا أنه استراح.

نهضت وتوجهت إلى الحمام لأنظف الدم الذي نزف من أنفي، ثم عدت إلى الصالة.

- قلت له: ماذا تقرأ؟

- قال بافلوف: بولجاكوف.

ثم أضاف: تعرفه أليس كذلك؟ قلت بينما أشعر بوعكة في معدتي: آه، بولجاكوف.

قلت لنفسي، إذا أخبرني بشيء عن «ناتاليا» سوف أقتله،

وجعلت أتحسس المشرط في جيبي.

قال بافلوف: يعجبني الأشخاص الصادقون. الشرفاء. الذين لا يلجأون إلى الطرق الملتوية. وحين أثق بشخص ما، أثق به إلى النهاية وفي كل الظروف.

قلت له: قدمي متجمد. يجب أن أذهب إلى المستشفى. لم يستمع إليّ بافلوف. فقررت التوقف عن الشكوى. ولم يكن الأمر بهذا السوء. فقد تمكنت من تحريك أصابعي. واستغرقنا الصمت لفترة.

جعل بافلوف يتأمل كتاب بولجاكوف (أعتقد كان عنوانه البيض العجيب). فيما أتأمل أنا لهيب المدفأة.

- قال بافلوف: أخبرتني ناتاليا أنك تراها.

لم أقل شيئًا. ولكنني حركت رأسي مصدقًا لما قاله.

- قال: هل شاركت هذه العاهرة الفراش.

كذبت نافيًا ما قال.

مرت فترة أخرى من الصمت.

فجأة خطر ببالي أن بافلوف قتل «ناتاليا»، ويرغب في قتلي تلك الليلة. لم أحسب عاقبة ما قمت به، واندفعت أقبض على عنقه.

مكثت نصف الساعة التالية أمسح آثار ما قمت به.

ثم عدت إلى منزلي واستغرقت في الشراب.

بعد مرور أسبوع، قامت الشرطة باعتقالي، وأودعوني قسم شرطة «إلينياكوف»، واستجوبوني لمدة ساعة. مجرد إجراء.

أما الرئيس الجديد فكان يدعى «إيجور بورسوفيتش بروتوبوفوف»، ولم يهتم كثيراً بالبطلات الرياضيات، ولكنه أبقى على عملي في الرهانات وتعبئة الفرق الرياضية.

خدمت لديه ستة أشهر، ثم غادرت روسيا. ستسألني، وماذا بشأن ناتاليا؟

رأيت ناتاليا في اليوم التالي بعد ما قتلت بافلوف، في وقت مبكر في مكان التدريبات الرياضية. لم يعجبني وجهها حين رأتني، ولحظت في نبرة صوتها شيئًا مثل الاحتقار، ولكن أيضًا بالأريحية، بل وربما الحنو أيضًا.

ضحكت وأخبرتها أنني شربت كثيراً الليلة الماضية، وأن هذا هو كل شيء ثم ذهبت إلى المستشفى حيث يعمل جيمي فوديبا ليكشف على أصابعي المتجمدة، لم يكن الأمر بهذا السوء، ولكن بشيء من الحيلة، وقع فوديبا الورق بتاريخ مختلف ليجعلني ألتحق بالمستشفي وأبقى عدة أيام، وهكذا أوضحت الأوراق أنني كنت في المستشفي أثناء مقتل بافلوف، وهكذا نجوت سعيدًا.

بعد ذلك بستة أشهر كما أخبرتك، غادرت روسيا ورافقتني ناتاليا.

أقمنا في البداية في باريس وتحدثنا بشأن الزواج.

ولم أكن أكثر سعادة طيلة حياتي أكثر من هذه الفترة.

حتى أنني أشعر بالخجل من نفسي الآن حين أتذكر ذلك.

ثم ذهبنا إلى فرانكفورت، وقضينا وقتًا هناك. كان لـ ناتاليا أصدقاء هناك وحاولت العثور على عمل. لكن دون جدوى. فالأصدقاء لم يكونوا بهذا الإخلاص.

حتى أن المسكينة حاولت أن تعمل طاهية في مطعم روسي. ولكنها لم توفق، فهي لا تعرف شيئًا عن المطبخ.

ونادرًا ما تطرقنا بالحديث عن بافلوف.

فناتاليا على عكس ما اعتقدته الشرطة، أن رجاله هم المسئولون عن مقتله، وخصوصًا الـ ساردينى. ولكنني كنت أقول لها، إنها لابد وأن تكون عصابة منافسة.

أما عن بافلوف، فكانت تتذكره كرجل فارس. وتمتدح كرمه.

فيما كنت أنا أضحك في داخلي.

وذات مرة سألتها إن كانت تربطها صلة قرابة بـ الجنرال شويكوف، الرجل الذي دافع عن «ستالينجراد».

فتقول لي: ما الذي تفكر به «روجيرا»، بالطبع لا.

وبعدما قضينا عامًا معًا، هجرتني من أجل رجل ألماني يدعى «كورت» ولا أتذكر شيئًا آخر.

قالت لي إنها واقعة في غرامه، وكانت تبكي من أجلي، أو ربما من فرط سعادتها، لا أعرف.

قلت لها بالإسبانية، ارحلي أيتها المرأة الغادرة، ولم أزد.

وأخذت هي تضحك كعادتها كلما تحدثت بالإسبانية، وضحكت أنا أيضًا.

تناولنا زجاجة فودكا معًا، ثم ودع كل منا الآخر.

وبعد ذلك، شعرت بأنني لا أجد ما أفعله في هذه المدينة فرحلت إلى برشلونة. منذ ذاك الحين أعمل هنا مدربًا في إحدى صالات الجيمنزيوم، في إحدى المدارس الخاصة. تمضي الأمور معي بشكل طيب، أطارح العاهرات الغرام، وأتحدث عن الأدب في ندوتين تعقدان في اثنين من المقاهي.

ولكن في بعض الليالي أتذكر روسيا وأفتقد موسكو.

ليس الوضع سيئًا هنا ولكنه مختلف عن هناك، ومع أنني سأعجز عن الإجابة إن سألتني ما الذي تفتقده هناك.

ربما السعادة بأنني حي، لا أعرف؟

ولكن يومًا ما سوف استقل الطائرة، وأذهب إلى شيلي.

قصة روسية أخرى

إلي أنسيلمو سان خوان

في إحدى المناسبات، وبعد مناقشة مع أحد الاصدقاء بشأن الهوية المتنقلة للأدب عابر الثقافات، كان قد ذكر له «أمالفيتانو» إحدى القصص التي وقعت له في مدينة برشلونة. تتعلق القصة بعضو في الفصيل الأزرق الإسباني الذي شارك في الحرب العالمية الثانية، في الجبهة الروسية، وتحديدًا في مجموعة جيوش الشمال، بمنطقة قريبة من «نوفوجرود».

كان الشاب من إشبيلية، نحيفًا مثل العصى، عيناه زرقاوان، أكثر زرقة من أي شيء في الوجود (لم يكن مثل ديونيسيو ريدروخيو، أو حتى مثل توماس سالفادور)، وحين يضطر للتحية بالطريقة الرومانية كان يفعل ذلك، ولكنه لم يكن فاشستيًا ولم ينتم إلى «الفلانخي» الإسباني، وقادته الظروف للتوقف في روسيا.

وهناك ودون أن يعرف كيف بدأ الأمر، أصبحوا ينادونه «سورشي»، تعال إلى هنا، أو افعل هذا أو ذاك، ولكن بمرور الوقت، وباعتياد المسألة في منطقة اللاوعي الأكثر ظلامًا في الرأس، وبتراكم المخاوف اليومية تحول الاسم إلى «شانتري»، وأصبحوا ينادونه به.

لا أعرف كيف حدث هذا، فلنفترض أنه على الأرجح تم تفعيل آلية ما قد تكون طفولية، أو ربما ذكرى سعيدة كانت قيد الانتظار لتطل من جديد.

بهذا الشكل جعل الأندلسي يفكر في نفسه من خلال الشروط والواجبات الخاصة بـ المنشد، على الرغم من أنه لم يدرك ماذا تعني هذه الكلمة المتعلقة بالمسئول عن جوقة المنشدين في الكاتدرائيات. ولكن بشكل أو بآخر تحول شانتري ليصبح المنشد.

وخلال أعياد رأس السنة المهولة عام ١٩٤١، تولى مسئولية الجوقة التي تنشد أغاني أعياد الميلاد، فيما تدك القوات الروسية كتيبة (٢٥٠). تمتلىء مخيلته بذكريات عن هذه الأيام، (ذكريات مزعجة. جافة ومزعجة ودائمة) وشيء ما عن السعادة الباطنية وبأشياء أخرى خارج الإطار، كانوا يغنون ولكن تبدو أصواتهم وكأنها خرجت قبل أو بعد حركة الشفاه، فتصدر أصوات الحلق، وعيون المنشدين تنزلق نظراتها في لحظات بعينها مثل شروخ تنشق وسط أجواء صامتة، خلال رحلة سفر قصيرة وغريبة في آن واحد.

ومقارنة بالآخرين، فإن الأندلسي الإشبيلي كان يتصرف بشجاعة واهتمام كامل، وأصبحت روح الدعابة لديه لاذعة يومًا بعد يوم.

ولم يتأخر القدر لاختبار حصته من الدماء المقدر لها أن تسيل.

لقد أصيب في إحدى الأمسيات بشكل عرضي، وتم إيداعه لمدة أسبوعين في مستشفى «ريجا» العسكري، تحت عناية ممرضات متينات البنية ومبتسمات من الرايخ، انبهرن بلون عينيه، فضلًا عن ممرضات إسبانيات قبيحات أخريات تطوعن، وعلى الأرجح كن شقيقات أو من أبناء عمومة أو قرابة بعيدة لـ خوسيه أنطونيو.

وحين غادر المستشفى حدث شيء ما أدى إلى عواقب وخيمة للأندلسي، فبدلًا من إعطائه تذكرة ليعود إلى مكانه، أعطوه بطاقة أخرى بطريق الخطأ فوجد نفسه في ثكنات المعسكرات الروسية، على بعد ٣٠٠ كم من مكانه الأصلي، محاطًا بجنود ألمان ومن ليتوانيا والدنمارك، والسويد، وجميعهم أكثر منه ضخامة وأوفر قوة، حاول أن يشرح الأمر ويوضح الخطأ عن طريق شخص ألماني وقح، إلَّا أن أحدًا لم يستمع إليه، وبينما يشرح مشكلته، أعطوه مكنسة ليكنس الثكنة ودلو مياه وممسحة لينظف الأرضية الخشبية العريضة التي اعتادوا أن يحبسوا فيها جميع أصناف السجناء ليقوموا باستجوابهم وتعذيبهم.

لم يستسلم بالكامل، ولكن بدأ في تنفيذ مهمته. وبدأ يلاحظ مرور الوقت من ثكنته الجديدة فكان يأكل أفضل بكثير مما اعتاد قبلًا، ودون أن يتعرض لأخطار جديدة، ذلك أن جناح القوات الروسية كان مخصصًا لـطليعة قوات الجيش. التي تتصدى لهؤلاء الذين يطلق عليهم العصابات. وحينئذ أطلت في الجانب المظلم من رأسه كلمة المجند.

وقال لنفسه أنا مُجند مبتدىء وبلا خبرة، ويجب عليَ أن أقبل بقدري. وتلاشت كلمة المنشد شيئًا فشيئًا. اختفت كلمة المنشد تمامًا، على الرغم من أنه في بعض الأمسيات تحت السماء الشاسعة، التي أمتلأت بالحنين الأندلسي. كانت ترن الكلمة هنا أو هناك، تائهة لاأحد يعرف أين على وجه التحديد.

وذات مرة استمع إلى جنود ألمان يغنون، ومرة ثانية استمع إلى طفل كان يغني خلف الشجيرات، تذكره مجددًا، ولكن بشكل أكثر تحديدًا هذه المرة، ولكن حين التفت إلى الشجيرات كان الطفل قد اختفى.

وذات يوم حدث ما كان مقدرًا في الغيب.

تمت مهاجمة الثكنة من قبل سلاح الفروسية، بحسب ما قال البعض، فيما قال آخرون من قِبل مجموعة أخرى، كان القتال قصير الأمد، وكان موجهًا ضد الألمان.

وبعد ساعة عثر الجندي الروسي على الأندلسي مختبئًا في المبنى المستطيل، مرتديًا زي معاون في القوات العسكرية،

أصبح على الفور أسيراً وسط الإهانات التي تعرض لها.

وبعد برهة قصيرة وجد نفسه مقيدًا على أحد كراسي التعذيب التي كانت تستخدمها القوات، خلال إجراء التحقيقات، أحد هذه الكراسي مزود بأحزمة مقيدة إلى الأرجل، وكان يجيب عن جميع الأسئلة التي يوجهها إليه الروس باللغة الإسبانية مستخدمًا تعبيراته الخاصة التي لا يفهمونها، وهكذا أرسل إلى ذاك المكان وحسب.

حاول أن يشرح ذلك بالألمانية، ولكنه لم يكن يجيد سوى بضع كلمات من هذه اللغة، ويجهل الروسية كلية.

وبعد أن أوسعوه صفعًا على الوجه وركلًا بالقدمين، ذهبوا بحثًا عمن يتحدث الألمانية، وكان شخصًا يحقق مع سجناء آخرين في زنزانة المبنى المستطيل.

وقبل أن يعودوا، سمع الإشبيلي طلقات أعيرة نارية، فعرف أنهم أعدموا بعض الرجال، وفقد الأمل الذي كان لازال يتعلق به في أن يخرج ويتحرر.

ولكن حين توقف إطلاق الأعيرة النارية، عاد ليتمسك بالحياة بكل كيانه.

سأله من كان يتحدث الألمانية عما يفعله هناك، وعن وظيفته ودرجته. حاول الإشبيلي أن يعبر عن نفسه بالألمانية، ولكن دون جدوى. ففتح الجنود الروس فمه، وثبتوا جدائل خاصة صنعها الألمان، ثم أخذوا في جذبها بعد إحكامها في لسانه.

تسبب الألم الفظيع الذي شعر به في انفجار الدموع من عينيه، ثم قال، أو بالأحرى صرخ بكلمة بذيئة، ثم أخذ يعوي من الألم وأطلق كلمة «فنان» بالألمانية، نظر إليه الروسي الذي يجيد الألمانية بدهشة، وأخذ الرجل يصرخ «فنان». «فنان». فيما يبكي هو من الألم.

تعني كلمة فنان بالألمانية «kunst». ففهم الجندي الروسي. أن «ابن القحبة» هذا فنان أو شيء من هذا القبيل.

سحب الرجال الذين كانوا يعذبون الشاب الجدائل وبها قطعة من لسانه، ثم تركوه لشأنه، وبدوا وكأنهم منومون مغناطيسيًا باكتشاف أمره، كلمة الفن التي تكبح جماح الوحوش.

وهكذا توقف الجنود الروس ومكثوا بانتظار إشارة ما، فيما ينزف الشاب دمًا من فمه فيبتلعه مختلطًا بريقه، ثم فقد الوعي، وهكذا تحولت الكلمة البذيئة إلى كلمة فنية وأنقذت حياته.

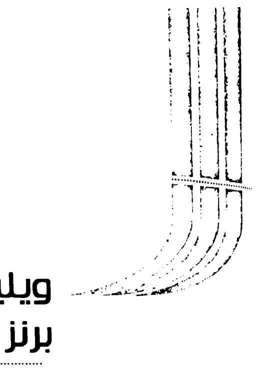
تزامن خروجه من المبنى المستطيل مع غروب الشمس، ولكنه شعر بألم في عينيه كأنما خرج في وضح النهار.

أخرجوه مع مجموعة أخرى من السجناء، وتمكن جندي روسي كان يجيد الإسبانية من الاستماع لقصته، ونقلوا إلى أحد سجون سيبيريا فيم قتل سجناء آخرون.

وبقى هناك حتى حقبة الخمسينات.

وفي عام ١٩٥٧ استقر في مدينة برشلونة، وكان أحيانًا يفتح فمه ويتحدث عن هذه المعارك ومزاجه معتدل، وفي أحيان أخرى كان يشير إلى الجزء المبتور في لسانه، الذي كان يلحظ بصعوبة.

وبسؤاله عن الحادثة اعتاد أن يشير إلى أن لسانه اندمل مع مرور الزمن. لم يعرفه «أمالفيتانو» بشكل شخصي، ولكن حين قصوا عليه حكايته، كان الإشبيلي يقطن حجرة حارس عقار بمدينة برشلونة.



ويليام برنز

حكى هذه القصة «ويليام برنز» من «بنيتورا» بـ«كاليفورنيا الجنوبية»، إلى صديقي «بانشو مونجي»، أحد رجال الشرطة في سانتا تيريسا «سونورا»، وحكاها هذا بدوره لي. ووفقًا لـ مونجي، فإن الشاب الأمريكي كان هادئًا، لم يفقد أعصابه أبدًا، وهو الرأي الذي قد يبدو متعارضًا مع الشكل الذي تطورت به هذه الرواية.

فيقول برنز: لقد كانت حقبة تعيسة في حياتي.

أمور العمل سيئة لأبعد حد. وسيطر عليَّ ملل شديد، كان غالبًا ما يصيبني من قبل، كنت أخرج مع سيدتين في الوقت نفسه، وأتذكر هذا جيدًا.

إحداهما طبيبة بيطرية في عمري نفسه تقريبًا، والأخرى

تكاد تكون طفلة، بالرغم من أن كلتيهما في بعض الأحيان كانتا تبدوان طفلتين ترغبان في اللهو وحسب.

ولم يكن الفرق بين عمريهما كبيراً مثل أم وابنتها، ولكن قد يقترب من ذلك، في النهاية، فهذه مجرد أشياء يفترضها المرء أحيانًا، ولكن لا تتكشف الحقائق أبدًا.

المسألة أن المرأتين كان لدى كل منهما كلب، أحدهما كبير والآخر صغير. ولم أعرف أبدًا لمن ينتمي الكبير أو الصغير، ولكنهما في ذاك الوقت كانتا تتشاركان منزلًا في أطراف القرية عند الجبل، يذهب إليه السائحون. وحين أخبرت شخصًا ما بأنني سأذهب إلى هناك، نصحني باصطحاب سنارة صيد، ولكنني لم أكن أمتلك واحدة، فنصحوني ببعض المتاجر التي تبيعها، وبأن الحياة هناك مريحة للذهن ومهدئة للأعصاب.

وبالرغم من ذلك، لم أذهب في أجازة معهما، بل لأقوم بحمايتهما، ولكن حمايتهما مم؟ أخبرتاني بأن هناك شخصًا يرغب في إلحاق أذى بهما.

وأطلقتا عليه «القاتل»، وحين سألتهما، لم تعرفا بماذا تجيباني أو ربما لم ترغبا في أن أعرف شيئًا عن الأمر.

وبدأت أشكل صورة عن الموضوع، فهما خائفتان، ولا ترغبان في أن يعرف أحد، ربما كان الأمر برمته محض تهديد كاذب، ولكنني لست من هؤلاء القادرين على تكذيب الآخرين، إلَّا فيما يتعلق بعملي، وأعتقدت أنه في نهاية الأسبوع سوف

تتوصلان إلى هذه النتيجة نفسها، وهكذا ذهبت برفقتهما مع الكلبين إلى الجبل، وأقمنا بأحد الأكواخ الخشبية المطعمة بالحجر، وبه نوافذ كثيرة، ربما كان المنزل الأكثر من حيث النوافذ الذي رأيته في حياتي، وجميعها من أحجام مختلفة، موزعة بشكل ارتجالي.

ويبدو الكوخ من الخارج كأنه مؤلف من ثلاثة طوابق، فيما هي طابقان فقط، وكان يعطي إيحاءً بالدوار بالنظر إليه من الداخل من الصالة وبعض حجرات الطابق الأول، وربما أيضًا بالمبالغة وحد الجنون،احتوى المنزل على حجرتين وحسب، لم تكونا كبيرتين، ولكن واحدة فوق الأخرى، العليا تكاد تلمس سقف المنزل الخارجي، والسفلى على مسافة ٤٠ سم تقريبًا من الأرض، كانت الحياة هناك لطيفة بلا شك.

تكتب المرأة الأكبر سنًا كل يوم تقريبًا، ولكنها لا تنعزل مثلما يقال في حجرة مكتب، بل تكتب على المائدة في الصالة، حيث تضع الكمبيوتر المحمول، وكرست الشابة وقتها لأعمال الحديقة، وللعب مع الكلاب والحديث معي.

وكنت أقوم بطهو الطعام، ومع أنني لست بطاه ماهر إلَّا أنهما اعتادتا أن تمتدحا الأطباق التي أعدها.

كان في إمكاني العيش على هذا النحو لنهاية حياتي. ولكن في يوم ما فُقد الكلبان، وخرجت للبحث عنهما.

أتذكر أنني صرت أسير بمفردي ومعي بطارية، فمشيت وسط

غابة، ومررت بمنازل غير مأهولة. ولم أجدهما بأي مكان.

وحين عدت إلى المنزل، نظرتا إليَّ وكأنني المسئول عن فقدهما. وحينها ذكرتا اسم رجل، اسم القاتل.

فقد اعتادتا أن تطلقا عليه ذلك منذ البداية.

لم أعتقد فيما قالتا، ولكنني استمعت إلى حديثهما بالكامل.

تحدثتا عن قصص حبهما خلال الدراسة، والمشاكل الاقتصادية، والحقد المتراكم بداخلهما، ولم أصدق أنهما كانتا على علاقة في المدرسة بالرجل نفسه وخاصوصًا لفرق السن بين عمريهما.

ولكنهما لم تخبراني بأكثر من ذلك، وجاءت إحداهما إلى حجرتي تلك الليلة، على الرغم من تبادل التهم بيننا. لم تضىء مصباح الحجرة،

وكنت نصف نائم، وفي النهاية لم أعرف من هي. وحين استيقظت صباحًا في اليوم التالي كنت وحيدًا في الحجرة. في ذلك اليوم قررت أن أذهب إلى القرية وأقابل الرجل الذي تخشيانه، طلبت منهما عنوانه، وأخبرتهما أن تبقيا في المنزل وألَّا تغادراه إلى أن أعود. يومها استقللت الحافلة العتيقة ونزلت إلى القرية، وفور دخولي واقترابي من أحد المصانع القديمة رأيت الكلبين وناديت عليهما، فاقتربا، يبدو عليهما الانكسار ويهزان ذيلهما، ناديت عليهما ووضعتهما في السيارة، وجعلت أضحك من الخوف الذي انتابني في الليلة

السابقة وأنا أجول في القرية. ودون قصد مني وجدتني أتوجه إلى العنوان الذي أعطته لي المرأتان. وكان الرجل يدعى «بيدلوي» ويمتلك متجرًا يبيع الأغراض السياحية للسائحين، فضلًا عن سنارات الصيد والقمصان المطبوعة بشكل مربعات، والحلوى والشيكولاته.

وبقيت لبرهة أتطلع إلى المعروضات في فترينة العرض. بدا الرجل وكأنه نجم سينمائي، فلم يكن عمره ليزيد على ٣٥ عامًا بأي شكل من الأشكال.

ولاشك في أن المتجر يمثل تجارة رابحة، فهو يقع في شارع مركزي، يعبر به المارة والسيارات طوال الوقت، وأسعار السلع مرتفعة. وحين أوشكت على الذهاب، لا أعرف لما راودني الشعور بأن هذا الرجل مشتت إلى حد ما، ولم أكد أقترب أكثر من عشرة أمتار حتى وجدت كلبه يتبعني، وحتى هذه اللحظة لم أكن قد شعرت بوجوده في المتجر، كان كلبًا أسود وضخمًا، هو على الأرجح هجين ما بين كلب الرعي الألماني وفصيلة أخرى.

لم أمتلك كلبًا قط، ولا أعرف بحق أي شياطين يقوم أصحاب الكلاب بجعلها تفعل شيئًا دون آخر، ولكن كلب الرجل ظل يتبعني، وحاولت بدوري جعله يرجع إلى مكانه، ولكنه لم يعرني اهتمامًا. وبينما كنت أتجه إلى السيارة، وهو يتبعني، أنصت إلى صوت الصفير ينادي الكلب. لم أنظر خلفي، ولكنني علمت أنه خرج وأخذ يبحث عنا. كان رد فعلي سريعًا

ولا إراديًا، فحاولت ألَّا أجعله يراني، أو يرانا نحن الاثنين، أذكر أنني اختبأت، بينما الكلب ملتصق بفخدي، خلف شاحنة كبيرة حمراء اللون مثل الدم القاني. إلَّا أن الحافلة تحركت، وشاهدنا الرجل من الجهة المقابلة، وأشار لي بيده إشارات يمكن تفسيرها على أنها تعني أن أصطحب الكلب وأرحل، أو أن أشنق الكلب، أو ألَّا أتحرك إلى أن يقترب منا بعد عبور الطريق من الجهة المقابلة.

ولكنني لم أنفذ أي شيء مما أشار به، وسمعت صوته يقول كلمات مثل «توقف»، «أيها الصديق»، «كلبي»، ولا أعرف لماذا تصرفت بهذه الطريقة. لقد تبعني كلب التاجر، ودخل إلى السيارة المتوقفة فور أن فتحت الباب، ولم يترك لي فرصة لأي رد فعل آخر، وحين دخلت بالكلاب الثلاثة حين عودتي، لم تقل المرأتان أي شيء.

وأخذتا تلعبان مع الكلاب وبدا أن كلب التاجر كان يعرفهما حق المعرفة، وبدأنا نتكلم عن كل ما حدث فقصصت عليهما وجودي في القرية، ثم جعلتا تتحدثان عن ماضيهما، وعمل كل منهما، فواحدة كانت معلمة، والأخرى مصففة شعر، وتركتا عمليهما، ولكنهما كانتا ترعيان الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة من وقت إلى آخر.

ووجدتني أذكر ضرورة أن تتم مراقبة البيت بشكل متواصل فنظرتا إليَّ ووافقتا بابتسامة، ندمت بعد ذلك أنني تحدثت بهذا الشكل، ثم تناولنا الغداء، أعددت العشاء في تلك الليلة،

وامتدت المحادثة ولم يقطعها سوى صوت حركات الفك والأسنان بينما نمضغ الطعام، وأصوات الكلاب في الخارج تجري وتتسابق. ثم جلسنا نحتسي الشراب.

وتحدثت إحدى السيدتين – لا أتذكر أيهما – عن كروية الأرض، وعن مسألة العزل ورأي الأطباء،كنت أفكر في أشياء أخرى ولم أعرهما انتباهًا،أعتقد أنها كانت تشير إلى الهنود الذين سكنوا منحدرات هذه الجبال.

لم أتحمل أكثر من ذلك فتركت المجلس، رفعت المائدة وحملت الأطباق إلى المطبخ لغسلها، إلَّا أنني استطعت سماعهما من هناك. حين عدت إلى الصالة، كانت الصغرى ممددة فوق الكنبة، وقد غطت نصف جسدها ببطانية، فيما واصلت الثانية الحديث عن مدينة كبرى، وكأنها تمتدح الحياة في هذا النوع من المدن، ولكنها في الواقع كانت تسخر منها.

لم أفهم أبدًا روح الدعابة لدى هاتين المرأتين.

كنت معجبًا بهما، وأقدرهما، ولكن حسهما في الدعابة كان يبدو لي مزيفًا وملفقًا. ووصلت زجاجة الويسكي التي فتحتها بنفسي بعد العشاء إلى منتصفها. شعرت بالقلق إزاء ذلك، فلم تكن لديَّ نية لأن أسكر وأفقد وعيي. أو أن تسكر المرأتان، وتتركاني وحيدًا. وهكذا جلست إلى جوارهما وأخبرتهما أننا يجب أن نتحدث بشأن أشياء وأن نعمل على حلها.فقالتا متظاهرتين بالدهشة: أي أشياء؟ ربما كانتا

متفاجئتين بالفعل. قلت: إن البيت به نقاط ضعف كثيرة، ويجب أن نحل هذه المشكلة.

فقالت إحداهما: اذكرها. قلت: حسنًا، وبدأت أعدد المشكلات، مشيرًا إلى بعد القرية وأنها مهجورة. ثم أدركت على الفور أنهما لا تستمعان لما أقوله. قلت لنفسي، لو كنت كلبًا لأعارتني هاتان المرأتان شيئًا من الاهتمام. وبعد ذلك، حين أدركنا جميعًا أننا مكشوفون، بدأ كل منا الحديث، تحدثتا عن الأطفال، وتأثرت تأثرًا بالغًا بحديثهما.

لقد رأيت أهوال وأفعال سوء قادرة على التأثير في أشخاص غاية في الصلابة، ولكن الاستماع إلى حديثهما في ذاك اليوم، جعل قلبي ينفطر، وكأنه اختفى تمامًا.

أردت أن أتحقق وأفهم، هل كانتا تتحدثان عن فترة طفولتهما، أم عن أطفال آخرين، ولكنني لم أنجح في ذلك. كان حلقي وكأنه مسدود بقطع من القطن والشاش المعقم. وفجأة بينما تواصل المرأتان الحوار الثنائي، تنبهت إلى شيء، فاقتربت من النافذة بحذر، كانت نافذة مستديرة صغيرة وجانبية، قريبة من النافذة الرئيسية، وكأنها بلا نفع.

ونظرت المرأتان إليَّ في اللحظة الأخيرة، وشعرتا بأن هناك شيئًا ما، فأشرت إليهما أن تلتزما الصمت، واضعًا إصبعي على فمي، ثم حركت الستارة، فرأيت وجه «بيدلوي»، القاتل. وما حدث بعد ذلك كان غاية في الاضطراب، لأن الرعب تنتقل عدواه إلى الآخرين.

عرفت القاتل على الفور، ولكنه بدأ يجري ويدور حول المنزل، فيما انطلقت أجري مع المرأتين داخل المنزل، كان يجري ليبحث عن مدخل إلى البيت، نافذة مفتوحة أو ما شابه، فيما نجري نحن لنغلق الأبواب والنوافذ.

أعلم أنني لم أقم بما كان ينبغي عليَّ فعلة، وهو التوجه إلى حجرتي وجذب المسدس والقضاء على هذا الشخص بدلًا من ذلك، كنت أفكر في اختفاء الكلاب المفاجىء، آملًا ألَّا يكون قد أصابها مكروه، خصوصًا أن الكلبة كانت حامل، وقد ذكر أحدهم شيئًا بهذا الصدد.

وصاحت إحدى المرأتين «الكلبة، الكلبة»، فشعرت أن المرأة التي كانت تحكي، قد خرجت خارج المنزل، للبحث عن الكلبة، ولكن وضح أن آيًا منهما لم تغادر المنزل. هذا أفضل على كل حال، هكذا فكرت. وفي هذه اللحظة نفسها (وهو ما لم أنسه أبدًا)، دخلت إلى حجرة بالطابق الأول لم أكن قد دخلتها قبلًا.

كانت طويلة ومستطيلة الشكل، مظلمة يضيئها فقط بصيص القمر وأضواء خافتة صادرة عن الرواق. وعرفت أن هذه هي لحظـــة القـــدر (أو لحظة المصيبة الوشيكة) التي قادتني إلى هذا المكان.

لمحت من الجانب الآخر إلى جوار النافذة شبح التاجر القاتل، حاولت أن أتماسك وأكف عن الارتعاش (جسدي كان يرتعش وأتصبب عرقًا)، ثم انتظرت، فتح التاجر النافذة

بسهولة أدهشتني وقفز منها إلى الحجرة، وكانت بها ثلاث أسرة خشبية ضيقة وإلى جوار كل منها طاولة صغيرة. وعلى بعد سنتيمترات قليلة من الأسرة، شاهدت ثلاث علامات بارزة. توقف القاتل للحظة، وشعرت به يتنفس، وكان تنفسه بصوت عال منتظم. ثم سار على أطراف أصابعه ما بين الأسرة، مقتربًا من المكان الذي مكثت به.

كنت أعرف أنه لم يرني، وبدا لي أمرًا غير معقول، وشكرت حظي السعيد، وحين اقترب مني أكثر جذبته من قدميه وجعلته يسقط على الأرض، ثم جعلت أركله لأصيبه بأكبر ألم ممكن. جعلت أصرخ «إنه هنا، إنه هنا»، ولكن يبدو أن المرأتين لم تسمعاني (وأنا أيضًا لم أسمع لهما صوتًا)، وبدا لي أن هذه الحجرة المجهولة مثلها مثل عقلي، البيت الوحيد، والسقف الوحيد.

لا أعلم كم من الوقت بقيت هناك، أضرب في الجسد المسجى، أتذكر فقط أن أحدهم فتح الباب من خلفي، وسمعت كلمات لم أفهمها، وشعرت بيد فوق كتفي، فتوقفت عن ضرب الرجل.

ولم أعرف ماذا أفعل لمدة لحظات، شعرت بالتعب والذهول. وفي النهاية تحركت وسحبت الرجل إلى الصالة، وهناك وجدت المرأتين جالستين على الكنبة وكأن كلًا منهما تحتضن الأخرى (ولكن لم تكن إحداهما تحتضن الأخرى)، لا أعرف لماذا ذكرني الموقف بشيء يشبه حفلة عيد ميلاد. اكتشفت في نظرتهما قلقًا، وبصيص خوف، ليس مما يحدث، ولكن من الضربات التي كلتها لـ «بيدلوي».

وبسبب نظراتهما تركت جسده يسقط على الأرض، وتحديدًا ينزلق فوق السجادة.

بدا وجه «بيدلوي» مكسو بالدماء على ضوء الصالة الصريح، وبدت كتلة من الدم المتخثر إلى جوار أنفه.

تحققت من نبضات قلبه، فيما نظرت المرأتان إليَّ دون أن تحركا ساكنًا. قلت: لقد مات الرجل. وقبل أن أخرج إلى الرواق، سمعت إحداهما تزفر عاليًا.

دخنت سيجارة بينما أتأمل النجوم، وأفكر فيما سأضطر لقوله لاحقًا إلى السلطات في القرية. فيما قامت المرأتان بالانحناء على ركبتيهما تخلعان عن الرجل ملابسه، فندت عنيِّ صرخة لا إرادية، فلم تلتفتا إليَّ حتى، أعتقد أنني شربت كأسًا من الويسكي ثم خرجتُ من الصالة، وأعتقد أنني أخذت الزجاجة. لا أعلم قدر الوقت الذي بقيته هناك بينما، أشرب وأدخن، تاركًا الوقت للمرأتين لتنهيا مهمتيهما.

شيئًا فشيئًا بدأت أستعيد رؤية الأحداث تباعًا بذاكرتي. تذكرت الرجل الذي وقف ينظر خلف النافذة، تذكرت نظرته وأدركت الخوف، تذكرت كيف فقد كلبه، ثم تذكرته يقرأ الصحيفة في جانب من متجره، وضوء الحجرة الذي قتلته فيها. ثم جعلت ألاحظ الكلاب التي لم تنم هي أيضًا واستمرت تجري في الفناء من طرف إلى آخر.

السور الخشبي للمنزل كان مكسورًا، فكرت أن أحدًا ما يجب

أن يصلحه، ولكن هذا الشخص لن يكون أنا على أية حال. بزغ نور الصباح من جهة الجبل المقابلة. وخرجت الكلاب تبحث عن اللهو، بعد أن أنهكت ليلًا. ولم يكن هناك غيرهما هما الآثنتان كالعادة.

أطلقت صفيرًا أنادي على الآخر ولكنه لم يظهر، وفيما يرتعش جسدي من البرد ارتعاشته الأولى، خطرت ببالي الرؤية الأولى: لم يكن القتيل مجرمًا قاتلًا. القاتل الحقيقي خدعنا، وربما هو بمكان آخر. لم يرد «بيدلوي» أن يقتل أحدًا، كان يبحث عن كلبه وحسب. فكرت، ياله من مسكين تعس.

بدأت الكلاب تطارد بعضها البعض مجددًا في الفناء.

فتحت الباب بسهولة ونظرت إلى المرأتين في الصالة.

رأيت جسده مرة أخرى، وكان مرتديًا ملابسه هذه المرة، بل على العكس، أفضل هندامًا مما كان عليه. كنت على وشك أن أقول لهما شيئًا، ولكن بدا لي بلا طائل أن أقول شيئًا وعدت إلى مكاني. خرجت إحداهما في إثري. وقالت وقد وقفت خلفي: الآن علينا أن نتخلص من الجثة.

قلت: أجل.

ووضعت «بيدلوي» في الجزء الخلفي من السيارة، وانتقلنا نحن الثلاثة إلى الجبل. قالت السيدة الأكبر سنًا: الحياة لا معنى لها. لم أقل شيئًا وبدأت أحفر حفرة في الأرض.

وفي طريق العودة، صعدت المرأتان لتغتسلا، ونظفتُ

السيارة ثم أخذت أجهز أشيائي. سألتاني: ماذا ستفعل الآن؟ بينما كنا نتناول الإفطار بالصالة ونتأمل السحاب.

أخبرتهما: سوف أعود إلى المدينة، سأبدأ في معاودة البحث من حيث النقطة التي توقفت عندها.

وبعد مرور ستة أشهر، انتهت قصة «بانشو مونجي»، فقد قُتل ويليام برنز على يد مجهولين.

العملاء السريون

- ما الأسلحة التي تفضلها؟

- جميعها باستثناء الأسلحة البيضاء.

- أتعني السكاكين والمطاوي، والخناجر، والأنصال والقبضات المعدنية وسكين الجيب، وغيرها من هذه الأشياء.

- نعم، تقريبًا هو ذلك.

- ماذا تعني بتقريبًا؟

- إنها طريقة للكلام أيها المعتوه المخصي. لا أفضل أيًّا منها.

- هل أنت متأكد؟

- نعم متأكد.

- ولماذا لا تعجبك الخناجر؟

- لا تعجبني وحسب.

- و لكنها نوع الأسلحة المستخدمة في شيلي.

- أهي الأكثر استخدامًا في شيلي؟

- الأسلحة البيضاء عمومًا.

- لا تسخر منِّي أيها الفظ.

- أقسم لك بكل ما هو مقدس، لقد قرأت الأسبوع الماضي مقالًا يؤكد ما أقوله. فنحن في شيلي لا تعجبنا الأسلحة النارية، على الأرجح بسبب الضوضاء، فطبيعتنا تميل إلى الهدوء إلى حد ما.

- ربما بسبب البحر.

- كيف بسبب البحر؟ عن أي بحر تتحدث؟

- الباسيفيك بالطبع.

- أه تعني المحيط الهادىء. وما علاقه المحيط بالهدوء؟

- يقولون إنه يخفي الأصوات المزعجة وغير المفيدة، وهو شيء معروف، ولكنني لا أعرف إن كان حقيقيًّا أم لا.

- وماذا بشأن الأرجنتينيين؟

- و ما علاقة الأرجنتينيين بالمحيط الهادىء.

- إنهم يطلون على المحيط الأطلنطي، وهم مزعجون جدًّا.

- و لكن لا توجد نقطة للمقارنة.

- لديك الحق في ذلك، لا توجد نقطة للمقارنة، غير أن الأرجنتينيين بالمثل لا يفضلون الأسلحة البيضاء.

- لهذا السبب تحديدًا لا يروقون لي. على الرغم من أنها الأسلحة «الوطنية». فسكين الجيب هو الأكثر شيوعًا لن أقول لك عكس ذلك، وخصوصًا فيما يتعلق بالاستخدامات الألف، أما بقية الاستخدامات فهي لعينة.

- حسنًا أيها العراب، فلتشرح لي.

- لا أعرف كيف أشرح، عزيزى العراب، أعتذر. الأمر هكذا وحسب، ماذا تريد مني إن الأمر هكذا وحسب، ماذا تريد مني أن أفعل.

- الآن أرى توجهك.

- حسنًا فلتخبرني به لأنني أنا نفسي لا أعرفه.

- الأمر لا يخلو من فائدة.

- ما هذه الفوائد؟

- تخيل عصابة من اللصوص المسلحين بالبنادق الآلية. هذا مجرد مثال. أو مجموعة ممن يحملون الرشاشات.

- إنني أرى الآن توجهك.

- هل تعتبر هذه فائدة أم لا؟

- بالنسبة لنا فائدة مائة في المائة. إلا أن الوطن له رأي مخالف.

- وما الذي يجعل للبلاد رأيًا مخالفًا!

- طبيعة شخصية المواطنين الشيليين، وأحلامهم الجماعية. الأمر كأنهم أقنعونا بأننا لسنا مؤهلين لأي شيء، باستثناء المعاناة، لا أعرف إذا ما كنت تفهمني، ولكنني أشعر وكأنني أرى النور لأول مرة.

- إنني أفهمك، ولكن ليست هذه النقطه كما تبدو.

- ماذا تقصد؟

- ليس هذا ما أشير إليه. إنني ببساطة لا أفضل الأسلحة البيضاء، هذا كل شيء دون أية فلسفة.

- ولكن أيعجبك أنهم في شيلي يفضلون الأسلحة النارية، وهو ليس القول بأنه في شيلي تنتشر الأسلحة النارية؟

- لن أرد بالنفي ولا بالإيجاب.

- وفضلًا عن ذلك، فمن ذاك الذي لا يفضل الأسلحة النارية.

- هذه حقيقة، فالعالم كله يفضلها.

- أترغب أن أشرح لك بشكل أفضل ما يتعلق بطبيعة الصمت هذه؟

- حسنًا، إذا ظللت متيقظًا.

- لن تشعر بالنعاس، وإذا داخلك الإحساس فلنوقف السيارة، وأقوم أنا بالقيادة.

-قرأت عن ذلك في صحيفة «ميركوريو».

- ومنذ متى تقرأ الـ «ميركوريو"؟

- أحيانًا يتركونها في حجرات الرؤساء، وساعات الحراسة طويلة. حسنًا، جاء في المقال أننا شعب لاتيني، وأن اللاتين بشكل عام يميلون إلى الأسلحة البيضاء، بينما شعوب الأنجلوساكسون تفضل الأسلحة النارية.

- يعتمد هذا على الفرصة المتاحة.

- هذا هو نفس ما فكرت به.

- و في لحظة الجد، فلتخبرني أنت بما ترى.

- هذا هو نفس ما فكرت به.

- نحن أكثر بطًء ، يجب أن نعترف بذلك.

- ماذا تعني بأننا أكثر بطًء؟

- إننا أكثر بطًء في كل شيء. وكأننا قدامى.

- وهل تسمي هذا بطًء؟

- نحن نتمسك بمسألة قبضة اليد، وكأننا في العصر البرونزي، بينما الأوروبيون ينتمون إلى العصر الحديدي.

- لم أعجب بهذه القصة على الإطلاق.

- هل تتذكر حين ذهبنا إلى «لوايثا"؟

- و كيف أنسى هذا.

- هذا هو، فلم يتقدم سوى السمين.

- نعم، وكانت لديه ترسانة أسلحة في المنزل.

- هذا هو.

- هل كان يجب أن يقاوم !

- كنا أربعة أشخاص فقط، بينما السمين وأصدقاؤه كانوا خمسة، كنا نحمل الأسلحة المعتادة، بينما كان لديه كل شيء بما في ذلك البازوكا.

- لم تكن بازوكا يا عزيزي.

- كان سلاح «فرانشي إسباسي-١٥»، فضلًا عن بندقيتين آليتين. إلَّا أن السمين لوايثا سلم نفسه دون إطلاق رصاصة واحدة.

- هل كنت تفضل أن يندلع الشجار؟

- لا أيها المجنون. ولكن لو أن السمين لم يكن يدعى لوايثا، وكان يطلق عليه ماك كورلي، أو ربما لو استقبلنا بالرصاص لما كان الآن بالسجن.

- ربما يكون قد مات.

- أو ربما يكون حرًا، لا أعرف إذا ما كنت تفهمني.

- ماك كورلي يبدو لي كاسم بطل في أحد أفلام رعاة البقر في أحد الأفلام.

- و أنا أيضًا، أعتقد أننا شاهدنا الفيلم معًا.

- إننا لا نذهب إلى السينما معًا منذ قرون.

- ربما نكون قد شاهدناه في وقت ما سابق.

- بالترسانة الأسلحة التي كان يمتلكها لوايثا السمين، هل تذكر كيف استقبلنا؟

- كان يضحك عاليًا.

- أعتقد أن ذلك بسبب إحساسه بالقلق، لأن أحد أعضاء العصابة انفجر في البكاء. أعتقد أن عمره لم يصل إلى السادسة عشرة.

- و لكن السمين كان يتجاوز الأربعين وكان ذلك باديًا عليه بوضوح. اهبط على الأرض، في هذا البلد لا يوجد رجال أقوياء بالفعل.

- كيف لا يوجد رجال أقوياء، لقد رأيت ذلك بنفسي.

- ربما رأيت العديد من المجانين، ولكن الأقوياء يعتبرون عملة نادرة، أو لا وجود لهم على الاطلاق.

- و ماذا بشأن راوليتوسانشيث؟

- وكيف أنساه.

- وماذا بشأنه؟

- كان يجب أن يتخلص من المسدس بسرعة. وكان هذا هو خطأه. فليس أسهل من اقتفاء أثر شخص عن طريق نوع السلاح الذي كان يحمله.

- وهل كان يحمله بالفعل؟

- طبعًا.

- كنت أعتقد أنه سلاح فرنسي.

- إنه طراز ٣٥٧. وهو فرنسي. لذلك لم يتخلص منه.

- كان مرتبطًا بسلاحه، بالرغم من أنه ليس سلاحًا مرتفع السعر، ولكن القطع الموجودة منه في شيلي قليلة.

- الإنسان يتعلم كل يوم شيئًا.

- يا للمسكين راوليتوسانشيث.

- يقولون إنه تُوُفيَ في السجن.

- لا، لقد مات بعد قليل من خروجه من السجن، في أحد الفنادق الشعبية الرخيصة بـ أريكا.

- يقولون إن رئتيه كانتا متهالكتين تمامًا.

- كان يبصق دمًا منذ كان صبيًا صغيرًا، ولكنه تحمل بشجاعة.

- أذكر أنه كان قليل الكلام.

- قليل الكلام ويعمل بجد، بالرغم من أنه كان متعلقًا بالأمور المادية في الحياة. سلاحه كان سببًا في خلاصه.

- العاهرات كن السبب في خلاصه.

- و لكن راؤليتو كان ثابتًا مثل قاعدة المدفع.

- أقسم لك بأنه ليست لديَّ أية فكرة. فالزمن لا يحترم شيئًا، حتى الأبراج العالية تنهار.

- وما علاقة الأبراج بهذا؟

- إنني أذكره رجلًا كاملًا، لا أعرف إن كنت تتابع ما أقول !

- و ما علاقة الرجولة بذلك؟

- كان رجلًا على طريقته، ألم يكن كذلك؟

- لا أعرف ماذا أقول لك.

- لقد رأيته بصحبة عاهرات ذات مرة. ولم يعاملهن بحقارة.

- راؤليتو لم يحتقر أحدًا. ووفقًا لما أعرفه فهو لم يكن له علاقة قط بأية أمرأة.

- هذا تأكيد مبالغ فيه، احترس لما تقوله.فالأموات دائمًا يراقبوننا.

- وما الذي سوف يراه الموتى؟ فالموتى اعتادوا على البقاء هادئين. الموتى «هذا خراء».

- كيف أنهم خراء.

- كل ما يفعلونه هو تكدير وجود الأحياء.

- لا أتفق معك، إنني أشعر باحترام بالغ تجاه المتوفين.

- ولكنك لا تذهب إلى المقابر على الإطلاق.

- فلنر، متى كان «يوم الموتى»؟

- حسنًا لقد تمكنت منِّي أيها الخنزير القذر. إنني أذهب حين أرغب في ذلك.

- هل تؤمن بظهور الأشباح؟

- ليس لديَّ رأي واضح، ولكن هناك بعض التجارب تجعل الشعر يشيب.

- هذا ما أردت الوصول إليه.

- هل تقول ذلك بسبب راؤليتو سانشيث؟

- بالضبط. فقبل أن يموت، تظاهر بالموت في مناسبتين. إحداهما في مغامرة مع دوريس بيالون، هل تذكرها؟ لقد قضى الليل بالكامل معها في إحدى المقابر، تحت بطانية واحدة، ووفقًا لما حكته دوريس لم يحدث أي شيء.

- ولكن دوريس شاب شعرها بالكامل.

- لقد تعددت الأقاويل.

- ولكن الحقيقة أن شعرها شاب بالكامل في ليلة واحدة، مثل شعر الملكة أنطوانيت.

- إنني لا أعرف من مصدر موثوق أنها شعرت بالبرد، وأنهما دخلا إحدى المقابر الفارغة، ثم تعقدت الأمور بعد ذلك. ووفقًا لما حكته لي إحدى صديقات دوريس فقد حاولت أن تجعل راؤليتو ينتصب، ولكنه لم يتمكن وفي النهاية غلبه النعاس.

- هذا الرجل دمه بارد.

- وبعد ذلك، حين كف صوت نباح الكلاب، أرادت دوريس مغادرة المدفن ثم ظهر أمامها الشبح.

- و هكذا، فهل شاب شعر دوريس لمشاهدة الشبح؟

- هذا هو ما حكاه الأخرون.

- على الأرجح لم يتعد الأمر كونه جص المدفن.

- من الصعب تخيل ظهور الأشباح.

- وواصل راؤليتو نومه بالرغم من كل ذلك؟

- ظل نائمًا، ودون أن يمس هذه المرأة المسكينة.

- وفي اليوم التالي كيف كان شعره حين استيقظ؟

- أسود كما كان دائمًا. بالرغم من عدم وجود دليل مكتوب، لأنه بحكم الواقع فقد صدر أمر بتغيير الوقائع.

- هذا يعني أنه لم يكن هناك مكان بالجص لوضع الشموع.

- يبدو أن الوضع كان مخيفًا.

- مخيفًا في مركز الشرطة.

- أو أنه تم تشويهه.

- هذه هي أسرار النفس البشرية. في كل الأحوال فإن راؤليتو لم يؤكد أبدًا هذا الأمر.

- ولكن يا رجل، الأشياء كانت واضحة.

- لم يعد هناك رجال في شيلي.

- والآن، إنك تجعلني أتجمد، تشبث جيدًا بمقود السيارة، لا تثر أعصابي.

- أعتقد أنه أرنب، على الأرجح لقد دهسته.

- كيف أنه لم يعد هناك رجال بـ شيلي؟

- لقد قتلناهم جميعًا.

- كيف قتلناهم؟ إنني في حياتي لم أقتل شخصًا، وفي حالتك فقد كان مجرد أداء للواجب.

- واجب؟

- الواجب، الاضطرار، وحفظ الأمن، إنه عملنا باختصار وفي كلمة واحدة. أم أنك ترغب أن تقبض راتبك وأنت جالس لا تفعل شيئًا.

- لم أحب الجلوس ساكنًا أبدًا، فلديَّ عنكبوت يجري في فخذي، ولكن لهذا السبب نفسه توجب عليَّ أن أعتزل.

- حسنًا، وهل تبقَّى رجال في شيلي؟

- لا تنظر لي على أنني مجنون، وخصوصًا خلال القيادة.

- إهدأ وانظر أمامك. ولكن ما دخل شيلي في هذه القصة؟

- لها علاقة بالطبع، أو ربما أكون قصّرت في الوصف.

- لدى فكرة.

- هل تتذكر ٧٣؟

- هذا هو ما فكرت به.

- لقد قتلناهم جميعًا هناك.

- الأفضل ألَّا تتعجل، على الأقل وأنت تشرح لي الأمر.

- ما تبقى للشرح قليل، الكثير هو ما يبكي وليس ما يُشرح.

- على كل حال فلنواصل الحديث، فالرحلة مازالت طويلة. أخبرني من الذين قتلناهم في ٧٣؟

- قتلنا الديوك، رجال الوطن الحقيقيين.

- ليس بالأمر المهم. كما أننا كنا الأوائل. ألَّا تذكر أننا كنا من أوائل من سُجنوا؟

- كان ذلك لثلاثة أيام وحسب.

- ولكنها كانت الأيام الثلاثة الأولى، كانت أيام سوداء كالخراء.

- ولكن تم الإفراج عنا بعد ثلاثة أيام.

- ولم يتم الإفراج عن آخرين مثل المفتش توبار، هذا الرجل الشجاع، أتذكر؟

- ألم يخفونه بالكامل في «ليريكينا"؟

- هذا ما قلناه للأرملة، ولكن لم تُعرف الحقيقة قط.

- هذا هو ما يقتلني في بعض الأحيان ؛ هؤلاء الذين لا نعرف هل هم أحياء أم أموات.

- كيف ذلك، أحياء أم أموات؟

- أعني من تغيروا من كبروا في السن، بل ونحن أنفسنا، فلم نذهب بعيدًا.

- الآن أفهمك، لم نعد صغارًا، هذا ما تعنيه.

- أحيانًا يتملكني الشعور بأنني لن أستيقظ مجددًا، وأنني تنازلت عن كل شيء إلى الأبد.

- هذا مجرد إقرار بالوضع ليس أكثر.

- وفي بعض الأحيان ينتابني غضب شديد حتى أنني أبحث عن المذنب، أنت تعرفني، أستيقظ أيامًا وأجدني بوجه كلب غاضب، أبحث عن المذنب، ولكن لا أعثر عليه، بل الأسوأ من ذلك، يكلل بحثي بالخطأ وأنكفيء على نفسي.

- نعم، نعم، رأيتك.

- إذن فلنلق الذنب على شيلي، بلد العهر والقتلة والمثليين.

- ولكن ما ذنب المثليين هل تخبرني؟

- لا يوجد سبب محدد، الأمور تتساوى.

- لا أشاركك وجهة نظرك، الحياة صعبة كما ترى.

- أعتقد أن هذا البلد قد ذهب إلى الشيطان منذ زمن، ولم يتبق لنا هنا سوى المعاناة والكوابيس مع التشبث بالأحلام.

- تمهل، احترس للطريق. لا تنظر إليَّ، أنا لا أقول شيئًا، انظر أمامك.

- وفي تلك اللحظة، شعرت بأنه لم يتبق رجال في هذا البلد. مثل لقطة الفلاش. لم يعد هناك رجال، فقط أشخاص غافلون نيام.

- وماذا عن النساء؟

- إنك تبدو مغفلاً أحياناً، إنني أشير إلى النفس البشرية بشكل عام، بما في ذلك النساء.

- لا أعرف إذا ما كنت فهمت ما تقوله.

- انظر، فلم يعد هناك رجال في شيلي، ولا نساء مثل الرجال.

- ليس هذا بالضبط، ولكن شيء مشابه.

- أعتقد أن نساء شيلي جديرات بالاحترام.

- ومن اعترض على احترام النساء في شيلي؟

- أنت يا رفيقي، لا أكثر ولا أقل من هذا.

- ولكنني لا أعرف غير نساء من شيلي، فكيف سأقلل من قدرهن؟

- هذا هو ما تقوله، وتحمل العواقب.

- لماذا تتشكك بهذا الشكل؟

- لا أتشكك.

- أشعر برغبة في التوقف والنزول لأحطم وجهك.

- يجب أن ننظر في هذا.

- ما أجمل هذه الليلة.

- لا تثر اشمئزازي في هذه الليلة، ما علاقة الليل بكل هذا؟

- ربما لأن القمر مكتمل.

- لا تثأر مني بشكل غير مباشر. إنني مواطن شيلي صالح، ولا أركز على الفروع من الأشياء.

- تخطيء في هذا الصدد إننا جميعًا مواطنون صالحون من شيلي، ولا نفعل مثلما تقول. المشهد يبعث على الرعب.

- الأمر أنك متشائم.

- وكيف ترغب في رؤيته على نحو آخر؟

- بالإمكان رؤية الضوء في الأوقات الأكثر سوءًا. أعتقد أن هذا هو ما قاله «بيسوا».

- بيسوا بيليث.

- حتى في الأوقات الأكثر عتمة يوجد بصيص من الأمل.

- لقد ذهب الأمل إلى الشيطان.

- الأمل هو الشيء الوحيد الذي لا يذهب إلى الشيطان.

- «بيسوا بيليث»، أتعرف ما الذي تذكرته الآن؟

- وكيف سأعرف؟

- الأيام الأولى في التحقيقات.

- في قسم شرطة «كونسيبثون"؟

- في قسم شرطة شارع لاتيمبلي.

- لا أذكر في هذا المكان سوى العاهرات.

- لم أنم في حياتي مع عاهرة.

- كيف تقول هذا؟

- أقصد في الأيام والأشهر الأولى، ولكن بعد ذلك بدأت في الانحطاط.

- كما أن ذلك كان بالمجان. عندما تنام مع عاهرة دون أن تدفع مقابل. لا يبدو الأمر وكأنك تضاجع عاهرة.

- العاهرة هي العاهرة.

- أحيانًا. أشعر بأنك لا تحب النساء.

- كيف ذلك؟

- أقول ذلك بسبب الاحتقار الذي تكنه لهن.

- المسألة أن العاهرات عادة ما يفسدن حياتي.

- ولكنهن الأمر الأكثر عذوبة في العالم.

- ولهذا السبب كنا نغتصبهن.

- هل تشير إلى ما كان يحدث في قسم شرطة لا تمبلي؟

- هذا هو تمامًا ما كنت أفكر فيه.

- ولكننا باغتصابهن كنا نؤدي عملًا فيه مصلحة للطرفين، لقد كانت طريقة لقتل الوقت. كانت العاهرات تغادرن في اليوم التالي وهن قمة في السعادة، فيما نشعر نحن براحة كبيرة، ألَّا تتذكر ذلك؟

- أتذكر أشياءً عديدة.

- الأسوأ كانت التحقيقات نفسها. ولم أرغب أبدًا في المشاركة.

- ولكن اذا كانوا طلبوا منك ذلك، كنت ستنصاع.

- لا أستطيع الإجابة بـ نعم أم لا.

- هل تتذكر زميلنا من المدرسة الثانوية الذي قابلناه هناك؟

- طبعًا أذكره، ماذا كان اسمه؟

- كنت أنا من لاحظ وجوده ما بين المعتقلين. ولكنك رأيته ولم تتعرف عليه.

- كان ذلك بعد عشرين عامًا، وبعدها خمس سنوات لم نتقابل فيها أيضًا لم يتعرف عليَّ.

- نعم اسمه أرتورو، وغادر إلى المكسيك وهو في الخامسة عشرة ثم عاد إلى شيلي وهو في العشرين.

- يا للمناسبة التعسة.

- بل مناسبة سعيدة، أن يسقط في القسم الذي نعمل به.

- حسنًا، فهذه قصة طويلة، كلنا نعيش في سلام.

- عندما رأيت اسمه في قائمة المساجين السياسيين عرفت أنه هو. كما أن لقبه غير شائع.

- انتبه لما تفعل، إذا أردت نستطيع تبادل المقاعد.

- وعلى الفور قلت لنفسي، هذا هو صديقنا القديم، الزميل أرتورو، أرتورو المجنون، المعتوه الذي غادر إلى المكسيك وهو في الخامسة عشرة.

- حسنًا، أعتقد أنه شعر بالسعادة حين تقابلنا هناك.

- حين رأيته كان منفصلًا عما حوله، والمساجين الآخرون كانوا يلتهمونه، بالطبع شعر بالفرحة لرؤيتك.

- حقًا، لقد شعر بالفرحة.

- أعتقد أنني أراه.

- ولكنك لم تكن هناك.

- ولكنك حكيت لي بعد ذلك. لقد قلت له هل أنت أرتورو بيلانو من لوس أنخلس محافظة بيو-بيو، وأجابك نعم يا سيدي، إنه أنا.

- هذه هي الأشياء بعينها، بالنسبة لي فقد نسيت.

- وحينها قلت له، ألَا تتذكرني أرتورو؟ ألَا تعرف من أنا أيها المعتوه؟ ثم نظر إليك بتمعن وكأنه يقول الآن سيبدأون في تعذيبي أو كأنه يقول وماذا فعلت بابن العاهرة هذا؟

- حقًا، لقد نظر إليَّ بخوف.

- ثم أخبرك قائلًا، ليس لديَّ أدنى فكرة يا سيدى، ثم بدأ ينظر إليك نظرة أخرى، محاولًا إزالة عصارات الماضى اللزجة، مثلما قال أحد الشعراء.

- لقد نظر لي بخوف، هذا هو كل شيء.

- وحينها قلت له، إنني أنا يا معتوه، زميلك في المدرسة الثانوية في لوس أنخلس من حوالى خمس سنوات، ألَا تعرفني؟ إنني «آرانسيبيا». وبدا أنه يقوم بمجهود كبير ليتعرف عليَّ، فقد مرت سنوات طويلة وهو في الغياب، أكثر مما قضاها في الوطن، ولم يتمكن من التعرف على وجهك، كان يذكر وجوها عمرها خمسة عشر عامًا وليس عشرين، ولم تكن أبدًا من أصدقائه.

- كان صديقًا للجميع ولكنه كان يصادق الشجعان.

- لم تكن أبدًا صديقًا له.

- ولكنني كنت سأسعد بصداقته، هذه هي الحقيقة.

- وبعدها قال، «آرانسيبيا»، طبعًا يا رجل، إنك آرانسيبيا، ثم بدأ ما هو أكثر تسلية، أليس كذلك.

- هذا نسبي. فرفيقي لم يجد أية متعة في ذلك.

- لقد أمسك بك من كتفيك ودفعك في صدرك، فتراجعت لثلاثة أمتار على الأقل.

- بل متر ونصف. مثل الأيام الخوالي.

- ثم انتفض المسكين، معتقدًا أنه قد جُنَ.

- أو أنه حاول الهروب، في ذاك الوقت كنا منضبطين إلى أقصى حد، واعتدنا حمل الأسلحة دائمًا لنكون في وضع الاستعداد الدائم.

- أو أن رفيقك أعتقد أنه أراد سحب السلاح والقاء نفسه عليك.

- ولكنه لم يفعل، لأنني أخبرته أنه صديق.

- ثم ضربته بكفك أنت أيضًا وطلبت منه أن يهدأ وأخبرته عن استمتاعنا بالعمل الذي نقوم به.

- لقد أخبرته فقط عن العاهرات ،كنا شبابًا في ذاك الوقت.

- أخبرته أنني أقضي كل ليلة مع إحدى العاهرات في الزنزانة.

- لا، لقد أخبرته أننا كنا نقوم بهذا العهر حتى الصباح.

- في أيام دوامنا الليلي.

- ولا شك أنه قال لك: هذا رائع يا آرانسيبيا، رائع لم أنتظر منك ما هو أقل من ذلك.

- شيء من هذا القبيل، احترس للطريق.

- وأنت سألته، ماذا تفعل هنا يا بيلانو، ألم تذهب للعيش في المكسيك؟ فأخبرك أنه عاد، وأنه بريء مثله مثل أي مواطن.

- وطلب مني أن أصنع له معروفًا وأجعله يجري اتصالاً هاتفيًا.

- وتركته يجري الاتصال.

- ذاك المساء.

- وكلمته عني.

- قلت له: «كونتريراس» أيضًا هنا، واعتقد أنك أنت أيضًا مسجون.

- محبوس في زنزانة، يطلق الصرخات حتى الثالثة صباحًا مثل «مارتينازو»، لا أتذكره.

- أحد من صادفناهم. لأن بيلانو كان نومه خفيفًا، اعتاد أن يسمعه كل يوم.

- ولكنني أجبته بالنفي، وأخبرته أن كونتريراس يعمل شرطيًا هنا، وهمست في أذنه متمتمًا: ولكن من اليسار، لا تخبر أحدًا.

- كان تصرفًا سيئًا ما قمت به.

- ما كنت سأتركك تتمايل.

- وبماذا أجاب بيلانو؟

- بدا على وجهه أنه لم يصدقني. وبدا على وجهه أنه لا يعرف حتى من هو كانتريراس.

- وبدا على وجهه شعور وكأنه يرغب في أن يحملني إلى مكان ذبح الحيوانات.

- لقد كان أهلاً للثقة.

- في سن الخامسة عشرة جميعًا نكون أهلاً للثقة.

- أنا لا أثق ولو بأمي.

- كيف لا تثق بأمك؟ لا يجب العبث فيما يخص الأمهات.

- لهذا السبب نفسه.

- ثم أخبرته: سوف ترى كونتريراس اليوم صباحًا، حين تخرجون جرادل التبرز، كن يقظًا، سوف يشير اليك بحركه ما. فأجابني بيلانو: حسنًا، وطلب مني أن أساعده في الاتصال التليفوني. لم يكن مشغولاً بشيء سوى المكالمة التليفونية.

- كان ذلك ليجلبوا له طعامًا.

- في كل الأحوال بدا علية السرور في نهاية لقائنا، في بعض الأحيان أفكر أنه لو كنا التقينا مصادفة بمكان آخر، لم يكن ليلقي لي بالتحية. فالعالم له تحولات عديدة.

- لم يكن ليعرفك، لأنك لم تكن من أصدقائه بالمدرسة.

- ولا أنت أيضًا.

- ولكنه تعرف عليَّ بالفعل. فحين تم استدعاء السجناء في الحادية عشرة، أصطف جميع المعتقلين لأسباب سياسية واقتربت أنا من الممر المفضي إلى الحمامات وقمت بتحيته عن بعد بإيماءة من رأسي. كان أصغرهم سنًا ورأيته بينهم بصعوبة.

- ولكن هل تعرَّف عليك أم لا؟

- طبعًا تعرف عليَّ. تبادلنا الابتسام عن بعد، وحينها اعتقد أن ما أخبرته به كان حقيقيًا.

- وما الذي أخبرت به بيلانو، فلنر هذا.

- كل الأكاذيب، لقد حكى لي كل شيء حين ذهبت لرؤيته.

- ومتى ذهبت لتراه؟

- مساء اليوم نفسه حين نقلوا جميع السجناء السياسيين. وبقى بيلانو بمفرده، الوقت كان طويلًا قبل أن تأتي الدفعة الثانية، وكان في أشد حالات اليأس.

- في السجن يضعف أكثر الرجال شجاعة.

- ولكنه لم ينهر، إذا ما تحدثنا بوضوح.

- ولكنه كان على وشك.

- صحيح، ولكن وقع له شيء غريب. وأعتقد أنه لهذا السبب نفسه تذكرته بسهولة.

- ما الذي وقع له؟

- حسنًا، لقد كان معزولًا في السجن، وأنت تعرف كيف تكون هذه الأمور في سجن «التمبلي»، لم يصلحوا لشيء إلَّا لجعلك تموت جوعًا، وذلك خوفًا من أن تبعث برسائل خارج السجن للشارع. وكان بيلانو معزولًا، أي لم يحضر له أحد

طعامًا من الخارج، أو حتى صابون أو فرشاة ومعجون أسنان، أو بطانية يتدثر بها ليلًا. وبمرور الوقت – وبطبيعة الحال – أصبح قذرًا جدًا، واستطالت لحيته، وفاحت رائحة ملابسه، في النهاية، كل ما هو معتاد. ولكن ذات يوم أخرجوا جميع السجناء ليستحموا. هل تذكر ذلك؟

- وكيف أنسى ذلك.

- وفي الطريق إلى الحمام كانت هناك مرآة، ليست في الحمام ولكن في الممر المفضي إليه ما بين القاعة الرياضية التي يمكث بها السجناء السياسيون والحمام، كانت مرآة صغيرة، بالقرب من الأرشيف، تتذكر أليس كذلك؟

- لا أتذكر هذا.

- كانت هناك مرآة، ونظر إليها كل السجناء. وكنا قد نزعنا المرآة من الحمام تحسبًا لأى تصرف أهوج، ولم يكن هناك غير المرآة المذكورة للحلاقة، أو يوم الاستحمام الأسبوعي.

- أتابع حديثك، وبما أن بيلانو كان معزولًا، لم يتمكن من حلاقة ذقنه أو الاستحمام، أو القيام بأي شيء.

- تمامًا، فلم تكن لديه ماكينة حلاقة أو فوطة للاستحمام، أو صابــون أو ملابس نظيفة، لذلك لم يستحم على الاطلاق.

- أنا لا أتذكر أن رائحته كانت بشعة لدرجة لا تطاق.

- كانت رائحة الجميع لا تطاق قد تتمكن من الاستحمام

يوميًا، ولكن تظل رائحتك رهيبة. رائحتك أنت أيضًا كانت كريهة جدًا.

- دعك منّي، وأنظر إلى هذه المطبات.

- حسنًا، المسألة أن بيلانو اعتاد ألَّا ينظر إلى نفسه في المرآة حين يقف في الصف، أتفهم؟ كان يتجنب ذلك. من صالة الألعاب إلى الحمام، والعكس، وحين كان يصل إلى المر يتجنب النظر إلى المرآة.

- كان يرهب التطلع إلى وجهه.

- ولكن ذات يوم، بعدما عرف أننا زميلاه من المدرسة الثانوية، وأن وجودنا هناك يجعله يستنجد بنا، تحمس للنظر إلى نفسه.

- وماذا حدث؟

- لم يتعرف على نفسه.

- هذا وحسب.

- هذا وحسب، لم يتعرف على نفسه. قال لي ذات مساءً حين استطعت أن أتبادل معه الحديث. لكي أكون صادقًا معك، لم أتوقع ما حدث. ذهبت لأخبره أنني لا أنتمي لليسار، وأنه لا علاقة لي بكل هذا الهراء الذي يحدث، ولكنه خرج عليَّ بمسألة المرآة ولم أعرف ماذا أقول له.

- وماذا قلت له عنِّي؟

- لم أقل شيئًا. كان هو من يتحدث. قال لي إن الأمور جرت ببساطة بلا صدام. هل تفهمني؟ وقف في الصف في طريقه إلى الحمام. وحين مر بجوار المرآة نظر فجأة إلى وجهه ورأى شخصًا آخر. ولكنه لم يشعر بالخوف ولم يصب بارتجافات ولم تجتحه نوبة هستيريا. فلم كان سيصاب بكل ذلك، مادام يعلم بوجودنا معه في المكان نفسه. وقضى حاجته في الحمام في هدوء يفكر في الشخص الذي رآه في المرآة. أخذ يفكر طيلة الوقت. في هدوء كأنه لايلقى بالًا للأمر وأثناء عودته نظر إلى المرآة مجددًا. وقال لي: لم أكن أنا. كان شخصًا آخر، وأجبته: ماذا تقول أيها المعتوه. كيف: شخص آخر؟

- لو مكانك لسألته. وكيف ذلك؟

- قال لي: شخص آخر. قلت لي: وضح لي. قال: شخص آخر مختلف. هذا هو كل شيء.

- إذن هل خطر ببالك أنه ربما فقد عقله؟

- لا أعرف فيما فكرت. ولكنني شعرت بالخوف.

- مواطن شيلي يخاف؟

- ألا ترى ذلك أمرًا مقبولًا.

- بشأنك أنت. لا أعتقد ذلك.

- هو الشيء نفسه، لاحظت على الفور أنه لا يخدعني. وقدته إلى الصالة إلى جوار قاعة الرياضة، وانطلق يتحدث إلى المرآة،

وعن الطريق الذي يقطعه يوميًا، وفجأة، اكتشفت أن كل شيء حقيقي، أنا وهو وحوارنا. وكنا خارج القاعة ففكرت بما أنه زميل قديم لنا في المدرسة الثانوية أن أجعله يتجه للممر وينظر إلى وجهه في المرآة مرة ثانية ولكن إلى جواري، بهدوء وأن يخبرني إذا ما كان المجنون الذي طالما عرفناه.

- وهل قلت له ذلك؟

- طبعًا أخبرته بذلك، ولكن لأصدقك القول، خطرت ببالي الفكرة التي جالت بعقلي وتطلبت زمنًا لتخرج إلى حيز الواقع. لأنه لو مر وقت طويل أو قصير قبل أن أنطق، فإنني لم أكن بقادر على استيعاب ذلك. لا أعرف هل تفهمني أم لا، بدأت أدرك ما يحدث وتضاعف خوفي.

- وهل واصلت ما كنت بدأته.

- بالطبع، لم يكن هناك وقت للتراجع، أخبرته أن نبدأ بالتجربة، إذا كان سيحدث لك الشيء نفسه بينما تنظر إلى نفسك في المرآة إلى جواري، ونظر إليها وكأنه لا يثق بي. وقال: حسنًا، اذا كنت مصرًا، سوف نُلقي نظرة وكأنني أؤدي معروفًا لنفسي، بينما كنت أنا من أُؤدي له المعروف، كما هو معتاد.

- وهل ذهبتما حيث المرآة.

- ذهبنا إلى المرآة، في مخاطرة من جانبي، لأنك تعرف ماذا كان سيلحق بى إذا ما تم ضبطي أسير إلى جانب سجين سياسي في الممر وفي منتصف الليل. ورغبة مني في جعله يشعر بالهدوء

أعطيته عقب سيجارة ليدخنه، وجعلنا ندخن لبرهة، ثم أطفأنا السجائر بأقدامنا وذهبنا إلى الممر بهدوء كامل، لم يكن الأمر ليصبح أسوأ مما هو عليه (هذه كذبة كان في الإمكان أن يصبح الوضع أسوأ كثيراً جدًّا من هذا)، شعرت باضطراب، وعلى أهبة الاستعداد لأى صوت يصدر أو باب يُقفل، وحين وقفنا أمام المرآة طلبت منه أن ينظر إلى نفسه، فنظر، ورأى وجهه، حتى أنه مرر يده على شعره ودفعه للخلف، وكان طويلًا جدًّا، حسنًا وفقًا لما كان موضة عام ١٩٧٣، ثم انتزع عينيه من المرآة بعد أن تطلع لوجهه لبرهة، ثم خفض بصره ناظرًا للأرض.

- وماذا بعد؟

- قلت له: ماذا أهذا أنت أم لا؟ فنظر بدوره إليَّ وقال: إنه شخص آخر، لا فائدة من ذلك شعرت بداخلي بانقباض عضلي أو عصبي، أقسم لك، ودفعت نفسي إلى الابتسام، ولكن العضلات أبت، حاولت أن ابتسم وافتعلت حركة في وجهي ما بين العين والخد، وقد لاحظ ذلك، وجعل ينظر إليَّ، فيما مررت بيدي على وجهي وابتلعت ريقي لأنني شعرت بالخوف.

- حسنًا، ها نحن نقترب.

- وحينئذ خطرت ببالي الفكرة. فقلت له: انظر، سوف أنظر إلى نفسي في المرآة، وفي الوقت نفسه انظر أنت أيضًا إلى في المرآة، سترى صورتي وستعرف أنني الشخص نفسه،

ستلاحظ عندها أنه لن يحدث أي شيء، وأن الخطأ في المرآة لأنها قذرة، في هذا المكان القذر، وهذا الممر بإضاءته السيئة. لم يقل شيئًا ولكنني اعتبرت سكوته موافقة، أدرت عنقي ونظرت إلى المرآة وأغلقت عيني.

- بدأت تظهر الأضواء، أعتقد أننا وصلنا، هدىء سرعتك.

- ألاَ تسمعني، أم أنك تتصنع الصمم؟

- بالطبع أنصت إليك، لقد أغلقت عينيك.

- وقفت أمام المرآة وأغمضت عيني. ثم فتحتها. أعتقد أنك تتقبل فكرة أن تقف أمام المرآة مغلقًا عينيك.

- إنني لا أتقبل أي شيء.

- بعد ذلك فتحتهما فجأة عن آخرهما، ورأيت شخصًا مفتوح العينين، تبدو عليه أقصى ملامح الرعب، وخلف هذا الشخص رأيت شخصًا في قرابة العشرين من عمره، ولكنه يبدو أكبر بمقدار عشر سنوات، لحيته طويله وتحيط عينيه هالتان ونحيف جدًا. كان ينظر إلينا من أعلي الكتف، الحق أنني لم أتيقن، رأيت أشكالًا متداخلة وكأن المرآة مكسورة، بالرغم من تأكدي من أنها غير مكسورة، عندئذ قال لي بيلانو بصوت منخفض للغاية وأعلى من الهمـــــس بقليـــــل: اسمـــع يا كونتريراس، هل توجد غرفة خلف هذا الجدار؟

- يا للعهر، ما هذا !

- وعند سماعي لصوته شعرت أنني استيقظت من غفوة، وفقدت الإحساس بالاتجاه، حتى أن صوتي أدهشني.

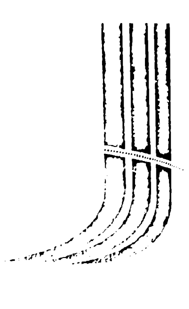
- قلت له: لا، وفقًا لما أعلم فإنه لا يوجد في الخلف إلَّا الفناء. سألني: الفناء الذي تقع به الزنزانات. أجبته موافقًا. حيث المساجين ذوي الحالات المتشابهة. ثم قال لي ابن العاهرة: الآن أفهم. وبقيت لا أفهم شيئًا، وقلت له أخبرني، ما الذي تفهمه، فهذا هو ما خطر ببالي وقتها. ولكنني همست بصوت منخفض، ولم يتمكن من سماعي، وكانت قواي قد خارت بالفعل ولم أتمكن من تكرار السؤال. وعاودت النظر إلى المرآة، فرأيت اثنين من زملائنا القدامى، أحدهما برابطة عنق مفكوكة، والآخر قذر وشعره طويل، وكذلك لحيته، ونحيف للغاية كأنه عظم، وقال لي: يا للهول، لقد رأينا الرعب يا كونتريراس، رأينا الرعب.

بعد ذلك أمسكت بـ بيلانو من كتفيه وأعدته إلى صالة الرياضة. حينئذ خطر ببالي أن أجذب سلاحي وأطلق عليه النار هناك، كان ذلك سهلًا، لم يكن ينقصني إلَّا أن أصوب جيدًا وأطلق النار على رأسه، كنت أجيد التصويب حتى في الظلام.

وبعدها كنت قادرًا على أن أقدم أي تفسير. ولكنني بالطبع لم أفعل ذلك.

- بالطبع لم تفعل ذلك. نحن لا نفعل هذه الأشياء.

- لا، نحن لا نفعل هذه الأشياء.



حيــاة
آن مــور

ناضل والد «آن مور» من أجل الديمقراطية خلال عمله على متن أحد المراكب المجهزة كمستشفى في المحيط الهادى، منذ ١٩٤٢، وحتى ١٩٤٥.

وولدت ابنته الكبرى «سوزان» بينما كان هو على مركب في جزر الفلبين، قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل. ثم عاد إلى شيكاغو عام ١٩٤٨، نفس العام الذي ولدت فيه «آن». إلا أن شيكاغو لم ترق للدكتور «مور» فانتقل بعد سنوات مع عائلته إلى «جريت فالز» في ولاية «مونتانا».

وهناك ترعرت «آن» وقضت طفولتها الهادئة، والتي لا تخلو من غربة، وفي عام ١٩٥٨ حين بلغت العاشرة من عمرها، شاهدت وجه الفحم، وجه الأرض الكربوني الملطخ (كما كانت تحب أن تسميه، بشكل غير واضح) هكذا رأت حقيقته.

وكان لشقيقتها صديق يدعى «فريد» في الخامسة عشرة من عمره. ذهب فريد ذات يوم إلى منزل عائلة «مور»، وقال إن والديه قد سافرا. وانتقدت والدة «آن» ترك صبي مراهق مثله بمفرده في المنزل. فيما رد والد «آن» بأن فريد شاب وقادر على الاعتناء بنفسه، تناول فريد عشاءه ذاك اليوم مع عائلة مور، ثم بقي في فناء المنزل يتحدث مع «سوزان» و«آن» إلى العاشرة مساء، فيما خلد إلى النوم دكتور مور.

وفي اليوم التالي تجولت سوزان وآن في المنتزه العمومي في سيارة والدي فريد. ووفقًا لما روته لي آن، فإن حالة فريد المزاجية كانت مختلفة تمامًا عن اليوم السابق. بدا منغلقًا على نفسه تمامًا، ولم يقل سوى كلمات قليلة من مقطع واحد. وبدا أنه تشاجر مع سوزان.

ظلوا في السيارة لفترة دون أن يفعلوا أي شيء، فريد وسوزان في المقعدين الأماميين، وآن في المقعد الخلفي. ثم اقترح فريد أن يذهبوا إلى منزله، لم تجب سوزان، وانطلق فريد بالسيارة وظلوا يتجولون بالسيارة في أحد الأحياء الفقيرة الذي لا تعرفه آن، فبدا وكأن فريد قد ضل الطريق، أو ربما لم يرغب في أن تعرف الفتاتان مكان منزله. وتذكر آن أن سوزان لم تنظر إلى فريد نظرة واحدة، وأنها طوال الطريق نظرت عبر النافذة إلى الطريق، وكأن المنازل والشوارع التي يمرون بها تمثل عرضًا ما. وبالمثل فريد، ركز نظره أمامه ولم ينظر مرة واحدة إليها، ولم يتبادلا كلمة واحدة، أو حتى ينظرا

إلى آن، ولكن الفتاة ذات السنوات العشر كانت قادرة على إدراك التألق بعيني فريد، الذي ظل يتأملها من المرآة الخلفية.

وحين وصلوا إلى منزل فريد لم ينزل فريد أو سوزان من السيارة، حتى أن فريد أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف، وليس في الجراج، وهو ما أشار إلى وضع مؤقت وأن الموقف سيقطعه شيء ما. وكأنه بتوقيف السيارة على هذا النحو سيمنح وقتًا إضافيًا لنا ولنفسه من أجل التفكير، وفقًا لما تذكرته «آن».

وبعد ذلك (بالرغم من أن «آن» لم تتذكر الموقف الذي مضى على وجه التحديد)، نزلت سوزان من السيارة، وأمرت شقيقتها بالنزول، أمسكت بيدها وذهبت دون تحية.

وبعد عدة أمتار، التفتت آن إلى الخلف وشاهدت فريد جالسًا في السيارة ويده على المقود، وكأنه لازال يقود السيارة. ناظرًا إلى الأمام.

وقالت آن، إنه ربما كان قد أغلق عينيه أو فتحهما جزئيًا أو كان يبكي فيما ينظر أسفل قدميه.

رجعنا سيراً على الأقدام إلى المنزل، ولم تجب سوزان عن سؤال واحد من الأسئلة التي وجهتها لها «آن».

لم تندهش آن حين رأت فريد مساء ذاك اليوم في حديقة منزلها. وفي أوقات أخرى كانت شاهدًا على خلافات بينه وبين شقيقتها الكبرى ولم تكن تستمر فترات طويلة. ولكن فريد لم يظهر السبت أو الأحد، ولم يذهب إلى المدرسة، كما ستصرح سوزان فيما بعد.

وألقت الشرطة القبض عليه يوم الأربعاء التالي لأنه كان يقود وهو مخمور بمنطقة «جريت فالز». وبعد التحقيق معه ذهبت الشرطة إلى منزله وعثرت على أبويه مقتولين. الأم بالحمام والأب في الجراج. وكان جسد أبيه ملفوفًا ببطاطين وورق كرتون، وكأن غريد كان على وشك التخلص منه في الأيام التالية.

وبسبب هذه الواقعة أنغلقت سوزان على نفسها لفترة طويلة، وظلت تتردد على أطباء نفسيين.

على العكس من «آن» التي واصلت حياتها على المنوال نفسه، بالرغم من أن الحدث أو شبح الحدث عاد وظهر مجددًا في حياتها بشكل متقطع. ولكنها لم تحلم بفريد، وإذا ما راودها الإحساس، كانت تتعمد أن تنساه فور أن تستيقظ.

ذهبت «آن» للدراسة في «سان فرانسيسكو» حين بلغت ١٦ عامًا، وهو ما فعلته سوزان قبلها بعامين، التي درست الطب بجامعة «بيركلي»، وشاركت طالبتين أخريين شقة في «أوكلاند» بالقرب من «سان لياندرو»، وكانت تكتب من حين إلى آخر إلى والديها. حين وصلت «آن» وجدت صديقتها في حالة يرثى لها. سوزان لم تذاكر دروسها، وكانت تظل مستيقظة طوال الليل، وتنام أثناء النهار.

سجلت «آن» الدراسة في قسم اللغة الإنجليزية، وترددت على دروس لتعلم الرسم التعبيري. وكانت تعمل مساء في إحدى الكافتريات في بيركلي، وفي الأيام الأولى كانت تنام

في حجرة شقيقتها. والحقيقة أنها أرادت أن تبقي هناك دائماً.

لأن سوزان اعتادت أن تنام بالنهار في الوقت الذي تكون فيه «آن» في الجامعة، ونادرًا ما كانت تظهر ليلاً في المنزل، حتى أن «آن» لم تضطر لوضع فراش آخر لها في الحجرة. وبانتهاء الشهر، غادرت «آن» لتعيش في شارع «هاكيت» في بيركلي، بالقرب من عملها، ولم تعد ترى شقيقتها بالرغم من أنها كانت تحادثها تليفونيًا من وقت إلى آخر (وتتذكر آن، أن الفتاتين الآخريين كانتا تجيبانها دائمًا)، لتتأكد ما إذا كانت في حاجة إلى شيء ما، أو لتخبرها عن جريت فالز.

وفي المرات القليلة التي نجحت في الحديث إلى سوزان كانت مخمورة. وأخبروها ذات مرة أن سوزان لم تعد تعيش هناك.

وواصلت «آن» البحث عنها لمدة أسبوعين متتاليين في بيركلي، ولكنها لم تجدها. ثم اتصلت بأسرتها في جريت فالز، وكانت سوزان هي من أجابتها على الهاتف، شعرت آن بدهشة كبيرة، وخيبة أمل، وأنها قد خُدعت.

هجرت سوزان دراستها وأرادت أن تعيش في مدينة هادئة ومحترمة، هذا هو ما أخبرتها به، فأجابتها «آن» بأن أي شيء تفعله سيكون فيه صالحها، على الرغم من ذلك أحست أن شقيقتها في وضع صعب، وأنها ألقت بجانب كبير من حياتها أدراج الرياح.

تعرفت «آن» بعد ذلك على «بول»، وهو رسام حفيد لعائلة

يهودية روسية تعتنق المذهب الفوضوي، وذهبت لتعيش معه.

منزل بول مكون من طابقين، في الأول استوديو تتكوم فيه لوحات متعددة بدأها ولم ينهها، وفي الطابق الثاني حجرة معيشة كبيرة ومطبخ وحمام صغيران.

بالطبع لم يكن بول هو الشخص الأول الذي تمارس «آن» الحب معه، ولكنها تعرفت على زميلها في دروس الرسم، وكان هو الذي عرفها على «بول»، وفي «جريت فالز» تعرفت على لاعب كرة سلة، وشاب آخر يعمل في مخبز أبيه.

الشاب كان ينتمي إلى عائلة «رايموند» وهي تتوارث هذه المهنة جيلًا بعد جيل دون انقطاع، ورايموند كان يدرس ويعمل في الوقت نفسه، ولكنه قرر أن يمارس عمله في المخبز بدوام كامل.

ووفقًا لما تقوله «آن»، فإنه لم يكن طالبًا متميزًا، ولكنه لم يكن سيئًا. وكل ما تذكره عن «رايموند» في تلك السنوات هو افتخاره الشديد بمهنته ومهنة آبائه، وذلك لإقامته في منطقة اعتاد قاطنوها الافتخار بأشياء كثيرة، ولكن ليس بمهنة الفران على أية حال.

تميزت العلاقة بين «آن» و«بول» بخصوصية شديدة، وكانت في السابعة عشرة من عمرها حينذاك، وحين أكملت الثامنة عشرة، كان «بول» في السادسة والعشرين.

عانيا مشاكل في علاقتهما الجنسية منذ اليوم الأول. بول كان يعاني حالة من العجز في فصل الصيف، وسرعة في القذف

في فصل الخريف، ولم يهتم للموضوع في فصل الربيع.

هذا ما تقوله عنه «آن»، وإن لم تكف عن الإشارة إلى ذكائه الشديد الذي لم تصادف مثله أبدًا حتى ذاك الحين.

كان بول موسوعي المعرفة، يعرف عن الرسم وتاريخ الفن. والأدب والموسيقى، أحيانًا كان يصعب تحمله. فيعتكف في استوديو الرسم، ويواصل العمل في لوحاته بشكل متصل. وحينها يصعب تحمله.

وبعد ذلك يعود إلى شخصيته الأصلية كإنسان مرح وساحر ولبق وحنون، فيصحب آن إلى المسارح ودور العرض والندوات الفنية، والحفلات الموسيقية التي كانت متاحة في بيركلي في ذاك الوقت، فيما يبدو كان إعدادًا للمواطنين لما سيرونه في السنوات التالية الفاصلة. تمكنا من العيش في البداية على ما كانت تكسبه «آن» من عملها في الكافيتريا، والمنحة الدراسية التي حظي بها بول.

على الرغم من ذلك قررا أن يسافرا إلى المكسيك، وتركت «آن» عملها، سافرا إلى مدينة «تيخوانا» بمقاطعة إيرموسيو وجواياماس، وكوليكان، وماثالثان فتوقفا هناك واستأجرا منزلًا صغيرًا بالقرب من الشاطئ، فكانا يسبحان يوميًا، ثم يكرس بول وقته للرسم، فيما تكرس آن وقتها للقراءة، وفي الليل يذهبان إلى بار «الضفدع الأمريكي» الوحيد الموجود والذي يرتاده السائحون، فيشربان في صمت حتى الساعات

الأولى من صباح اليوم التالي. اعتادا ابتياع الماريجوانا في البار من شاب مكسيكي نحيف، وأبيض البشرة، ولم يسمحا له بدخول البار، فكان ينتظر زبائنه في سيارة تتوقف أمام البار، إلى جوار شجرة جافة، حيث لا يوجد أي مبنى، فقط الظلام، والشاطئ والبحر.

الشاب المكسيكي النحيف كان يدعى «روبين»، وكان يبادل «الماريجوانا» أحيانًا بشرائط الموسيقى التي كان يسمعها في كاسيت السيارة. وأصبحا صديقين على الفور. وذات يوم زارهما بمنزلهما، وطلب منه بول أن يقف متخذًا وضعًا معينًا ليقوم برسمه.

وأصبح يقضي الليل بالكامل في منزلهما ولا يغادر تقريبًا، كما أصبحا يحصلان على الماريجوانا دون مقابل، فشعرت «آن» بالضيق لأنها أصبحت تطهو لشخصين بدلًا من شخص واحد، كما شعرت أنه يهدد الخصوصية التي حلمت بها خلال إقامتها مع صديقها في الجنة حتى أنها أعدتها ليعيشا بها.

في البداية «روبين» كان يتحدث مع بول فقط، وبدا أنه شعر بأنه شخص غير مرغوب فيه بالنسبة لـ «آن»، ولكنهما أصبحا صديقين بمرور الوقت.

كان يتحدث الإنجليزية بطريقة ركيكة، فيما مارس معه بول وآن لغتهما الإسبانية البسيطة. وذات يوم بينما يسبحان شعرت آن أن روبين لمس ساقها. تحت الماء، بينما جلس بول على الشاطئ يراقبهما وحين خرجا من الماء، أخبرها روبين أنه مغرم بها.

عرفوا ذاك اليوم أن أحد الشباب الذين تعرفوا عليه في بار «الضفدع»، وتحدثوا معه في مناسبتين لقى حتفه غرقًا.

بعد ذلك بقليل عادا إلى سان فرانسيسكو وكانت حقبة جيدة لـ بول. أقام معرضين وباع بعض لوحات، وترسخت علاقته بـ آن بشكل أفضل عما كانت عليه.

وفي نهاية العام سافرا إلى «جريت فالز» وقضيا رأس السنة في منزل والديّ آن. لم يعجب «بول» بوالديّ «آن» على العكس من سوزان التي توطدت بينهما الصداقة.

ذات يوم استيقظت آن، ولم تعثر على بول إلى جوارها.

فخرجت لتبحث عنه وسمعت أصواتًا في المطبخ، حين نزلت، وجدت بول وسوزان يتحدثان عن فريد. ظل بول يستمع ويوجه الأسئلة إلى سوزان التي كانت تحكي تفاصيل يومها الأخير مع فريد، ولكن من زوايا جديدة ومختلفة، بينما كانا يتجولان معًا في أسوأ أحياء «جريت فالز».

شعرت «آن» أن الحوار الدائر بين شقيقتها وصديقها بدا زائفًا وأنهما يدوران حول موضوع مثل الفيلم السينمائي، ولا يهتمان بما حدث في الواقع.

في العام التالي، هجرت «آن» الجامعة، وأصبحت رفيقة «بول» الدائمة، كانت تشتري له أقماش التلوين والبراويز الخشبية، وتعد الغداء والعشاء، وتغسل الملابس، وتكنس وتنظف الأرضية، وتغسل الأطباق، وبذلت كل جهدها لتوفر

ـ بول الحياة الهادئة من أجل التفرغ لإبداعه. على الرغم من ذلك فإن حياتها كصديقة له لم تكن مرضية، فعلاقتهما الجنسية كانت تسير من سيء إلى أسوأ.

لم تشعر معه في الفراش بأى تجاوب ففكرت أنها مثلية الميول. تعرفا في هذه الحقبة على «ليندا» و«مارك». كانت ليندا تمارس نشاط روبين نفسه، فتبيع الماريجوانا، وأحيانًا تكتب قصصًا للأطفال لا ترغب أية دار نشر في قبولها. وكان مارك شاعرًا، أو هذا هو ما كانت تقوله «ليندا».

اعتاد مارك قضاء الوقت كله في المنزل. يستمع إلى الراديو أو يشاهد التليفزيون، أحيانًا كان يخرج في الصباح لشراء الجرائد، ثم يذهب إلى الجامعة ليقابل أصدقاءه أو يحضر بعض محاضرات الشعراء المعروفين في جامعة بيركلي.

إلَّا أن بقية وقته، كما ذكرت «آن»، كان يقضيه في منزله أو في غرفته إذا كان لدى ليندا بعض الأصدقاء، فيسمع الراديو ويشاهد التليفزيون منتظرًا انفجار الحرب العالمية الثالثة، وعلى عكس ما توقعت «آن»، تراجع نشاط بول الفني، وحدث كل شيء بسرعة غير منتظرة.

فَقَدَ منحته الدراسية، وكف أصحاب المعارض في سان فرانسيسكو عن الاهتمام بأعماله، فترك الرسم، واتجه إلى دراسة الأدب. وفي المساء، اعتاد بول وآن أن يذهبا لمنزل ليندا ومارك، يقضون ساعات طويلة يتحدثون عن حرب فيتنام وعن رحلات السفر.

وعلى الرغم من أن الصداقة لم تجد طريقها أبدًا بين بول ومارك، لكنهما كانا يقضيان وقتًا طويلاً يقرآن الشعر (وبدأ بول في ذاك الحين في كتابة قصائد على غرار الشاعرين ويليام كارلوس وكينيث ريكسروس، وكان قد استمع إليهما في لقاء شعري في بالوآلتو) بينما يحتسيان الشراب.

على العكس من ذلك، توطدت الصداقة بشكل تلقائي بين آن وليندا، بالرغم من أنه لا قاسم أساسيًا يجمع بينهما. أعجبت آن بصفات بعينها في ليندا مثل الثقة بالنفس، واحتقار بعض القواعد المتعارف عليها، مقابل احترامها لأخرى، فضلاً عن طريقتها الانتقائية في ممارسة حياتها.

وانتهت علاقة ليندا بـ مارك فور حملها. انتقلت لتعيش في شقة بمفردها في «دونالدسون»، وكانت تعمل بنظام اليوم، ثم بالساعات (لا تتذكر آن جيدًا)، وذلك قبل موعد ولادتها.

وظل مارك في الشقة نفسها، ولكن عزلته زادت بشكل ملحوظ. في البداية، تردد بول على منزل مارك لزيارته، ولكنه كف عن ذلك حين أيقن أنه لا يوجد بينهما ما يستحق تبادل الحديث.

ولكن آن واصلت علاقتها الحميمة بليندا، وأصبحت تبيت في منزلها أحيانًا في عطلة نهاية الأسبوع، حين تضطر ليندا لاستقبال الزبائن، فتتطوع آن لرعاية الطفل والبقاء معه.

ثم عاد بول وآن إلى «ماثالتان» في المكسيك مرة أخرى، بعد عام من زيارتهما الأولى. وكانت الرحلة مختلفة هذه المرة،

أرادا أن يستأجرا المنزل المطل على البحر مرة أخرى، ولكنه كان مشغولًا، فاستأجرا بيتًا آخر على بعد ثلاثة بنايات منه. ومرضت آن فور وصولهما، أصيبت بإسهال حاد وحمى، فلزمت الفراش وكانت غير قادرة على تركه.

بَقي بول في المنزل اليوم الأول لرعايتها، ثم اختفى ساعات ولم يحضر ليبيت في المنزل.

إلَّا أن «روبين» حضر لزيارتها، وشعرت في البداية أنها تكرهه. وفي الليلة الثالثة ظهر بالمنزل في الثانية صباحًا ليعتني بها.

واصلا الحديث حتى الخامسة صباحًا ثم مارسا الحب.

شعرت آن بإعياء وبأن بول ظل يراقبها من الباب المفتوح أو إحدى النوافذ، ولكنها قالت إنها نسيت كل شيء إزاء عذوبة روبين وطول علاقتهما.

حين ظهر بول اليوم التالي، قصت عليه آن كل شيء، فقال بول: هراء.

ثم صمت ولم يضف كلمة أخرى، ثم حاول أن يكتب في دفتره الأسود، الذي لم يسمح أبدًا لـ «آن» أن تقرأ فيه، ثم ذهب إلى الشاطئ وظل يحتسي الشراب.

كان يخرج في بعض الأمسيات مع «روبين» وكأن شيئًا لم يحدث، وأحيانًا كان يمكث في المنزل ويحاولان أن يمارسا الحب، ولكن النهاية كانت فاشلة دائمًا.

وعاودت علاقتها بروبين، مرة على الشاطئ، وآخرى في حجرتها، بينما بول نائم على الأريكة في الصالة. بعد انقضاء أيام، لاحظت «آن» أن روبين يشعر بالغيرة من بول، وذلك حين يجتمع ثلاثتهم، أو تنفرد آن معه، في حين كان روبين وبول يعتادان التردد على الحانات معًا مساء، وتتذكر «آن» أنهما كانا يبدوان مثل أخوين.

وفي يوم رحيلهما قررت آن البقاء في المكسيك.

تفهم بول الأمر ولم يقل شيئًا. كان الوداع حزينًا.

ساعدت «آن» وروبين بول في إعداد حقائبه ووضعها في السيارة، ثم منحاه بعض الهدايا، أعطته «آن» كتابًا قديمًا للصور، و«روبين» زجاجة من التيكيلا.

لم تكن بحوزة بول هدايا لهم، ولكنه اقتسم النقود التي تبقت معه مع «آن».

وبعد أن أصبحا بمفرديهما، لزما المنزل لمدة ثلاثة أيام متواصلة يمارسان الحب.

بعد أيام نفدت أموال «آن»، وعاد روبين لبيع المخدرات أمام حانة «الضفدع». ثم تركت آن المنزل وذهبت لتقيم مع روبين في أحد أحياء المدينة المطلة على البحر.

البيت تملكه جدة روبين التي كانت تعيش مع ابنها الأكبر، وهو صياد عازب في الأربعين من عمره، ومع حفيدها، تحولت الأمور بسرعة. لم ترض جدة روبين بأن تسير آن في المنزل

بملابس فاضحة، وذات يوم اقتحم عم روبين الحمام، فيما كانت آن بالداخل، وعرض عليها ممارسة الحب معه مقابل المال، رفضت آن العرض بالطبع، ولكن ليس بالحزم الكافي (تنكر آن أنها لم ترغب في إهانته)، ولكنه عاد وكرر ما فعل في اليوم التالي وعرض عليها المال مرة ثانية.

وحكت كل شيء لروبين دون أن تدرك ما الذي سيعقب تصرفها. استل روبين سكينًا من المطبخ وهاجم عمه في محاوله لقتله. قالت «آن»، إن الصراخ كان عاليًا بما يكفي لإيقاظ الجيران بأكملهم، ولكن لم يبد أن أحدًا قد تنبه. لحسن الحظ، كان عم «روبين» أكثر ضكة وقوة منه، فتمكن من السيطرة عليه. إلّا أن روبين لم يفقد الرغبة في الاقتتال وصوب وعاءً فخاريًا نحو رأسه. تفادى العم الضربة في الوقت نفسه الذي خرجت فيه الجدة من الحجرة، مرتدية رداء نوم لونه أحمر صارخ لم تر آن مثله في حياتها، ولسوء الحظ أصاب الوعاء الفخاري صدرها.

فضرب العم روبين ضربًا مبرحًا، ثم حمل أمه إلى المستشفى، وحين رجعا إلى المنزل، دخلا إلى الحجرة التي ينام فيها روبين وآن، وطلبا منهما أن يغادرا المنزل في غضون ساعتين.

كان جسد روبين مليئًا بالكدمات والسجحات، وغير قادر على الحركة تقريبًا، ولكن رعبه من عمه كان كبيرًا، فجمعا أغراضهما وانطلقا بالسيارة في أقل من ساعتين، كان لدى روبين أقارب في «جوادالاخار»، فذهبا إلى هناك، لم يتمكنا من البقاء هناك أكثر من أربعة أيام فقط.

قضيا الليلة الأولى في منزل شقيقة روبين، منزل يرتع فيه أطفال كثيرون، منزل صغير ومزعج وحرارته قاتلة.

تشاركا الحجرة مع ثلاثة أطفال، ثم قررت «آن» المكوث في بنسيون في اليوم التالي.

لم يكن معها نقود، ولكن روبين كان بحوزته بعض الماريجوانا والأقــراص المخدرة التي قرر أن يبيعها في «جوادالاخار»، باءت محاولته الأولى بالفشل، فلم يكن يعرف المكان جيدًا، وبالمثل أماكن تسويق هذه المواد، فعاد إلى البنسيون متعبًا وبلا نقود.

ظلا يتناقشان حتى ساعة متأخرة، وفي لحظة يأس، سأل روبين «آن» عما سيفعلان للحصول على المال ودفع إيجار البنسيون ووقود السيارة، فقالت آن (ساخرة بالطبع)، إن بإمكانها ممارسة الرذيلة مقابل المال. فلم يفهم روبين الدعابة وعاجلها بصفعة. كانت المرة الأولى التي يصفعها رجل، ثم قال لها إنه قد يسرق بنكًا قبل أن يحدث هذا، وارتمى فوقها. كان هذا الموقف أحد أسوأ المواقف التي مرت بها آن.

وبدت جدران الحجرة وكأنها مصنوعة من اللحم الحي، لحم نيء، ولحم مطهو، بلا فرق. وبينما يواقعها شاهدت أشياء تجري على الجدران، وكأنها في أحد أفلام الرعب لـ «جون كاربنتر»، بالرغم من أنني لا أتذكر أي فيلم لـ كاربنتر بهذه المواصفات.

وفي اليوم التالي نجح روبين في بيع المخدرات المتبقية معه. وذهبا إلى العاصمة. عاشا في منزل والدة روبين، بالقرب من منطقة «لابيا»، تقريبًا في المنطقة نفسها التي أعيش بها.

قلت لـ آن بعد ذلك بفترة طويلة، إنني لو كنت التقيت بها لوقعت في غرامها.

فأجابت آن: ومن يعرف.

ثم أضافت: لو كنت أنا نفسي مراهقًا لما أعجبت بفتاة على شاكلتي.

لفترة ما، ربما شهرين أو ثلاثة - اعتقدت آن أنها مغرمة بـ روبين، وأنها ستعيش معه في المكسيك إلى الأبد، ولكنها اتصلت بوالديها ذات يوم، وطلبت منهما أن يمداها بالمال وتذكرة طائرة، ثم ودعت روبين وعادت إلى سان فرانسيسكو، وأقامت مع ليندا إلى أن حصلت على عمل كنادلة. وفي بعض الأوقات لدى عودة آن، تكون ليندا متيقظة وتتبادلان الحديث إلى وقت متأخر. أحيانًا تتكلمان عن بول ومارك.

يعيش بول بمفرده، وقد عاد ليمارس الرسم ولكن بشكل محدود، وليس مثل الماضي، ودون أدنى أمل في عرض لوحاته.

وبحسب «ليندا» فإن لوحات بول سيئة للغاية. وواصل مارك عزلته في حجرته، يستمع إلى الراديو ويشاهد الأنباء في التليفزيون، ولم يعد لديه أصدقاء.

وتتذكر آن، أنه بعد ذلك بسنوات، نشر مارك ديوان شعر،

حاز إعجابًا ملحوظًا بين طلاب بيركلي، وعقدت أمسيات شعرية له، وشارك في ندوات.

وبدا أنه الوقت الملائم ليتعرف على فتاة ما ويعاود الحياة مع إحداهن، ولكن فور انتهاء الجلبة، عاد إلى عزلته، ولم ترد عنه أية اخبار أخرى.

ثم تعرفت ليندا على شاب يدعى «لاري»، وأصبحا يعيشان معًا، واستأجرت آن شقة صغيرة في بيركلي، بالقرب من الكافيتريا التي تعمل بها. بدا من على السطح أن الأمور تمضي على ما يرام، إلَّا أن آن كانت على وشك الانفجار، شعرت بذلك في أحلامها، التي أصبحت أكثر غرابة يومًا بعد يوم، وفي مزاجها وحالتها التي أضحت تميل نحو الحزن بشكل كبير، كما أصبحت أكثر عرضه للعصبية. في تلك الأثناء كانت تخرج مع شابين، إلَّا أن التجربة كانت محبطة للغاية.

في بعض الأحيان كانت تذهب لزيارة بول، ولكنها قطعت العلاقات، لأن الزيارة تبدأ جيدة ثم لا تلبث أن تتحول إلى العنف (اعتاد بول أن يحطم لوحاته)، أو تنتهي بموجة من البكاء، أو بتوجيه العتاب وجلد الذات، والحزن المطبق. وأحيانا تتذكر روبين، وتسخر من سذاجتها في ذاك الوقت، ثم تعرفت بعد ذلك على شاب يدعى «تشارلز» وتحابا.

تشارلز كان على العكس تمامًا من بول، على الرغم من أنهما في النهاية متطابقان. كان تشارلز أسود، وبلا موارد من أي

نوع، يحب الحديث والاستماع للآخرين، أحيانًا كان يقضي الليل بطوله يتحدث ويمارس الحب، ويتحدث عن طفولته ومراهقته، وكأنه ينبىء عن شيء خطير مر به في طفولته وحاول تجاوزه.

على العكس منه بدت آن، التي تحب الحديث عن الحاضر وما يحدث، وعن مخاوفها مما قد يحدث لها يومًا ما، وتتذكر أن علاقتها به في الفراش كانت كالعادة، غير مرضية. في البداية جرت الأمور على نحو طيب، ربما لأنها كانت البداية، وبعد ذلك جرت الأمور كعادتها.

وحينئذ ارتكبت آن خطأ تاريخيًّا، اذ أخبرت تشارلز بشعورها بشأن علاقتهما، وعما شعرت به مع جميع الرجال بما فيهم هو نفسه. لم يعرف تشارلز في البداية بما يجيب، وبمرور عدة أيام لم تنجح في الوصول إلى أية نتيجة إيجابية أو فائدة ما.

استغرقت آن وقتًا لتفهم أن الحل الذي قدمه لها تشارلز هو أن تعمل بالبغاء، على الأرجح أنها قبلت بسبب الحنان الذي احتواها به تشارلز في تلك الأيام. أو أنها تحمست للمرور بهذه التجربة، أو أنها اعتقدت أن ذلك من شأنه أن يزيد حماستها.

اشترى لها تشارلز فستانًا أحمر اللون، وحذاء بكعب عال من اللون نفسه، ثم اشترى مسدسًا، لأنه رأى أن قوادًا دون سلاح لا معنى له. لاحظت آن المسدس معه وهما في السيارة في طريقهما من بيركلي إلى سان فرانسيسكو، وذلك حين

فتحت أحد الأدراج للبحث عن سجائر أو ما شابه ورأته. وأكد لها تشارلز أنه ليس هناك ما يستدعي الخوف، لأنه أمان لها وله، ثم أشار لها تشارلز بمكان الفندق، واصطحبها في جولة، ثم تركها أمام إحدى الحانات التي يتردد عليها الراغبون في المتعة. وذهب تشارلز إلى حانة أخرى، ربما ليسري عن نفسه مع بعض الأصدقاء، بالرغم من أن «آن» طلبت منه أن يظل بقربها.

تتذكر «آن» أنها لم تشعر بمثل هذا الخزي طوال حياتها، وذلك حين دخلت الحانة، وجلست على البار، مدركة أنها توجد في هذا المكان لتتصيد زبونها الأول، وهي تعلم أن جميع من حولها يدركون ذلك. شعرت بالكراهية نحو الفستان الأحمر والحذاء الأحمر، وكرهت مسدس تشارلز، وكرهت الشعور الذي لمسته والذى غاب عنها. بالرغم من ذلك تمالكت نفسها وطلبت كأس مارتيني دوبل، استجمعت قوتها لتتحدث مع النادل. تبادلا الحديث بشأن الملل، وبدا أن النادل يفهم كثيراً في هذه التفاصيل، ثم اشترك معهما في الحديث شخص في الخمسين من عمره، يبدو مثل أبيها، ولكنه أكثر سمنة وأقل طولاً، ولم تتذكر آن اسمه أبدًا، فلنطلق عليه اسم جاك. دفع جاك كأس آن ثم دعاها إلى الخروج.

وحين أوشكت آن على النزول، اقترب منها النادل ليخبرها بشيء، اعتقدت آن أنه يريد مواصلة حديثه عن الملل وأنه سيسر إليها شيئًا في أذنها، ما حدث أنه اقترب منها من أقصى الطرف الآخر من البار، ونصحها بألّا تقترب من هذه الحانة مجددًا.

وحين عاد النادل إلى مكانه خلف البار، تبادلا نظرات ذات معنى، ثم أشارت له أن بالإيجاب على ما قاله. الرجل الخمسيني كان في انتظارها على الرصيف المقابل للحانة. فاستقلا السيارة وذهبا إلى الفندق الذي رأته مع تشارلز.

جعلت آن تتطلع إلى الطريق مثل السائحة، على أمل أن تلمح تشارلز عند مدخل أية بناية أو على رأس الطريق، ولكنها لم تجده وأدركت أنه لابد يحتسي الشراب في إحدى الحانات.

لقاؤها بالرجل شبيه أبيها كان قصيراً، ولدهشة آن لم يخل من رقة. وبعد رحيله استقلت آن تاكسي وعادت لمنزلها.

في ذاك اليوم أخبرت تشارلز أن كل شيء قد انتهى وأنها لا ترغب في معاودة رؤيته. كان تشارلز في عنفوان شبابه. تذكر آن، وربما أن جلَ رغبته كانت امتلاك عاهرة، إلَّا أنه تفهم الأمر بالرغم من أنه أوشك على البكاء. بعد ذلك بفترة، حين عاودت آن عملها كنادلة ليلية في إحدى الكافتيريات رأته مجددًا. ذهب مع بعض الأصدقاء وواصلوا السخرية منها. تضايقت آن بشدة من هذا الموقف، أكثر من ضيقها بخلافاتهما السابقة جميعًا.

ارتدى تشارلز ملابس رخيصة، ومعنى ذلك أنه لم يحقق شيئًا في عالم البغاء، ولكن آن لم تسأله عن ذلك.

تتذكر آن أن الأعوام التالية كانت أكثر حراكًا. أصبحت تعيش مع أصدقاء لها في عوامة تطل على بحيرة مارتيس، واسترجعت علاقتها بـ بول، والتحقت بفصل لدراسة الإبداع

الأدبي، وكانت تحادث أبويها في «جريت فالز» من وقت إلى آخر واعتاد أبواها زيارتها من وقت إلى آخر في سان فرانسيسكو وقضاء يومين أو ثلاثة معها.

تزوجت سوزان من صيدلي وتعيش في سياتل. وتخصص بول في بيع قطع غيار الحاسوب. وكانت آن تسأله أحيانًا عن سبب عزوفه عن الرسم وتدفعه له مرة ثانية، ولكنه كان يفضل عدم الإجابة.

وسافرت آن عدة مرات، ذهبت مرتين إلى المكسيك، ثم إلى «جواتيمالا» في رحلة مع أصدقاء في حافلة خاصة، فتم اعتقالهم يومًا كاملًا، وضرب شاب برفقتهم ضربًا مبرحًا.

كما سافرت إلى كندا خمس مرات بمنطقة فانكوفر، وبقيت في منزل صديقة لها، تكتب قصصًا للأطفال مثل «ليندا»، وترغب في الانعزال عن العالم. ولكنها ظلت تعود دائمًا إلى سان فرانسيسكو، وهناك تعرفت على توني.

كان توني من كوريا الجنوبية، ويعمل في أحد مشاغل صناعة الملابس، التي يشتغل بها أغلب من لا يملكون أوراقًا رسمية للبقاء في البلاد.

كان صديقًا لأحد أصدقاء «بول» أو «ليندا» أو الشخص يعمل معها في الكافتيريا في بيركلي، لم تعد آن تتذكر، فقط تذكر أنه كان حبًا من النظرة الأولى. كان توني رقيقًا وصادقًا، أول رجل صادق تتعرف عليه آن في حياتها، حتى أنه بعد

خروجهما من السينما عقب مشاهدة فيلم لـ «أنطونيوني».
وكانت المرة الأولى التي يرتادان فيها السينما معًا. أخبرها أنه لم يمارس الحب أبدًا من قبل. وفي لقائهما الأول. انبهرت أن بمعرفته لأسرار العلاقة الجنسية. ووجدته أفضل عشاقها من بين جميع من عرفتهم.

تزوجا بعد فترة قصيرة. بالرغم من أنها لم تفكر أبدًا في الزواج، ولكنها فعلت ذلك لتقنين وضع توني في البلاد.

ولكنهما لم يتزوجا في كاليفورنيا. وسافرا إلى تايوان. حيث بعض أقارب توني، وهناك احتفلا بالزواج. ثم توجه توني إلى كوريا لزيارة عائلته، فيما ذهبت آن لزيارة صديقة لها من أيام الجامعة، تعيش منذ سنوات طويلة بمدينة «مانيلا» في الفلبين، بعد أن تزوجت محاميًا فلبينيًا لامعًا.

بعد عودتهما إلى الولايات المتحدة استقرا في سياتيل. فكان لـ توني أقارب هناك ثم أسسا متجرًا لبيع الفواكه بالنقود التي ادخراها معًا والمبلغ الذي منحته عائلة توني له.

وتتذكر آن حياتها مع توني وتصفها بأنها كانت هادئة هدوءًا أفضى إلى الملل. ففي الوقت الذي كانت تموج الحياة حولهما بأحداث ومخاطر ومخاوف من تطهير جماعي، كانت تدخل هي وتوني جحرهما حيث الصفاء والهدوء.

دامت هذه الحال بشكل قصير.

بدأت تظهر نقاط مثيرة للاهتمام، كان توني مغرمًا بأفلام

البورنو، واعتاد الذهاب برفقة «آن»، التي لم تزر في حياتها هذا النوع من دور العرض. وصدمت آن بما يجري هناك، حيث يجلس الرجال إلى جوار رفيقاتهم، وغالبًا ما يشعرون بقمة الإثارة، فيفرغون متعتهم على أجساد هؤلاء الرفيقات في أماكن حساسة.

شعرت آن في المرات الأول بخزي شديد للتردد على مثل هذه الأماكن، وهو ما لم يدركه توني، الذي اعتبر هذه العروض قانونية، وعليه فلا يجب أن يشعر الفرد بالخجل. في النهاية رفضت آن مرافقته، فكان توني يتردد عليها بمفرده.

ونقطة أخرى أثارت اهتمام آن، وهي همة واجتهاد توني في العمل (كان نشيطًا إلى أبعد حد) لا يقارن بأى من عشاق آن الذين تعرفت عليهم. كل هذا بالإضافة لشيء آخر، لم يشعر توني بالغضب أبدًا، ولم يناقشها إطلاقًا وكأنه على يقين من أنه لن يستطيع مشاركة أي شخص آخر في وجهات نظره الخاصة ،وكأنه شخص خاسر، ولن يتمكن آخر مثله من إرشاده إلى الطريق الصحيح. وهذا الطريق لا يقتصر على الأمر فقط بل جهل الناس به، بل إنه حتى غير موجود في الأساس.

واستيقظت «آن» ذات صباح وتيقنت أنها لم تعد تحب توني، فغادرت سياتل.

عادت إلى سان فرانسيسكو، واستأنفت علاقتها بـ بول، كما تعرفت على رجال آخرين ومارست معهم الحب.

شعر توني بإحباط كبير، فأصبح يتصل بها تليفونيًا كل مساء، وشرحت له آن الأمر بكل بساطة، الأمور سارت على هذا النحو وانتهت علاقتهما، على الأرجح أن ما بينهما لم يكن حبًا من الأساس. استمر توني في الاتصال بـ آن لشهور متوالية، يستجديها السؤال عن سبب انفصالهما وتدمير الزواج.

ذات يوم اتصلت شقيقة بول بوالديها في جريت فالز، ولم تعرف ماذا عليها أن تفعل أكثر من ذلك ليعودا لبعضهما البعض.

اندهشت آن أمام هذا التصرف، وإن كانت استشعرت فيه شيئًا من الدفء والحنان. في نهاية المكالمة انفجرت شقيقة توني في البكاء، واعتذرت عن مكالمتها المتأخرة (كانت بعد منتصف الليل) ثم وضعت السماعة. بدوره سافر توني إلى سان فرانسيسكو مرتين، وحاول اقناعها بالرجوع.

واتصل بها عددًا لا نهائيًا من المكالمات، وفي النهاية بدا أنه تقبل الأمر، إلَّا أنه واصل الاتصال بها من وقت لآخر.

كان يحب الحديث عن رحلته إلى تايوان وعن زواجهما، والأشياء التي رأياها معًا، ثم كان يسألها عن الفلبين، وفي المقابل يقص عليها أشياء من كوريا الجنوبية. ثم يعبر أحيانًا عن ندمه لعدم مرافقتها في رحلة الفلبين، فتذكره بدورها أن تلك كانت رغبتها.

وحين سألته آن عن متجر الفاكهة وسير العمل به، كان يرد ردودًا مقتضبة ويغير الموضوع.

وذات مساء اتصلت بها شقيقة توني مرة أخرى، سمعت آن في بداية الحديث همهمة غير مفهومة ثم رفعت الفتاة صوتها وأخبرتها أن توني قد انتحر صباح ذاك اليوم، ثم سألتها عما إذا كانت ستحضر الجنازة دون أن تشوب صوتها أية نبرة حقد.

ردت «آن» بالإيجاب. وفي اليوم التالي سافرت بالطائرة إلى المكسيك، بدلًا من سياتل. كان تُوُفيٍّ في الثانية والعشرين من عمره.

وحين عادت آن إلى المكسيك العاصمة، تمكنت من رؤيتها مرة ثانية، فتعرفت عليها بشكل أكثر عمقًا، ووقعت في غرامها، بالرغم من تشككها في الأمر.

تتذكر آن، أنها كانت أيامًا مضطربة، وكأنها تعيش في داخل حلم، وبالرغم من كل شيء قامت بجولات سياحية، فزارت متاحف المدينة وأغلب آثار السكان الأصليين المنتشرة في المدن وميادينها.

حاولت البحث عن روبين، ولكنها لم تفلح، وبعد انقضاء شهرين طارت إلى سياتل وتوجهت إلى زيارة قبر توني. كادت تفقد الوعي عند المقبرة.

انقضت السنوات التالية بشكل أسرع. تعرفت على رجال كثيرين ومارست أشغالًا متعددة، تعرفت ذات مساء في كافيتيريا تعمل بها على الأخوين «رالف» و«بيل»، في تلك الليلة شاركتهما الفراش معًا، وحين كانت تمارس الحب مع رالف، كانت تنظر لعيني بيل، ثم نظرت إلى عيني رالف، بعد أن تبادلت الدور مع بيل. ظهر بيل بمفرده في اليوم التالي،

مارسا الحب في ذاك اليوم، ثم واصلا حديثًا بغير انقطاع.

بيل كان عامل بناء، متشائمًا وحزينًا، يتأمل العالم ببؤس، مثله مثل آن. كان الاثنان الشقيقان الأصغر في العائلة، وكلاهما ولد في عام ١٩٤٨، حتى أنهما يتشابهان في الملامح، لم يكتمل الشهر حتى قررا الانتقال للعيش معًا. في ذاك الحين تلقت آن رسالة من «سوزان» التي انفصلت عن زوجها وأصبحت تخضع لبرنامج تأهيلي للإقلاع عن الإدمان، وأخبرتها في الخطاب أنها تذهب إلى الجلسات المخصصة للمدمنين مرة أو مرتين، وأن تلك الجلسات مع هؤلاء الأشخاص غير المعروفين تفتح لها عالمًا جديدًا، فأرسلت إليها آن بطاقة من سان فرانسيسكو، وأخبرتها بأشياء لم تكن تشعر بها في قرارة نفسها، ولكنها حين انتهت من الكتابة فكرت في بيل وفي نفسها، معتقدة أنها عثرت على ضالتها أخيرًا، وشجعت شقيقتها في الخطاب على الاستمرار في جلساتها بنادي التأهيل للإقلاع عن الإدمان، لأنه بمثابة سند قوي ودعم تتشبث به، كما لا يمكنها أداء التمرينات الرياضية هناك.

الشيء الوحيد الذي ضايق آن هو شقيق رالف، كان يصل أحيانًا منتصف الليل مخمورًا، فينتزع بيل من الفراش ويواصل الحديث معه في تفاهات. كانا يتحدثان عن قرية داكوتا التي قضيا فيها مراهقتهما. ثم يتحدثان عن الموت وما بعد الموت، فيرى رالف أنه لن يتبع الموت أي شيء، فيما يخالفه بيل الرأي. ثم يواصلان التحدث عن حياة البشر، الدراسة والعمل والموت.

في بعض المناسبات النادرة كانت آن تتدخل في الحديث، وتضطر للاعتراف بإعجابها بذكاء رالف أو خبثه وقدرته على التقاط نقاط الضعف في حديث الآخرين. ولكنه منذ حاول ممارسة الحب معها ورفضها لذلك، غادر المنزل ولم يعاود الظهور.

وبعد ستة أشهر من الإقامة مع بيل، انطلق إلى سياتل، فعملت آن في شركة لتوزيع الأدوات الكهربائية المنزلية، واشتغل بيل كعامل بناء في مبنى من ثلاثين طابقًا يتم تشييده.

تحسنت أمورهما المادية للمرة الأولى وفكر بيل في ابتياع منزل والاستقرار في سياتل نهائيًا، ولكن آن فكرت في تأجيل الفكرة، فاستئجرا شقة في مبنى تعيش به ثلاث أسر فقط، يتشاركون في حديقة رائعة، تتذكر أن الحديقة بها شجرة بلوط وشجر خشب الزان والحوائط المكسوة بالنباتات المتسلقة.

كانت هذه هي السنوات الأكثر استقرارًا في حياتها في الولايات المتحدة، إلَّا أنها أصيبت بالمرض ذات يوم، وشخص الأطباء الحالة بأنها خطيرة. اعتل مزاجها بشدة في تلك الأيام، لم تعد تتحمل الحديث مع بيل وأصدقائه، حتى أنها لم تعد ترغب في رؤيته يعود يوميًا مرتديًا ملابس عمله كعامل بناء، بالمثل لم تعد تطيق عمله، فغادرته بعد أن جمعت ملابسها ووضعتها في حقيبتها وذهب إلى المطار، دون حجز مسبق، كل ما أرادته هو العودة إلى «جريت فالز»، إلى منزل عائلتها، لتتحدث مع أبيها الطبيب الذي سينصحها، ولكن بوصولها إلى المطار بدا لها الأمر كله مجرد احتيال.

مكثت خمس ساعات متواصلة جالسة في المطار، تفكر في حياتها ومرضها، فشعرت بمدى خوائها، وكأنه فيلم رعب تكتنفه الأفخاخ الناعمة، أو واحد من تلك الأفلام التي قد لا تثير الرعب، ولكنها تجبر المشاهد على الصراخ وغلق العيون. شعرت برغبة في البكاء، ولكنها لم تفعل.

قامت بنصف جولة ثم عادت إلى منزلها في سياتل منتظرة عودة بيل. عند ذاك قصت عليه كل ما حدث خلال يومها وطلبت منه المشورة، أجابها بيل بأنه عاجز عن فهم أي شيء، ولكنه يدعمها في أي قرار تتخذه، علي الرغم من ذلك، ساءت الأمور مجددًا بعد أسبوع واحد. احتسيا الخمر حتى فقدا وعيهما، ومارسا الحب، ثم خرجا بجولة في السيارة يتجولان في أحياء مجهولة، وهو ما جلب لها ذكريات تعسة.

تتذكر «آن» أنهما في تلك الليلة كان بمقدورهما التعرض للعديد من حوادث السير. وساءت الأمور على نحو أكبر في الأيام التالية. خضعت آن لعملية جراحية بعد أشهر، إلَّا أن النتيجة لم تكن إيجابية. تمت السيطرة على المرض بشكل ما، ولكن توجَّب على آن الخضوع لجلسات طبية مستمرة. بحسب ما قالته، فإن أي نشاط جديد للمرض قد يكون قاتلًا. خلال هذه الأشهر لم تخضع الأمور بينهما لقياس محدد، ولكنهما ذهبا لقضاء أعياد الميلاد لدى والديها بـ جريت فالز.

عاودت سوزان إدمانها مجددًا، وواصلت «ليندا» بيع المخدرات في سان فرانسيسكو، وأصبحت أمورها المادية

مستقرة، بعكس علاقاتها العاطفية. واشترى بول منزلًا ثم باعه بعد وقت قصير.

كانا يتحدثان تليفونيًا في بعض الأحيان وكأنهما غريبان، كل عن الآخر، ببرود شديد ودون التطرق إلى الموضوعات التي رأت أنها غاية في الأهمية.

وفي إحدى الليالي بينما تمارس الحب مع بيل اقترح عليها أن يحاولا إنجاب طفل. أجابت آن إجابة قصيرة وهادئة، ببساطة قالت: لا. لأنهـــا لا تزال في مقتبل شبابها، إلَّا أنها بداخلها كانت على وشك الصراخ، شعرت بالخط الفاصل بين الصراخ من عدمه، ذكرت آن بعد ذلك أن الأمر كان مثل أن تفتح عينيك في الكهف الأكثر إتساعًا على وجه الأرض.

في هذه الأثناء هاجم المرض آن مجددًا، واضطرت للخضوع لعملية جراحية ثانية. اختفت حماستها، وحماسة بيل، وأصبحا شبحين، الشيء الوحيد الذي مارسته آن بحب كان القراءة، كانت تقرأ كل ما يقع في يديها، خصوصًا الكتب التي تتناول الرواية والنقد في أمريكا الشمالية، بالإضافة إلى الشعر والكتب التاريخية.

لم تستطع النوم في الليل، فكانت تظل حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، ثم تنام على الأريكة في الصالة، غير قادرة على الدخول إلى الحجرة التي ينام بها بيل، وغير قادرة على مشاركته الفراش، لم تفعل ذلك بدافع الرفض، بل بدافع

الإحساس بالقرف، تتذكر «آن» أنها كانت تدخل إلى الحجرة، لتبقى برهة، فتنتظر إلى بيل وهو نائم، ولكنها تجد نفسها غير قادرة على الاستلقاء إلى جواره في سلام.

وبعد إجراء العملية الثانية، جمعت آن ملابسها وأغراضها في حقيبتين وهجرت سياتل بجدية هذه المرة، ذهبت أولًا إلى سان فرانسيسكو ثم طارت إلى أوروبا. وصلت إلى إسبانيا ومعها المال الكافي لتمكث أسبوعين فقط. بقيت ثلاثة أيام في مدريد ثم توجهت إلى برشلونة، وكان لديها عنوان أحد أصدقاء بول هناك، ولكن لم يجبها أحد حين اتصلت بالتليفون، استمرت في الاتصال بصديق بول صباحًا وظهرًا ومساء، فيما تقوم بجولات طويلة في المدينة، بمفردها وحيدة، أو تجلس على أحد المقاعد الخشبية وتقرأ في أحد متنزهات المدينة، أقامت في أحد بنسيونات «لاس رامبلاس»، وكانت تتناول طعامها في مطاعم المنطقة العتيقة بالمدينة.

بدأ الأرق يختفي تدريجيًا.

وذات يوم اتصلت بـ بيل بنظام المكالمات المدفوعة من الطرف الآخر ولكنها لم تجده، ثم اتصلت بوالديها، ولم يكونا بالمنزل، وقبل أن تخرج من كابينة التليفون، عادت واتصلت بصديق بول، ولكنه لم يجبها، اعترضت خيالها للحظة فكرة الموت، ولكنها أبعدتها على الفور.

فالوحدة شيء، والموت شيء آخر.

تتذكر ان أنها في تلك الليلة حاولت الاستغراق في قراءة كتاب «ويلا كاثر» الذي أهدتها إياه ليندا قبل سفرها، ولكن غلبها النوم.

اتصلت بـ بول في اليوم التالي بالطريقة نفسها وأجابها، أخبرته بشأن صديقة بمدينة برشلونة. ولكن لم تعلق على حالتها المادية، أخذ بول يفكر للحظات، ثم خطر بباله الاتصال بصديقة، وإن كانت العلاقة لا تصل إلى حد الصداقة، وهي تعيش بـ «مايوركا»، ولكن لديها منزل بمدينة «جيرونا»، تدعى جلوريا وكانت بدأت في دراسة الموسيقى بعد سن الأربعين، وهي تعزف الآن في فرقة العزف السيمفوني في «لاباما»، أو شيء من هذا القبيل. أخبرها بول أنه على الأرجح قد لاتجدها. ثم اتصلت آن بشقيقتها سوزان في جريت فالز وطلبت منها أن تقوم بتحويل نقود لها في برشلونة. وعدتها سوزان بتنفيذ ما طلبت في اليوم نفسه، إلَّا أن صوتها بدا غريبًا وكأن شخصًا ما فاجأها في الفراش أو أنها كانت مخمورة. شعرت آن بالقلق من الاحتمال الأخير، وبأن تنسى شقيقتها أن تحول لها المال.

حاولت الاتصال في اليوم نفسه بـ جلوريا. أجابتها جلوريا من الاتصال الثاني وشرحت لها الموقف، واصلتا الحديث لمدة خمس عشرة دقيقة، ثم اقترحت عليها أن تذهب لتقيم في منزلها في منطقة «بيلادمولس»، وهي قرية قريبة من بانيوليس، حيث البحيرة الشهيرة، وألا تقلق بشأن النقود،

على أن تقوم بالدفع حين تعثر على عمل.

وحين سألتها آن عن كيفية الدخول إلى المنزل، أخبرتها جلوريا أنه يقيم به شابان من الولايات المتحدة، وأن أحدهما سيفتح لها الباب حين تصل. تتذكر آن صوت جلوريا، كانت نبرتها حادة لا حرارة فيها، وبلا تأثير واضح، كما بدت لهجتها قريبة من الإنجليزية الجديدة، على الرغم من أنها أدركت على الفور أنها ليست إنجليزية، كان صوتها محايدًا يشبه صوت ليندا صديقتها (ولكنه ليس بذات الصوت الصادر عن الأنف)، صوت امرأة تمضي في الحياة بمفردها.

تتلاءم هذه النظرة مع أفلام الغرب الأمريكي، حيث نساء قليلات جدًا يمضين بمفردهن في الحياة، ولكن هذه هي الصورة التي وظفها خيال آن.

وانتظرت في برشلونة يومين آخرين إلى أن قامت سوزان بإجراءات تحويل المال لها، فدفعت إيجار البنسيون وذهبت إلى «بيلادمولس»، وهي قرية معزولة لا يقطنها أكثر من خمسين شخصًا على الأكثر، يـزدادون في الصيف إلى المائتين، وبحسب ما أخبرتها جلوريا، انتظرها في المنزل شاب أمريكي يدعى «دان»، ويدرس اللغة الإنجليزية في برشلونة، ولكنه اعتاد قضاء عطلة نهاية الأسبوع في «بيلادمولس»، حيث يكرس وقته لكتابة الروايات البوليسية. لم تخرج آن من القرية خلال فترة الشتاء، غير مرة واحدة لزيارة الطبيب في برشلونة، وفي نهاية الأسبوع يأتي «دان»، وأحيانًا شابة أمريكية أخرى تدعى «كريستين»، ولم يظهر غيرهما في المنزل

تقريبًا، إلَّا في حالات قليلة يحضر إلى المنزل بعض الشباب الأمريكيين أيضًا، ولكن أغلب الوقت يكون دان وكريستين في المنزل بمفردهما، دان مشغول بكتاباته، والفتاة بـ آلة نسيج يدوي. بينما واصلت آن بقاءها في المنزل وكرست وقتها للقراءة (عثرت في حجرة جلوريا على مكتبة ضخمة للكتب الإنجليزية)، وكانت تشغل وقتها بتنظيف المكان وإصلاح بعض الأغراض القديمة فيه من وقت إلى آخر.

وبحلول فصل الربيع نجحت كريستين في أن تجد لها عملًا كمدرسة للغة الإنجليزية في أحد معاهد اللغات في «جيرونا». وشاركت آن في البداية منزلًا مع فتاتين إحداهما إنجليزية والأخرى أمريكية، إلَّا أنها قررت في النهاية استئجار شقة خاصة بها في جيرونا، وذلك بعد أن أبلت بلاءً حسنًا في عملها، ولكنها واصلت قضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيلادمولس.

في هذه الفترة، حضر بيل لزيارتها، وكانت المرة الأولى التي يخرج فيها من الولايات المتحدة، وقرر أن يزور الدول الأوروبية على مدار شهر.إلَّا أن الأمر لم يرق له، ولم تعجبه بيلامولس، بالرغم من أن دان وكريستين كانا شخصين مهذبين جدًّا، حتى أن دان كان يشبه بيل إلى حد كبير، كما عمل مثله في أعمال البناء، وخبراته تقترب من خبرات بيل، واعتبر نفسه دائمًا شخصًا صلبًا وقويًا، علي كل الأحوال لم يعجب بيل بـ دان، وعلى الأرجح أن الشعور كان متبادلًا، بالرغم من أن دان لم يظهر ذلك.

وتتنكر آن لقاءهما، الذي سيطرت عليه مشاعر الحزن والفرح في الوقت نفسه، وهو ما عبرت عنه آن في كلماتها. في هذه الأثناء رأيت آن للمرة الأولى، كنت في إحدى الحانات في «لاس رامبلاس» في جيرونا، شاهدت بيل يدخل أولًا، وخلفه كان دان طويلًا داكن البشرة وشعره أبيض بالكامل. وكانت آن طويلة نحيفة، وجنتاها مرتفعتين، وشعرها كستنائي ناعم.

جلسا على البار، وعلقت بصري عليهما. مضى وقت طويل منذ أن رأيت رجلًا وامرأة على هذا النحو من الجمال، وعلى هذا القدر من الثقة بالنفس، بهذا الترفع المؤثر.

حتى أنني جعلت أفكر أن جميع من في البار يجب أن يركع أمامهما.

رأيت بيل بعد ذلك، كان يسير بأحد شوارع جيرونا. ولم يبد على القدر نفسه من الجمال، بدت عليه آثار النوم والعجلة. ثم رأيت آن بعد ذلك بأيام بينما كنت خارجًا من منزلي في «لابيدريرا»، كانت في طريقها إلى داخل المنزل وتبادلنا النظر للحظات. تتذكر آن أنها كانت قد تركت عملها في معهد اللغات في ذاك الوقت، وركزت جهدها في تعليم الإنجليزية من خلال دروس خاصة فأصبحت تجنى مالًا وفيرًا. عاد بيل إلى الولايات المتحدة، وسكنت هي قبالة بار «فريكس» وسينما «أوبرا»، في المنطقة القديمة في جيرونا. أعتقد أننا بدأنا نتقابل منذ ذاك الوقت عرضًا. وبالرغم من أننا لم نتبادل الحديث، كان يعرف أحدنا الآخر. ثم بدأ يحيي أحدنا الآخر، مثلما هو معتاد في مثل تلك المدن الصغيرة. وذات يوم بينما أتبادل الحديث مع «بيبي كولومير»، وهو رسَّام عجوز

في جيرونا، توقفت آن وحادثتني للمرة الأولى.

لا أتذكر حديثنا، ربما تعارفنا بأسمائنا وبلادنا، ثم دعوتها للعشاء في منزلي. كنا نقترب من فترة أعياد الميلاد، وقمت بتحضير «بيتزا» واشتريت زجاجة نبيذ. تبادلنا الحديث حتى ساعة متأخرة، وقصَّت عليَّ أنباء رحلاتها إلى المكسيك، بدت مغامراتها شبيهة جدًّا بمغامراتي.واعتقدت آن أن حياة الشباب تكاد تكون متشابهة على الرغم من اختلاف الأماكن، واختلاف الأهداف التي قد تكون متعارضة أحيانًا. كنت أفضل الاعتقاد بأن كلينا طاف بالأماكن نفسها على الخريطة، والحروب نفسها، والتعلم المعنوى المشترك نفسه.

حين اقتربت الساعة من الخامسة وربما بعدها ذهبنا إلى الفراش ومارسنا الحب.

تحولت آن فجأة إلى شيء مهم في حياتي. بدا الجنس في بداية علاقتنا على مدار الأسبوعين الأولين بمثابة الذريعة لعلاقتنا، ولكنني فهمت بعد ذلك أن ما ربط أحدنا بالآخر كانت الصداقة ذاتها.

اعتدت زيارتها في منزلها بداية من الثامنة مساء بعد أن تنهي دروسها الخصوصية، ونواصل حديثنا إلى الساعة الأولى أو الثانية من صباح اليوم التالي. كانت تعد لنا الساندوتشات ونحتسي النبيذ، أو ننزل إلى حانة «فريكس»، فنتناول الشراب ونكمل حديثنا.

يتجمع في هذا البار أغلب شباب «الجانكي» بمدينة جيرونا، ولم يكن بالمستهجن رؤية شباب المنطقة الخطرين يتجولون بحرية هناك، غير أن آن ظلت تتذكر شباب سان فرانسيسكو الخطرين، خطورة حقيقية، وفي المقابل أخبرتها عن نظرائهم في المكسيك، ثم نستغرق في موجة ضحك غير مفهومة، وإلى الآن لا أعرف مبعث ضحكنا، ربما فقط مجرد كوننا على قيد الحياة كان هو السبب الرئيسي، بعد ذلك يودع أحدنا الآخر، فأتوجه إلى منزلي في الطابق الأخير في أحد مساكن لابيدريرا.

اصطحبتها يومًا إلى عيادة «ديشوس» في برشلونة. في تلك الآونة كنت أخرج مع شابة أخرى، وآن تخرج مع مهندس معماري في جيرونا، وشعرت بالسعادة حين دخلت معها إلى العيادة، وأسرَت إليَّ أنهم قد يعتقدون أنه زوجها.

وذهبنا ذات مرة إلى «بيلاديمولس»، أرادت آن أن تقدمني لـ جلوريا، ولكنها لم تحضر في ذاك الأسبوع. في بيلاديمولس اكتشفت شيئًا كنت حتى هذه اللحظة أشك فيه، آن كانت قادرة على أن تتحول إلى شخص مختلف، أن تصبح فتاة أخرى. وكانت عطلة نهاية أسبوع فظيعة. واصلت آن احتساء الشراب دون توقف، وتردد دان على حجرتها، يدخل ويخرج دون أية تفسيرات (كان يكتب). واضطررت أنا أن أتحمل طالبة سابقة لـ كريستين أو دان، وكانت النموذج الأصيل لفتاة تافهة من كتالونيا، بدت أمريكية أكثر من الأمريكيين أنفسهم.

عادت آن في العام التالي إلى الولايات المتحدة لترى والديها

وشقيقتها في جريت فالز، ثم ذهبت إلى سياتل لترى بيل.

أرسلت لي ببطاقة من نيويورك، ثم أخرى من سياتل. ثم بعثت لي بعد ذلك برسالة تخبرني فيها بأن لقاءها مع بيل كان فظيعًا. تخيلتها وهي تكتب رسالتها في منزل ليندا أو في شقة بيل، بينما تحتسي الشراب وتبكي، على الرغم من أنها لم تعتد البكاء.

وحين عادت مجددًا، أحضرت بعض الأشياء من الولايات المتحدة. وذات يوم جعلتني أشاهد ما جلبته معها، وكان عبارة عن بعض دفاتر اليوميات التي شملت الفترة ما بين لقائها الأول بـ رالف وبيل، حتى ذاك الوقت في سان فرانسيسكو. كانت في المجمل حوالي ثلاثة وأربعين دفترًا، بما يعادل مائة صفحة مكتوبة على الوجهين بخط صغير وعلى عجلة، كما انتشرت بعض الرسومات والخرائط التوضيحية (وكانت خرائط وصفية لمنازل مثالية، ومدن وأحياء خيالية، وطرق يجب على كل امرأة أن تسلكها، على العكس مما فعلت هي)، ويصحب ذلك بعض الإشارات، بقيت المذكرات في أحد أدراج الصالة، وبدأت في تصفحها شيئًا فشيئًا في حضور آن، حتى تحولت زياراتي لشيء عجيب، كنت أصل، ثم أجلس في الصالة استمع إلى الموسيقى أو نبدأ الشراب.

بينما نقرأ المذكرات في صمت.

كنا نتحدث في لحظات متقطعة قليلة، فقط حين أعجز عن فهم شيء أو تلميح أو كلمات لا أفهم معناها.

الاستغراق في قراءة هذه التدوينات في حضور صاحبتها لم يخلُ من شعور بالإثم أحيانًا، (كنت أشعر في بعض اللحظات بالرغبة في إلقاء الدفاتر والاقتراب منها ومعانقتها)، إلَّا أن الشعور المحفز للقراءة كان هو الغالب دائمًا، ولم أدرك كنهه. كان الأمر مثل حـرارة تصيـب الجسـد ولا يمكن تجنبها أو التنبؤ بها، في أحيان أخرى تبعث قراءتها على الرغبة في الصراخ، أو غلق العينين، إلَّا أن خط آن كان يجبرك على أن تحكم إغلاق شفتيك، وأن تثبت جفنيك لتتمكن من متابعة القراءة، لأنك لن تقدر على غير ذلك.

وخصصت أحد الدفاتر الأولى بالكامل لتقص فيه حكاية سوزان، وما جاء فيه من عبارات الزعب والحب لا يمكن وصفه.

والدفتران التاليان خصصتهما لحادثة انتحار «توني» وتغلب عليها التساؤلات واللهجة الخطابية عن مرحلة الشباب والحب والموت والمشاهد الضبابية لتايوان والفلبين (التي كانت فيها بمفردها، دون صحبة توني)، الشوارع ودور العرض في سياتل، أمسيات الغروب في المكسيك.

وفي دفتر آخر كبير، تحدثت عن تجربتها مع بيل، ولكنني لم أجرؤ على النظر فيه.

لا شك أن رأيي بهذا الشأن كان متواضعًا. قلت لها: عليك أن تنشري هذه الأوراق، واعتقد أنني قلت ذلك بصعوبة حتى أنني قطبت كتفيَّ،

كانت مسألة السن في تلك الأيام هي الهاجس الأول لـ آن، الزمن الذي مر، والسنوات المقبلة قبل أن تبلغ الأربعين في البداية اعتقدت أن الأمر لا يعدو كونه مجرد مبالغة نسائية (كيف يمكن لأمرأة مثل آن مور أن تقلق بشأن بلوغها الأربعين؟)، ولكنني لم ألبث أن أدركت أن مخاوفها كانت حقيقية.

حضر أبوها ذات مرة لزيارتها، ولم أكن في ذاك الوقت في جيرونا، وعند عودتي كانوا قد ذهبوا في جولة إلى إيطاليا واليونان وتركيا.

انتهت علاقة آن بالمهندس المعماري بعد فترة، وبطريقة متحضرة. وبدأت تخرج مع طالب قديم لها، يعمل فنيًا في إحدى شركات استيراد الماكينات. كان هادئًا، قصير القامة، أقصر كثيرًا من آن، ليس فقط من ناحية المظهر ولكن أيضًا من الجانب الميتافيزيقي للأشياء، إلَّا أنني اعتقدت أنه من غير الحصافة التعليق على الأمر.

أعتقد أن عمر آن في ذاك الحين كان قرابة ثمانية وثلاثين عامًا، وصديقها في الأربعين، وكانت هذه هي الميزة الوحيدة، كونه يكبرها سنًا. بعد ذلك غادرت جيرونا، وحين عدت إليها كانت آن قد انتقلت من منزلها أمام سينما «أوبرا». لم أهتم للأمر، لأنها كانت تعرف عنواني الجديد، إلَّا أنني لم أسمع عنها شيئًا لفترة طويلة.

سافرت آن إلى أوروبا وأفريقيا في الوقت الذي غبت فيه، وتعرضت لحادث سيارة، كما هجرت صديقها الأخير، وزارها بول وليندا، وبدأت تمارس الحب مع شاب جزائري، وكانت قد أصيبت في أعصاب يديها وذراعيها. وظلت تقرأ كثيرًا لـ «ويلا كاثير» و «إيدورا ويلتي»، وظهرت يومًا ما عندي بالمنزل، وكنت في الفناء أنظفه، فشعرت بخطواتها والتفت لأجدها أمامي.

في هذا المساء مارسنا الحب، وكأنه ذريعة نخفي بها فرحتنا لعودة كل منا إلى الآخر. بعد ذلك بأيام ذهبت لرؤيتها في جيرونا، كانت تعيش في الجزء الحديث من المدينة، في الدور الأخير في إحدى البنايات، وأخبرتني أن لها جار روسي يدعى «أليكسي»، وأنه أرق شخصية مهذبة عرفتها في حياتها، قصت شعرها كثيرًا، ولم تهتم بصبغ الشعيرات البيضاء في رأسها. فسألتها عما فعلته بشعرها الرائع، فقالت: أبدو وكأنني امرأة «هيبز» عجوز.

كانت على وشك السفر إلى الولايات المتحدة، وهذه المرة كان مقررا أن يرافقها صديقها الجزائري، ولكن أعتقد أنهما صادفا مشاكل بشأن منحه تأشيرة إلى الولايات المتحدة في برشلونة. فقلت لها: يبدو أن الأمر خطير. فلم تجبني. قالت إنهم يعتقدون في السفارة أن الجزائري لا يفكر في البقاء والعيش في الولايات المتحدة. فقلت لها: أليس الأمر كذلك، فأجابت: لا، ليس الأمر كذلك.

مضى الوقت بعد ذلك دون أن نشعر به. لا أتذكر ما الذي

تحدثنا بشأنه، وما حكيناه، كلها أشياء لا قيمة لها. بعد ذلك غادرت، ولم أرها أبدًا مجددًا. وبعد فترة تلقيت رسالة منها، مكتوبة باللغة الإسبانية ومرسلة من جريت فالز.

أخبرتني أن شقيقتها سوزان قد انتحرت بجرعة مخدرات زائدة. وأن أبويها وصديق شقيقتها الذي يعمل نجارًا في «ميسولا» محطمين، ولا يفهمون شيئًا مما جرى.

قالت: ولكنني أفضل الصمت، فلا معنى لمضاعفة الحزن بحزن جديد يضاف إلى الأحزان الثلاثة، وكأن الحزن ليس باللغز الكافي أو أن الألم لا رد فعل له، ولكل الألغاز السابقة.

ولكن قبل أن تغادر إسبانيا، كانت قد تلقت عدة مكالمات من بيل، وهكذا وضعت النقطة الأخيرة فوق الحروف لموت سوزان.

ووفقًا لما قالته آن، اعتاد بيل أن يتصل بها في أي وقت من اليوم، وكان ينهي مكالمته بسبها، أغلب المكالمات كانت تنتهي بالإساءة إليها. وفي المكالمات الأخيرة، هددها بيل بالذهاب إلى «جيرونا» وقتلها، وهو ما اعتبرته متناقضًا لأبعد حد. وهكذا غادرت إلى سياتيل بالرغم من أنها لم يعد لديها أصدقاء هناك. ولم تقل شيئًا عن الجزائرى، ولكنني افترضت أنه كان إلى جوارها، أو هذا ما أردت تخيله لأتحاشى الكوابيس.

بعد ذلك لم ترد إليَّ أية أخبار منها، ومرت عدة أشهر وكنت قد انتقلت إلى منزل آخر، في إحدى القرى الساحلية، التي حولها خوان مارسيه إلى أسطورة. كان لديَّ عمل كثير وبالمثل

كنت غارقًا في المشاكل التي أبعدتني عن آن مور، لقد تزوجت.

في نهاية الأمر ركبت القطار وذهبت إلى جيرونا الضبابية، وإلى منزل آن الصغير. وكما توقعت تمامًا، فتحت لي الباب امرأة غريبة، وبالطبع لم يكن لديها أية أخبار عن المستأجرة السابقة. وقبل أن أرحل سألتها عن الجار الروسي، رجل مسن، فردت بالإيجاب، وأخبرتني أن أطرق على بابه في الطابق الثاني.

استقبلني رجل مسن يمشي بالكاد معتمدًا على عصاه من خشب البلوط وتبدو كصولجان، أو أداة للقتال. تذكر آن مور، حتى أنه تذكر جميع الأحداث التي جرت في القرن العشرين، معتبراً أنها جميعًا لا وزن لها. أخبرته أن أخبارها انقطعت عني منذ وقت طويل، وأنني حضرت للقائه أملًا في أن تكون لديه معلومات بشأنها.

أجاب: لديَّ معلومات قليلة، فقط بعض بطاقات المعايدة من الولايات المتحدة، ذلك البلد العظيم الذي كنت أتمنى أن أمضي به المزيد من الوقت. واستغل الوقت ليقص على الفترة التي قضاها في نيويورك، وصولاته كمدير صالة قمار في «أتلانتا سيتي».

ثم أعد لي شايًا وذهب ليحضر البطاقات، وإن تأخر في إحضارها.

وأخيراً ظهر وفي يده البطاقات الثلاث.

وقال: جميعها من أمريكا.

لا أتذكر على وجه التحديد ما اللحظة التي اكتشفت فيها أنه مجنون. وأعتقد أن ذلك منطقي في إطار ما هو متاح لديه.

أحسست باسترخاء وتعجلت الرحيل.

مد العجوز الروسي يده بالبطاقات الثلاث من فوق الشاي، مرتبة حسب تواريخ الوصول، ومكتوبة باللغة الإنجليزية. البطاقة الأولى من نيويورك، تعرفت على خط آن على الفور.

كتبت ما يقال في هذا النوع من البطاقات، ورجته أن يعتني بنفسه، أن يهتم بطعامه اليومي، وأن يتذكرها دائمًا، وأرسلت له بقبلاتها على البطاقة التي صورت جادة «كينتا».

أما البطاقة الثانيه فكانت من سياتل، وميناءها الشهير.

كانت أكثر اقتضابًا في عباراتها من الأولى، وأكثر غموضًا.

فهمت أنها كانت تتحدث عن عمليات لجوء وجرائم. وأرسلت البطاقة الثالثة من بيركلي، وتعكس أحد شوارع بيركلي الهادئة بوهيمية الطابع، وفقًا لما جاء في الأسطورة.

كتبت آن بحروف واضحة: إنني ألتقى الآن بأصدقائى القدامى وأعقد صداقات جديدة، ثم انتهت مثل الأولى بدعوة أليكسي العزيز إلى الاهتمام بنفسه، وألَّا ينسى تناول طعامه يوميًا، وإن كان بمقدار قليل.

نظرت إلى الرجل الروسي نظرة اختلط فيها الحزن بالدهشة. فبادلني نظرة عطوفًا.

وسألته: هل استمعت إلى نصائحها؟

فأجابني: بالطبع، إنني ألتزم بنصائح السيدات دائمًا.



رفيقا
الزنـزانة

تزامنت فترة بقائنا في السجن، إلَّا أننا كنا في سجنين مختلفين (تفصل بينهما آلاف الأميال)، تم اعتقالنا وسجننا في الشهر نفسه والعام نفسه. وُلدت صوفيا عام ١٩٥٠ في «بلباو»، وكانت خمرية اللون، متوسطة القامة وجميلة جدًا. وفي شهر نوفمبر عام ١٩٧٣ بينما كنت مسجونًا في شيلي، تم سجنها في الشهر نفسه بمدينة أراجون الإسبانية.

في ذاك الوقت كانت تدرس بجامعة «ثاراجوثا» تخصصًا علميًا، ربما «بيولوجي» أو كيمياء ،واحد من التخصصين.

وتم سجنها هي وجميع زملائها في الصف الدراسي. وبعد قضائنا خمس أو ست ليال معًا، أخبرتني ألَّا أكِل أو أتعب لأنه ما زال ينتظرنا الكثير. قلت لها إنني أحب التنوع، وإنني إذا مارست الحب مع امرأة بنفس الوضع مرتين متتاليتين

فسوف أصاب بالعجز قالت لي: إذن لا تفعل ذلك من أجلي.
بدا سقف الحجرة عاليًا للغاية وقد أطلت الجدران باللون الأحمر القاني. قامت بطلاء الحجرة بنفسها في الأيام القليلة التي تواجدت بها. وبدت بشعة.

قالت: مارست معك الحب بجميع الأشكال الممكنة.

فقلت لها: لا أصدقك.

ثم تساءلت: جميع الأشكال الممكنة؟ لم أقل لها شيئًا (فضلتُ الصمت، ربما لشعوري بالخجل)، ولكنني صدقت ما قالته.

وبعد مرور عدة أيام أخبرتني أنها تشعر بأنها فقدت عقلها. أصبحت تأكل قليلًا جدًا، تتغذى على الحساء وحسب. وذات يوم دخلتُ إلى المطبخ ورأيتُ كيسًا بلاستيكيًا إلى جوار الثلاجة، احتوى على قرابة عشرين كيلو من الحساء المجفف.

سألتها: إلَّا تأكلين شيئًا آخر؟

ابتسمت بدورها وردت بالإيجاب، وبأنها أحيانًا تأكل أشياء أخرى، ولكن عندما تكون خارج المنزل، تأكل في البارات أو المطاعم.

وقالت: في المنزل تناول الحساء يكون عمليًا بشكل أكبر.

لم تكن تذيبه في اللبن بل في الماء وحسب، ولم تنتظر أن يغلي الماء بل تذيبه فيه وهو بارد.

تصب الحساء الجاف في الماء وتتناوله، أخبرتني بعد ذلك أنها تكره اللبن.

لم أرها أبدًا تتناول منتجات الألبان ثم أخبرتني فيما بعد أنها عقدة منذ الطفولة تتعلق بوالدتها.

وهكذا كانت تتناول الحساء خلال الفترة التي مكثتها معها بمنزلها، وكانت تشاركني أحيانًا مشاهدة بعض الأفلام في التلفزيون. لم نتبادل الحديث في هذه الأثناء، ولم تناقشني أبدًا.

كان يعيش في المنزل نفسه شاب من الحزب الشيوعي في عمرنا نفسه تقريبًا، أي في أوائل العشرينيات، وغالبًا ما كنت أتورط معه في مناقشات بلا طائل، ولكنها لم تنحز إليَّ على الإطلاق، على الرغم من أنني كنت على يقين من أن رأيها يتوافق أكثر مع رأيي.

وذات يوم أخبرني الشيوعي أنه يجد «صوفيا» جذابة، وأنه يرغب في إقامة علاقة معها حين تسنح الفرصة.

قلت له: فلتفعل ذلك. وبعد ليلتين أو ثلاث، بينما كنت أشاهد فيلمًا لـ «خابيير بارديم»، سمعت خطوات الشيوعي في الممر ثم طرق باب صوفيا بعنف. أخذا يتحدثان لفترة ثم أُغلق باب الحجرة وخرج بعد ساعتين.

وعرفت بعد ذلك بفترة طويلة أن «صوفيا» كانت متزوجة من زميل لها في جامعة «ثاراجوثا» وقد أُعتقل وسجن أيضًا في شهر نوفمبر عام ١٩٧٣. وبعد أن انتهيا من الدراسة الجامعية، انتقلا إلى برشلونة، ثم انفصلا. كان يدعى

«إميليو»، وكانا صديقين جيدين.

قلت لها: لقد مارست الحب مع «إميليو» في جميع الأوضاع أليس كذلك؟

أجابت صوفيا: تقريبًا، إلى حد بعيد.

ثم قالت إنها تشعر بأنها على حافة الجنون، وخصوصًا عندما تقود سيارة، وأشـــارت إلى الليلة السابقة عند «دياجونال»، ولكن لحسن الحظ كان المرور سلسًا.

سألتني: هل تتناول «الفاليوم»؟ هاك الكثير من الأقراص.

وقبل أن نقضي الليلة معًا، ذهبنا لمشاهدة أفلام فرنسية مرتين في السينما على ما أعتقد، رأينا فيلمًا لسيدة تمارس القرصنة تصل إلى جزيرة تعيش بها امرأة أخرى قرصانة أيضًا. وتتبارز الاثنتان بالسيف مبارزة موت.

واحدة منهما كانت من وقت الحرب العالمية الثانية تعمل لحساب الألمان، وللمقاومة في الوقت نفسه. بعد ذلك اعتدنا الذهاب إلى السينما، والأعجب أنني لازلت أتذكر العناوين وأسماء الممثلين، ولكن لا شيء غير ذلك.

ومنذ اللحظة الأولى أخبرتني صوفيا بأن علاقتنا لن تصل إلى نهاية ما، قالت لي إنها تحب رجلًا آخر.

سألتها هل هو الرفيق الشيوعي، فأجابتني بالنفي، وأخبرتني بأنه شخص لا أعرفه وفي بعض الأحيان كانت تمارس الحب

معه، ولكن ليس بشكل دائم، بمعدل مرة كل أسبوعين تقريبًا.

ولكنها اعتادت ممارسة الحب يوميًا معي، في البداية رغبت في أن استنفدها.

اعتدنا البدء في الحادية عشرة، ولم نكن ننتهي قبل الرابعة صباحًا، ولكن في النهاية أدركت أنه ما من وسيلة لاستنفاد صوفيا.

في هذه الفترة اختلطت بالفوضويين وأنصار حركات المرأة، وقرأت كتبًا تتفق ونوعية أصدقائي. وأحد هذه الكتب للكاتبة الإيطالية «كارلا»، وكان عنوانه «فلنبصق على هيجل». وأعرته يومًا إلى صوفيا لتقرأه، وقلت لها: اقرأيه اعتقد أنه جيد جدًّا. (وربما قلت لها إن الكتاب مفيد لها).

أعادت لي صوفيا الكتاب في اليوم التالي، وأخبرتني أنه لا بأس به ككتاب في الخيال العلمي، أما فيما عدا ذلك فمكانه هو القمامة. وقالت إنه كتاب لم تكن لتكتبه غير امرأة ايطالية.

سألتها: وهل لديك أي شيء ضد الإيطاليات؟ هل سببت لك إيطالية ما سوءًا وأنت صغيرة؟

أجابتني بالرفض، وبأنها تفضل قراءة «فاليري سولاناس». وأن كاتبها المفضل ليس امرأة، بل رجل انجليزى يُدعى «ديفيد كوبر»، زميل «لانج».

وانتهى بي الأمر لقراءة «فاليرى سولانا» و«ديفيد كوبر» وأيضًا لانج (مقطوعاته الشعرية).

ومن أكثر الأشياء التي لفتت انتباهي في كوبر محاولته خلال الحقبة الأرجنتينية (علي الرغم من عدم يقيني هل كان يومًا بالأرجنتين، أم أن الأمر قد التبس عليَّ)، محاولته مع محاربي اليسار ومخدراتهم قوية التأثير.

هؤلاء الأشخاص الذين يشعرون بالإعياء فقط لمجرد فكرة إمكانية وفاتهم في أية لحظة، هؤلاء الذين لن يحظوا بتجربة كبر السن في الحياة، فالمخدرات كانت توفر لهم أحاسيس مشابهة وتشفيهم أيضًا. صوفيا اعتادت تناول المخدرات في بعض الأوقات.

كانت تتناول أقراص LSD، قرص يزيد لحظات الاهتياج، وآخر يعمل على خفضها لأدنى مستوى، كنا نتناول بعض المخدرات المنشطة للجهاز العصبي، فنمكث في نشوة إلى بداية تباشير الصبح.

وذات يوم، حضر «إيميلو» ليراها وقدمته إليَّ.

كان طويلًا ذا ابتسامة جميلة، وبدا أنه مغرم بـ صوفيا لأبعد حد. وكانت برفقته صديقته «نوريا»، وهي مدرسة بمدرسة ثانوية مثلها مثل صوفيا وإميليو. لم تكن هناك سيدتان أشد اختلافًا منهما، صوفيا خمرية اللون، لون عينيها بنى داكن يقارب الأسود، نحيفة وقصيرة مثل المشتركين في رياضات العدو السريع. وبالرغم من أي شيء، بدت المرأتان صديقتين وفيتين. ووفقًا لما عرفته فيما بعد، فإن إميليو هو من هجر

صوفيا، إلّا أنهما احتفظا بصداقتهما في إطار ما هو ممكن.

وفي بعض الأحيان حين كنت أجلس أمام المرآتين وأتأملهما، براودني الشعور لشدة اختلافهما بأنني أمام امرأة أمريكية وأخرى فيتنامية. في المقابل بدا إميليو دائمًا هو الشخص نفسه، كميائي أو متخصص في البيولوجي، الطالب السابق الذي ناهض حكم «فرانكو»، السجين السابق، شخص مهذب، وإن كان لا يثير الاهتمام.

وذات يوم كلمتني صوفيا عن الرجل الذي أحبته، ويدعى خوان، وينتمي أيضًا إلى الحزب الشيوعي. يعمل معها في المدرسة الثانوية نفسها، وتراه يوميًا. كان متزوجًا ولديه طفلة.

سألتها: وأين تمارسان الحب.

أجابت: في سيارتي أو سيارته.

نخرج معًا، وينتظر كل منا الآخر في أحد شوارع برشلونة، أحيانًا نذهب إلى «تيبيدابو»، وآخرى إلى «سانتا كروث»، أو ببساطة نوقف سيارتنا بأحد الشوارع، ونبقى في سيارتي أو سيارته.

بعد ذلك بفترة قصيرة مرضت «صوفيا» واضطرت أن تلزم الفراش، ولم يكن في البيت في هذه الفترة سوى صوفيا والصديق الشيوعي وأنا. ولم يكن يظهر إلّا في وقت متأخر، فكنت أنا من يرعاها ويعطيها الأدوية.

وقالت لي ذات مساء فلنذهب للبرتغال.

بدت لي الفكرة طيبة وانطلقنا صباحًا في أحد الأيام إلى البرتغال بطريقة الـ أوتوستوب.

(اعتقدت في البداية أننا سوف نذهب بالسيارة ولكن صوفيا أخبرتني أنها غير قادرة على القيادة). كانت الرحلة بطيئة ومزعجة. توقفنا في «ثاراجوثا»، حيث أصدقاء صوفيا الأقدم، ثم في مدريد في بيت شقيقتها، ثم في إكستريمادورا. عنَّ لي خاطر بأن صوفيّا تزور عشاقها القدامى.وبأنها تودعهم، وداعًا تنقصة المودة أو حتى القبول.

حين كنا نمارس الحب، كانت تبدو غائبة وكأن الأمر لا يعنيها، ثم تنتهي بشبق في مرات متتالية. ثم تشرع في البكاء، بينما أسألها لماذا تبكي.

فكانت تقول: لأنني مثل أنثى الأرنب، قلبي في ناحية، وأترك جسدي ينجرف في طريق آخر. فكنت أقول لها: لا تبالغي، ثم نواصل علاقتنا.

كنت أشعر بلذة تقبيل وجهها المبلل بالدموع، بينما يشتعل جسدها بأكمله، جسدها كان ينتفض مثل المعدن لحظة توهجه الأحمر، بينما تلتحم دموعها الدافئة مع حلمتي صدرها مرورًا بعنقها، وأشعر حينها ببرودة.

وبعد شهر، عدنا مرة ثانية إلى برشلونة. ولم تتذوق صوفيا الطعام طوال اليوم. عادت لتلتهم أطباق الحساء مجددًا، وقررت عدم الخروج من المنزل. وذات يوم عدت إلى المنزل،

فوجدت صديقة لها لا أعرفها برفقة «نوريا» وإميليو، وجعلوا ينظرون إليَّ وكأنني أنا المسئول عن تدهور صحتها على هذا النحو. شعرت بالضيق ولكنني لم أقل شيئًا ومكثت في حجرتي. حاولت القراءة، ولكنني كنت أسمعهم دون قصد. عبارات تعجب ودهشة، ومناقشات ونصائح. بينما امتنعت صوفيا عن الكلام.

وبعد أسبوع استطاعت الحصول على أجازة من العمل لمدة أربعة أشهر. كان دكتور التأمين الصحى زميلًا لها بالجامعة في ثاراجوثا. واعتقدت أننا بهذا الشكل سيزداد اقتراب أحدنا من الآخر، إلَّا أن الأمر جاء على العكس من ذلك، ابتعدنا شيئًا فشيئًا. لم تعد لتنام في المنزل لليال كثيرة، أتذكر أنني كنت أجلس وأشاهد التلفزيون لوقت متأخر في انتظار عودتها، ولكنها كانت تبيت بالخارج. في بعض الأحيان، الشاب الشيوعي كان يجلس برفقتي، إلَّا أنه رحل في أحد الأيام، وشعرت بوحدة لم أعهدها من قبل في أي وقت، أصبحت صوفيا في هذه الأوقات مثل الشبح، تحضر وتغادر دون أن تصدر أي صوت، تأتي لتقضي وقتًا بحجرتها أو في الحمام، ثم تختفي عن الأعين وتغادر المنزل.

وذات يوم تصادفنا على سلم العمارة بينما أصعد وهي تهبط الدرج، والشيء الوحيد الذي خطر ببالي هو أن أسألها عما إذا أصبح لها حبيب جديد.

ندمت بعد ذلك على سؤالي في الحال، ولكنني كنت قد قلته.

لا أتذكر بماذا أجابتني. وتحول المنزل الواسع الذي احتوى قبلًا خمسة أشخاص إلى ما يشبه مصيدة الفئران.

أحيانًا كنت أتخيل صوفيا وهي سجينة بمدينة ثاراجوثا في نوفمبر عام ١٩٧٣، ثم أتخيل نفسي محبوسًا خلال أيام متوازية في نصف الكرة الجنوبي، وخلال التوقيت نفسه، وبالرغم من أنني قد لاحظت أن هذا التصادف يحمل كثيرًا من المعاني، لم أتمكن من الوصول لتفسير أي منها. هذه التشابهات الجزئية تسبب لي شيئًا من الاضطراب.

وذات مساء حين عودتي للمنزل، وجدت رسالة وداع منها وبجانبها مبلغ من المال على طاولة المطبخ. في البداية مارست حياتي وكأن صوفيا لا تزال موجودة، ولا أتذكر كم من الوقت بقيت أنتظرها. أعتقد أنهم قطعوا عني الكهرباء لأنني لم أدفع القيمة المستحقة.

ثم انتقلت إلى منزل آخر.

مر وقت طويل قبل أن أراها مجددًا.

كنت أتجول في الـ رامبلاس وبدت كالتائهة. تحدثنا واقفين، فيما اخترق البرد عظامنا، تحدثنا عن أشياء لا تتعلق بي أو بها. طلبت مني أن أرافقها إلى المنزل. كانت تعيش بالقرب من بورني في مبنى قديم.

سلالم المنزل ضيقة وتصدر صريرًا عند كل خطوة لنا، وصعدت إلى باب شقتها في الدور الأخير، دهشت لأنها لم تدعني للدخول.

كان يجب أن أسألها عن السبب، إلَّا أنني ذهبت دون تعليق، راضيًا بالأمور كما هي، وبالشكل الذي تراه هي نفسها.

وعدت مرة ثانية إلى منزلها بعد أسبوع. جرس الباب كان معطلاً واضطررت أن أطرق الباب بعنف لمرات متتالية. أعتقدت أنه لا يوجد أحد. وفي اللحظة التي هممت فيها بالرحيل انفتح الباب.

كنت أعتقد أنه لا يوجد أحد بالداخل. فتحت صوفيا، كان المنزل مظلمًا ويرتعش الضوء كل عشرين ثانية. لم ألحظ في البداية بسبب العتمة أنها كانت عارية.

شعرت أنني أتجمد لدى رؤيتها على هذا النحو على ضوء السلم، كان جسدها مستقيمًا، وأكثر نحافة مما كان عليه، بطنها وفخذاها اللتين طالما قبلتهما غاية في النحافة، وبدلاً من أن أرتمي عليها شعرت ببرودة نتيجة لعريها.

قلت لها: هل أستطيع الدخول؟ فأشارت نفيًا بحركة من رأسها. فكرت أن عريها يوحي بأنها ليست بمفردها.

قلت لها ذلك، وابتسمت ابتسامة بلهاء مؤكدًا لها أنني ليست لدي أية نية في أن أكون متطفلاً.

وحين بدأت أنزل درجات السلم، وصل إليَّ صوتها تقول إنها بمفردها. توقفت في هذه اللحظة، باهتمام كبير، محاولاً اكتشاف شيء في تعبيراتها، إلَّا أن وجهها كان بلا أية تعبيرات. نظرت أعلى كتفها. كان البيت غارقًا في الظلام

والهدوء بلا حراك، إلَّا أن حدسي أخبرني أنها تخبيء شخصًا ما بالداخل، وقفنا نتسمع وننتظر.

هل تشعرين أنك بخير؟

سألتها، أجابتني: بخير تمامًا، أجابتني بصوت هذيل. هل تناولت شيئًا؟

أجابتني هامسة: لم أتناول شيئًا، لم أتناول أية مخدرات.

أستطيع أن أعد لك فنجانًا من الشاي.

قالت: لا.

بعد تلك الأسئلة خطر ببالي أن أوجه لها سؤالًا أخيرًا: ولماذا لا تدعيني أدخل منزلك صوفيا؟ وجاءت إجابتها غير منتظرة على الإطلاق. قالت: صديقي خارج المنزل، ولا يحب أن يعود فيجدني برفقة شخص آخر، خصوصًا إذا ما كان رجلًا. لم أعرف ماذا أفعل، هل أظهر الغضب، أم أتظاهر بأنها دعابة. قلت لها: لابد أن صديقك من فصيلة مصاصي الدماء. فابتسمت صوفيا للمرة الأولى، وبدت ابتسامتها باهتة وهزيلة.

قالت: لقد حدثته عنك وسيعرفك.

قلت: وماذا بإمكانه أن يفعل هل سيضربني؟

أجابت: لا، بل سيغضب ببساطة.

قلت: هل سيركلني بقدمه؟ (في كل دقيقة تمر كانت دهشتي تزداد.

كنت أتطلع لأن يحضر صديقها الذي تنتظره في الظلام عارية، وليرى ماذا سيفعل في الواقع، وما سيجرؤ على القيام به).

قالت: لن يطردك ركلًا بقدمه. ولكنه ببساطة سوف يغضب، ولن يتحدث معك، وبعد أن ترحل سيوجه لي بالكاد كلمة واحدة.

صرخت في وجهها: يبدو أنك لست في وعيك، لا أعلم هل تدركين معنى ما تقولين، لقد غيروكِ تمامًا. إنني حتى لا أعرفك.

قالت: إنني أنا مثلما كنت دائمًا، ولكنك أنت الأبله.

قلت: صوفيا.. صوفيا ماذا جرى لك إنك في صورة لا تمت لك. قالت: ارحل من هنا، ارحل يا من تعرف من أنا.

لم تصلني أية أخبار عن صوفيا منذ هذا اللقاء إلَّا بعد عام. وذات مساء خارجًا من السينما التقيت بـ نوريا. تعرف أحدنا إلى الآخر وتبادلنا التعليقات بشأن العرض، ثم قررنا الذهاب لتناول فنجان من القهوة. وبعد ذلك بدأنا بالحديث عن صوفيا.

سألتني نوريا: كم من الوقت مر منذ التقيت بها؟

أجبتها بأنني رأيتها منذ وقت طويل، ولكنني أستيقظ أحيانًا وكأنني كنت معها.

سألتني: كأنك تحلم بها؟

فأجبت: لا كأنني قضيت الليل معها.

قالت: هذا غريب، لأن الشيء نفسه كان يحدث مع إميليو، إلى أن حاولت أن تقتله، عندئذ توقفت الكوابيس التي كانت تراوده.

أوضحت لي القصة. كانت بسيطة ولكن لا يمكن فهم أسبابها. منذ ستة أو سبعة أشهر تلقى «إميليو» مكالمة هاتفيه من صوفيا. ومثلما قص على نوريا بعد ذلك، فقد حدثته صوفيا عن وحوش، ومؤامرات، ومحاولات اغتيال.

وقالت إن أكثر ما يثير خوفها هو أن يقوم مجنون بدفعها إلى حافة الجنون عن عمد. ثم دعته إلى منزلها، المنزل نفسه الذي ذهبتُ إليه مرتين، وذهب إميليو في موعده.

ثم حكت عن السلم الضيق المظلم والجرس الذي لا يعمل، والطرق على الباب، وإلى هنا بدا كل شيء مألوفًا ومتوقعًا.

ثم فتحت صوفيا. لم تكن عارية. دعته إلى الدخول. ولم يذهب إيميليو أبدًا إلى هذا المنزل من قبل. كانت حجرة الاستقبال متواضعة للغاية، وفقًا لما قالته نوريا، كما أن حالتها كانت بائسة جدًا، القذارة على الجدران، والأطباق المتسخة على المائدة. لم ير إميليو شيئًا في البداية، حيث الإضاءة سيئة تمامًا، ثم مّيز رجلًا جالسًا على مقعد قام بتحيته، فلم يجب تحيته.

قالت صوفيا: اجلس، يجب أن نتحدث. جلس إميليو،

وهاجس بداخله يخبره أن هناك خطرًا ما، ولكنه لم يلتفت له.

اعتقد أن صوفيا سوف تطلب منه قرضًا.

قرضًا آخر.

بالرغم من أن وجود هذا الشخص الغريب جعله يستبعد هذا الاحتمال.فلم تطلب صوفيا منه أبدًا نقودًا أمام شخص ثالث. وهكذا جلس إميليو وانتظر.

وقالت له صوفيا: يريد زوجي أن يشرح لك أشياء في الحياة.

اعتقد إميليو أن صوفيا تشير إليه بصفة «زوجي»، وإنما أرادت أن تخبر صديقها الجديد شيئًا من خلاله. فابتسم وجاهد بالقول مشيراً أنه لا شيء لديه لتوضيحه، فكل تجربة فريدة ومستقلة عن غيرها.

ثم فهم فجأة أنها بعبارة «زوجي» إنما تقصد الشخص الجالس، وشعر أن شيئًا سيئًا يجري. حاول أن يقف في اللحظة التي ارتمت فيها عليه صوفيًا.

أما بقية ما جرى فكان فكاهيًا لأبعد حد. حاولت صوفيا الإمساك بـ إميليو من ساقيه، فيما أمسك صديقها بعنقه يحاول أن يخنقه.

إلا أن صوفيا كانت ضئيلة وبالمثل صديقها (وبدا إميليو في المعركة قويًا وتمكن من التصدي لصوفيا وصديقها، اللذين ظهرا مثل توءمين) ولم يستمر القتال أو العراك الصوري طويلًا.

وتسبب الهلع الذي واجهه إميليو برغبة في نفسه للثأر، فأسقط صديق صوفيا على الأرض وجعل يكيل له الركلات والضربات إلى أن شعر بالإعياء.

وتسبب في كسر أكثر من ضلع له، بحسب ما قالت نوريا مشيرة: أنت تعرف مدى قوة إميليو. (لم أكن أعرف، ولكنني هززت رأسي موافقًا). وحين انتهى من الرجل التفت نحو صوفيا التي كانت تحاول الإمساك به من ظهره، بينما تكيل له الضربات التي لم يشعر بها إميليو من الأساس.

ثم صفعها على وجهها ثلاث صفعات (كانت هذه هي المرة الأولى التي تمتد يده لتضربها، حسبما ذكرت نوريا)، ثم غادر المكان. وبعد هذه الواقعة لم يعرفا شيئًا عنها، بالرغم من أن نوريا ظلت تشعر بالخوف لفترة، خصوصًا حين تعود من العمل.

قالت نوريا: أوضح لك تلك الأمور، تحسبًا إذا كنت ترغب في زيارة صوفيًا. فأجبتها إنني انقطعت عن رؤيتها منذ فترة، ولا أفكر في الرجوع إلى رؤيتها ثانية. ثم تبادلنا الحديث في شئون أخرى متعددة وذهب كل منا في طريقه. وبعد ذلك بيومين، لا أعرف ماذا دفعني للذهاب إلى منزل صوفيا، فتحت صوفيا الباب، وبدت أكثر نحافة كما لم أعهدها أبدًا من قبل. في البداية لم تتعرف عليَّ.

همست: هل تغيرت إلى هذا الحد يا صوفيًا؟

قالت: آه، أهذا أنت.

ثم سعلت وأفسحت الطريق، وهو ما فسرته خطأ من جانبي على أنه دعوة للدخول، بينما لم تعترض هي طريقي.

لم تبد الصالة أو حجرة الاستقبال التي حاولا فيها استدراج «إميليو» قذرة، ولكنها سيئة الإضاءة (النافذة الوحيدة المفتوحة تفضى لفناء مظلم وضيق). الأمر أن انطباعي الأول كان على العكس من ذلك.

جلست على المقعد الذي ربما هو نفسه الذي جلس عليه «إميليو» يوم المؤامرة، ثم أشعلت سيجارة.

ظلت صوفيا واقفة فيما تنظر إليّ وكأنها لا تعرف على وجه التحديد من أنا، كانت ترتدى جونلة صيفية ضيقة وطويلة، وبلوزة خفيفة وحذاء مفتوحًا، تحته جوارب غليظة تشبه تلك التي أستخدمها، ولكنني استبعدت هذا الاحتمال.

سألتها عن حالها ولم تجبني.

سألتها اذا كانت بمفردها، وإذا كان لديها شراب، وإذا كانت أمورها جيدة. لم تقف صوفيا، فتوجهت إلى المطبخ. لم أعثر على أي شيء ولا حتى عبوة بازلاء محفوظة. فتحت الثلاجة فلم أجد غير زجاجة مياه، ولكنني لم أجرؤ على الشرب منها.

عدت إلى الصالة مرة آخرى.

بقيت صوفيا ساكنة في المقعد نفسه، لم أعرف هل هي مدركة أم غائبة عما حولها، بدت مثل تمثال. شعرت بنسمة هواء بارد واعتقدت أن الباب مفتوح، ذهبت لأتأكد، ولكن

صوفيا أغلقته بعدما دخلت. تسلل إلى قلبي الشك.

ما حدث بعد ذلك غير محدد تمامًا، أو ربما أفضّل أن اعتبره غير محدد.

تأملت محيا صوفيا، بدا حزينًا أو مريضًا، ثم تأملت بروفايل وجهها، خالجني شعور أنني إذا بقيت ساكنًا، فسوف أنفجر في البكاء، اقتربت منها من الخلف وعانقتها، أتذكر أن الممر إلى حجرة النوم والحجرة الثانية كان ضيقًا. مارسنا الحب ذاك اليوم بهدوء لا يخلو من يأس، مثلما اعتدنا في الماضي.

كان الجو باردًا فلم أنزع ملابسي. إلَّا أن صوفيا خلعت ملابسها بالكامل.

قلت ببالي: إنك الآن متجمدة من البرد، وكأنك ميتة ووحيدة. ثم عدت لأراها في اليوم التالي وفي هذه المرة بقيت وقتًا أطول. تحدثنا عن فترة اقامتنا معًا، وبرامج التليفزيون التي اعتدنا رؤيتها حتى وقت متأخر من الليل. وسألتني إذا ما كان لديَّ تلفزيون في منزلي الجديد فأجبتها بالنفي. قالت: أفتقد هذه البرامج، خصوصًا الليلية منها.

قلت لها: الميزة في عدم وجود تلفزيون هي تكريس وقت أكبر للقراءة.

قالت: لم أعد أقرأ.

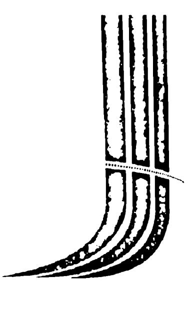
جعلت أطوف بأركان المنزل وكأنني أسير كالنائمين وكأن الوقـــت لا يمضي.

رأيت أشياء كثيرة ما عدا الكتب، وإحدى الحجرات كانت مغلقة بالمفتاح ولم أتمكن من الدخول. ثم عدت أشعر بخواء في صدري ثم سقطت على مقعد «إميليو». حتى هذه اللحظة لم أكن قد سألتها عن صديقها، ففعلت.

نظرت صوفيا إليَّ ثم ابتسمت، اعتقد أنها المرة الأولى التي تبتسم فيها منذ لقائنا.

كانت ابتسامة قصيرة لكنها رائعة.

قالت: لقد رحل، ولن يعود أبدًا. ثم ارتدينا ملابسنا وخرجنا لتناول عشائنا في أحد مطاعم البيتزا.



كــلارا

كانت امرأة ذات صدر ضخم، وساقين نحيفتين. أحب أن أتذكرها على هذا النحو. لا أعلم لماذا وقعت في غرامها، ما أعرفه أنني أحببتها بجنون، وفي الساعات والأيام الأولى، سارت الأمور على أفضل ما يكون. بعد ذلك عادت كلارا إلى مسقط رأسها في جنوب إسبانيا (لأنها كانت في رحلة إلى برشلونة) ثم بدأت الأمور تسوء.

رأيت يومًا في المنام ملاكًا، دخلت حانة ضخمة وخاوية، ورأيته جالسًا في أحد الأركان، وأمامه القهوة باللبن، مستندًا بمرفقيه على الطاولة. قال لي: إنها امرأة عمرك، فيما يتطلع إلى وجهي بنظرته الصريحة، نظرته النارية. جعلت أصرخ مناديًا على النادل، ثم استيقظت على الفور، هروبًا من هذا الحلم المحبط.

في بعض الليالي الأخرى، لم أحلم بأحد، ولكنني كنت

أستيقظ غارقًا في البكاء. خلال تلك الأثناء اعتدنا أن نتراسل أنا وكلارا، خطاباتها كانت مقتضبة: أهلًا، كيف حالك؟ السماء تمطر، أحبك، إلى اللقاء.

في البداية أصابتني تلك الخطابات بالخوف. اعتقدت أن كل شيء قد انتهى، هكذا اعتقدت، بالرغم من ذلك، فبعد دراسة الوضع توصلت إلى فكرة أن كتابتها الموجزة ربما تكون تخوفًا من ارتكاب أخطاء نحوية،تميزت «كلارا» باعتزازها بنفسها، ولم تكن تحب أن تكتب كتابات ركيكة، بالرغم من أن ذلك قد يضاعف معاناتي إزاء برودها البادي في خطاباتها.

كانت في الثامنة عشرة من عمرها حينذاك، هجرت الدراسة الثانوية ودرست الموسيقى في إحدى الأكاديميات الخاصة، ودرست أيضًا الرسم على يد مدرسي رسم متقاعدين متخصصين في المناظر الطبيعية. الحقيقة أنها لم تكن مهتمة بالموسيقى، وهو نفس ما نستطيع أن نقوله عن الرسم، ربما كانت تحبه ولكنها غير قادرة على التعلق به بشدة.

وفي يوم تسلمت رسالة مختصرة من رسائلها، تخبرني فيها أنها سوف تشترك في إحدى مسابقات الجمال، وأجبتها برسالة من ثلاث صفحات مكتوبة على الوجهين، أفضت فيها عن صفاء جمالها، وعذوبة عينيها، وحسنها البالغ، وأشياء من هذا القبيل. كان خطابًا يقطر إعجابًا مستهلكًا، حتى أنني ترددت في إرساله، ولكنني فعلت في النهاية.

ولم تصلني أخبار منها على مدار أسابيع.

كان في إمكاني أن أتصل بها تليفونيًا، ولكنني لم أفعل، أولًا لأنني اعتبرته تصرفًا غير لائق، وثانيًا لأنني كنت أكثر فقرًا من فأر جائع. وفازت «كلارا» بالمركز الثاني في المسابقة، وظلت مكتئبة لمدة أسبوع. ثم أرسلت لي تلغرافًا مفاجئًا قالت فيه: المركز الثاني. تسلمت خطابك. تعال لتزورني. وكانت النقاط بين الكلمات واضحة للغاية. بعد أسبوع، ركبت القطار وذهبت إليها في مدينتها. وقبل أن ترسل لي التلغراف، كنا نتحدث تليفونيًا، واستمعت إلى قصة ملكات الجمال أكثر من مرة.

وعلى ما يبدو أنها تأثرت بشكل بالغ بهذا الموضوع، وهكذا أعددت حقائبي وركبت القطار في اليوم التالي، متوجهًا إلى تلك المدينة التي أجهلها.

وصلت منزل كلارا في حدود الساعة التاسعة والنصف صباحًا. وكنت قد تناولت فنجانًا من القهوة بالمحطة، ودخنت كثيرًا كيلا أشعر بالوقت. فتحت لي الباب سيدة سمينة ومنفوشة الشعر، وحين أخبرتها أنني أبحث عن «كلارا»، بدا على وجهها الانزعاج الشديد، مثل نعجة تُساق إلى الذبح. وبعد مرور دقائق (بدت لي طويلة جدًا، ثم بعد ذلك وجدت أنني كنت محقًا) جلست وانتظرتها في الصالة، ولسبب غير منطقي بدت لي مريحة وإن كانت بالغة الزينة، ولكنها مريحة وجيدة الإضاءة.

وشعرت لدى رؤية كلارا أنني رأيت واحدة من الآلهة. أعرف أنه من الغباء أن أفكر على هذا النحو، أو أن أقول ذلك، ولكن هذه هي الحقيقة.

الأيام التالية التي قضيناها معًا تبادلنا فيها كلمات بعضها لطيف والبعض الآخر كريه، كنا نشاهد العديد من الأفلام، بمعدل فيلم واحد يوميًا، وكنا نمارس الحب (كنت أول من مارست معه كلارا الحب، وهو الأمر الذي يظل مثار عجب، ولكن لهذا السبب نفسه سأدفع الثمن غاليًا في المستقبل) اعتدنا التنزه وكنت ألتقي بأصدقائها، وذهبنا إلى حفلتين مروعتين. بعدها عرضت عليها أن تأتي لتقيم معي في برشلونة. وبالطبع في تلك الحال كنت أدرك تمامًا إجابتها، وبعد انقضاء شهر، ركبت القطار وعدت إلى مدينتي، وكانت رحلة فظيعة.

بعد ذلك بقليل أرسلت إليَّ «كلارا» خطابًا، كان هو الأطول على الإطلاق. أخبرتني فيه أنها لا تستطيع الاستمرار معي، وأن الضغوط التي جَعَلْتُها تتعرض لها (تقصد عرضي بأن تقيم معي) لا يمكن قبولها، وأن كل شيء قد انتهى. تحدثنا بعد ذلك مرتين أو ثلاثًا عبر الهاتف.

أعتقد أنني قد أجبتها برسالة، أهنتها فيها، وأيضًا أخبرتها أنني أحبها، وحين سافرت إلى المغرب اتصلت بها من الفندق الذي أقمت به في ميناء «الخيثيراس»، وتكلمنا بطريقة مهذبة هـــذه المـــرة، أو أن هـــذا ما اعتقدته هي، واعتقدته أنا.

بعد ذلك بسنوات، عادت «كلارا» لتقص عليَّ أجزاء من حياتها التي كانت قد فقدتها بشكل ميئوس منه. وبعد ذلك أيضًا بسنوات، عاد أصدقاء كلارا وقصوا عليَّ القصة نفسها. بداية من الصفر، أو انطلاقًا من لحظة انفصالنا، فالأمر بالنسبة

إليهم سيان (لأنني في نهاية الأمر لست إلَّا شخصًا غريبًا) وبالرغم من مقاومتي وإنكاري، فإن الأمر كان بالمثل بالنسبة لي.

لقد تزوجت «كلارا» بعد فترة الخطوبة (أعرف أن كلمة خطوبة مبالغ فيها، ولكن لا أجد كلمة أخرى) لقد تزوجت من الآخر، وهو أمر منطقي، أحد هؤلاء الأصدقاء الذين تعرفت إليهم حين قمت بزيارتها في مدينتها.

ولكن قبل ذلك، تعرضت إلى مشاكل عقلية، كانت تحلم بفئران، كنت أسمعها في الليل وهي في حجرتها، وقبل زواجها بأشهر، كانت تنام على الأريكة في حجرة الاستقبال. وأعتقد أنه بعد الزواج أختفت الفئران وخراؤها.

حسنًا، لقد تزوجت «كلارا»، وزوجها الذي تزوجته كان مفاجأة بالنسبة إليها. فبعد عام أو عامين، لا أتذكر على وجه التحديد، انفصلت كلارا عنه. ولم يكن الانفصال وديًا. صرخ الزوج في وجهها فبادلته الصراخ، صفعته كلارا على وجهه، فرد الصفعة وضربها بقدمه، فكسر فكها. أحيانًا حين يجافيني النوم، ولا أرغب في أن أضيء الحجرة، أتذكر كلارا، الفائزة بالمركز الثاني في مسابقة الجمال، وأراها بفكها المكسور، عاجزة عن تثبيته، هي وحيدة وتقود السيارة بيد واحدة، وتسند فكّها باليد الأخرى لتصل إلى المستشفى القريب. وأحب أن أضحك، ولكنني لا أقدر. ولكن ما يثير ضحكي بالفعل هو حفل الزفاف.

فقد أجرت جراحة بواسير، وهكذا لم تكن في كامل بهائها على ما أعتقد. أو ربما كانت جميلة. لم أجرؤ على سؤالها إذا ما كانت قد

مارست الحب مع زوجها. أعتقد أنهما قاما بذلك قبل إجراء العملية. في النهاية، كل ذلك لا يهم، فكل هذه التفاصيل تصف حالتي أكثر ما تصفها هي. المسألة أن «كلارا» انفصلت عن زوجها بعد عام أو عامين من زواجهما، ثم عادت إلى الدراسة ثانية.

لم تكن أنهت دراستها الثانوية، لذلك لم تتمكن من الالتحاق بالجامعة، ولكن فيما عدا ذلك فقد قامت بتجربة كل شيء مثل التصوير والرسم (لا أعرف لماذا كنت أتخيلها دائمًا فنانة تشكيلية) فضلًا عن الموسيقى والكتابة على الآلة الكاتبة وعلوم الحاسوب، وجميع التخصصات التي يلجأ إليها ولفرص عملها الشباب اليائسون. بالرغم من سعادة كلارا لانفصالها عن زوجها الذي اعتاد أن يضربها، فإنها كانت يائسة.

وعادت الفئران والإحباطات والأمراض الغامضة. فظلت تخضع لعلاج لمدة سنتين أو ثلاث من القرحة، وتكشف بعد ذلك أنها لم تكن تعاني شيئًا، على الأقل في المعدة.

وأعتقد أنها تعرفت على لويس في ذاك الوقت. كان موظفًا إداريًا وأصبح صديقها، ثم أقنعها بعد ذلك بأن تدرس إدارة الشركات. ووفقًا لأصدقاء كلارا، فقد عثرت على رجل عمرها. بعد وقت قصير أصبحا يعيشان معًا، وبدأت كلارا تعمل في أحد المكاتب القانونية، ثم انتقلت إلى شركة آخرى، لا أعلم بالضبط، ولكن يبدو أنها كانت وظائف مسلية بحسب ما قالت كلارا، دون أن تبدو في كلماتها لمحة للسخرية، وبدت حياتها تسير في مسارها الصحيح أخيرًا. كان لويس شخصًا

حساسًا (لم يضربها)، ومثقفًا (أعتقد أنه واحد من مليوني إسباني اشتروا أعمال موتسارت)، وصبورًا (اعتاد أن يسمعها في الأمسيات، وفي عطلة نهاية الأسبوع). وبالرغم من أن كلارا كان لديها دائمًا الكثير لتحكيه عن نفسها، فإنها تحدثت عنه كثيرًا. ولم تعد متضايقة من مسابقة الجمال، بالرغم من أنها كانت تذكرها من وقت لآخر، ولكنها كانت تتحدث عن احباطها المتتالي، ونزوعها نحو حافة الجنون، واللوحات التي طالما رغبت في رسمها ولم تفعل.

لا أعرف السبب في أنهما لم يرزقا بأطفال، ربما لم يمهلهما الوقت لذلك، على الرغم من أن لويس كان مهووسًا بالأطفال، بحسب ما أخبرتني كلارا. ولكنها لم تكن مستعدة. اعتادت تمضية وقتها في الاستذكار والاستماع إلى الموسيقى (موتسارت وبعد ذلك موسيقيين آخرين)، كما كانت تلتقط صورًا فوتوغرافية لا تريها لأحد. حاولت الحفاظ على استقلاليتها بطريقتها الغامضة عديمة النفع، كما حاولت حماية نفسها وتوسيع مداركها بالتعلم. مارست الحب مع زميل لها وهي في الواحدة والثلاثين من عمرها، مر الأمر ببساطة ولم تكن له أية عواقب، على الأقل بالنسبة إليها، ولكنها ارتكبت الخطأ وقصت الأمر على لويس.

دار بينهما شجار رهيب، فحطم لويس لوحة أو مقعدًا، كان هو نفسه قد اشتراه، أفرط في الشراب وفقد وعيه، ولم يحدثها لمدة شهر كامل. ووفقًا لكلارا، فإن الأمور منذ ذاك الحين لم ترجع إلى سابق عهدها بالرغم من تصالحهما ورحلة قاما

بها إلى أحد الشواطىء في الشمال، رحلة بدت حزينة وبلا طعم. وحين بلغت الثانية والثلاثين، تلاشت حياتهما الجنسية بالكامل. وحين أكملت ثلاثة وثلاثين عامًا، أخبرها لويس أنه يحبها ويحترمها ولن ينساها أبدًا، إلَّا أنه يخرج مع زميلته في العمل منذ فترة، وهي شابة مطلقة لديها أولاد، كما أنها فتاة طيبة ومتفاهمة، وأنه قرر الذهاب ليعيش معها.

في البداية تقبلت كلارا الانفصال بشكل جيد جدًا (كانت هي المرة الأولى التي يهجرها أحد). إلَّا أنها بعد أشهر، تعرضت لموجة اكتئاب حادة، اضطرتها للتخلي عن العمل بشكل مؤقت، وبدأت تلجأ إلى العلاج النفسي الذي لم يفدها كثيرًا. تسببت الأدوية التي كانت تتناولها في توقف حياتها الجنسية، على الرغم من أنها حاولت ممارسة الحب مع أشخاص عديدين، كنت واحدًا منهم. كان لقاؤنا قصيرًا وكارثيًا باختصار.

عادت «كلارا» لتحدثني عن الفئران التي لا تتركها في سلام، وحين تصيبها نوبة التوتر، لا تكف عن الذهاب إلى الحمام، والمرة الأولى التي حاولنا فيها قضاء الليلة معًا، ذهبت لتتبول عشر مرات، كانت تتحدث عن نفسها بضمير الغائب، وأخبرتني أن بداخلها ثلاث شخصيات: كلارا، طفلة، وعجوز جارية لعائلتها، وشابة، وهي كلارا الحقيقية التي ترغب في الانطلاق في المدينة فترسم، وتلتقط الصور، وتسافر وتعيش.

في الأيام الأولى للقائنا، شعرت بالقلق على حياتها، حتى كنت أخشى الخروج لأشتري شيئًا فأعود وأجدها ميتة، ولكن بمرور

الوقت تلاشت مخاوفي، (ربما لأني وجدت في ذلك راحة)، اقتنعت أنها لن تقدم على الانتحار، أو القفز من الشرفة أو فعل شيء آخر.

بعد قليل، غادرت، ولكنني هذه المرة تعمدت أن أتصل بها على فترات متقاربة، وأن أتواصل مع واحدة من صديقاتها المقربات لتطلعني على أحوالها، (وإن كان ذلك عن طريق التجسس).

وهكذا عرفت أشياء كنت أود ألّا أعرفها، فصول من حياتها أرقتني، وقصص قد يفضل شخص أناني ألّا يعرفها.

ثم عادت كلارا إلى العمل (فالأقراص الجديدة التي تناولتها كان لها أثر السحر في رفع حالتها المعنوية)، وبعد زمن قليل، وربما على سبيل الانتقام من أجازتها الطويلة، أرسلوها في العمل إلى مدينة أخرى في الجنوب الأندلسي إلى جوار مدينتها.

وقررت هناك أن تنتظم في صالة الألعاب الرياضية (عندما رأيتها وقد بلغت الثالثة والأربعين لم تكن بمثل الجمال الذي كانت عليه في سن السابعة عشرة). وبدأت تكون صداقات جديدة، وهكذا تعرفت على باكو وكان مطلقًا مثلها.

تزوجا بعد وقت قصير. اعتاد باكو أن يثني على رسومات كلارا وتصويرها الفوتوغرافي أمام من كان يرغب في الاستماع إليه. واعتقدت كلارا أن باكو شخص ذكي ولديه ذوق رفيع. وبمرور الوقت توقف باكو عن الإعجاب بأعمال كلارا الفنية، وأراد أن ينجب طفلًا. في ذاك الوقت كانت كلارا في الخامسة والثلاثين من عمرها، وفي البداية لم ترق لها الفكرة، ولكنها قبلت

في النهاية ورزقا بطفل. ووفقًا لما قالته كلارا فقد ملأ الطفل أوقاتها وتغلب على طموحها، هذه هي الكلمة المناسبة، لما حكاه أصدقاؤها، فكان كل يوم أسوأ مما قبله، أي أن الأمور كانت سيئة في عمومها. وفي إحدى المناسبات، ولأسباب لا يأتي ذكرها هنا، اضطررت للمرور بالمدينة التي تعيش بها كلارا. اتصلت بها من الفندق، وأخبرتها بمكاني، وتحديدًا لنتقابل في اليوم التالي.

كنت أفضل رؤيتها في الليلة نفسها، ولكن على الأرجح أن كلارا اعتبرتني عدوًا لها، خصوصًا بعد الليلة الأخيرة لنا، ولذلك لم أُصِرُّ. حين رأيتها لم أتعرف عليها بسهولة، ازداد وزنها، واكتسى وجهها بعلامات الانهزام المعتادة في أوقات إحباطاتها بالرغم من الأصباغ على وجهها، وهو ما أدهشني، لأنني لم أعتقد أبدًا في داخلي أن كلارا تطمع في أي شيء. (إذا كانت لا تطمع في شيء، فماذا يتسبب في إحباطها؟) بالمثل تغيرت ابتساماتها، كانت دافئة وبها شيء من البلاهة، والآن أصبح يشوبها شيء من الخبث والبغض والاستياء، والغضب والحسد.

تبادلنا قبلتين على الوجنتين ببلاهة، وجلسنا لبرهة، لم نعرف ماذا نقول. ثم كسرت الصمت وسألتها عن ابنها، فأخبرتني بأنه في الحضانة ثم سألتني عن ابني. فأجبتها أنه بخير. أدركنا أن لقاءنا لن يتخطى كونه لقاءً حزينًا لا يمكن احتماله.

سألتني كلارا: كيف تجدني؟ بدا لي السؤال وكأنها طلبت مني صفعها على وجهها.

فأجبتها بآلية: مثلما كنت دائمًا. أتذكر أننا تناولنا فنجانًا من القهوة ثم قمنا بجولة في الطريق المفضي إلى المحطة مباشرة لأن قطاري كان سينطلق بعد وقت قصير، ولم أرها بعد ذلك أبدًا. كنا نتحادث تليفونيًا قبل وفاتها، اعتدت الاتصال بها كل ثلاثة أو أربعة أشهر.

ومع الوقت تعلمت ألَّا أسألها أبدًا أسئلة شخصية، كنا نتحدث عن العائلة، العائلة من وجهة نظر مجردة مثل نصيدة تكعيبية (بالطريقة نفسها التي يتكلم بها شخص في البار مع أقرانه عن كرة القدم) كنا نتكلم عن ابنها، وعملها في الشركة، التي تعرفت فيها على الحياة الشخصية لزملائها، وألاعيب المديرين السرية التي كانت ترضيها لحد كبير، وفي هذه المناسبات حاولت أن أنتزع منها أية معلومة عن زوجها، ولكنها كانت تغلق فمها تمامًا.

قلت لها ذات مرة: إنك تستحقين ما هو أفضل من ذلك.

فأجابتني: هذا مثير للاهتمام؟

فرددت بالسؤال: ما المثير للاهتمام؟

فأجابت: مثير للاهتمام ما تقوله، أن يصدر عنك بالذات.

حاولت أن أغير الموضوع، فقلت إن عملاتي قد نفذت (لم يكن لديَّ تليفون ثابت أبدًا، ولن يكون لي هاتف ثابت) كنت أحادثها دائمًا من التليفونات العامة، فودعتها بسرعة وأغلقت الخط. لم أعد قادرًا على الجدال مع كلارا، أو الاستماع لحديثها مجددًا.

وذات مساء أخبرتني أنها مريضة بالسرطان. كان صوتها باردًا مثل المعتاد، الصوت نفسه الذي أخبرتني به منذ سنوات أنها سوف تشترك في مسابقة الجمال، الصوت نفسه الذي تتحدث به عن تفاصيل حياتها المجردة، وكأنه لراوية متكلف غير كفء، يضع علامـــات تعجب بينمـــا لا يقتضي الأمر ذلك، ويختفي صوته حين يتوجب ظهوره في النص، غائر في جرحه.

أتذكر، أتذكر أنني سألتها عمّا اذا كانت قد ذهبت لرؤية طبيب أم أنها بمفردها (أو برفقة باكو) قد تمكنت من التشخيص. فأجابتني: نعم بالطبع، سمعت صوتًا صادرًا في الجهة الآخرى يقطر تشاؤمًا. بعد ذلك ضحكت، وتحدثنا عن الأبناء، ثم طلبت مني أن أحكي لها شيئًا عن حياتي، ربما بدافع الوحدة أو الملل.

اخترعت شيئًا خطر ببالي قصصته عليها، ثم حادثتها في الأسبوع التالي. تلك الليلة استغرقت في النوم كأسوأ ما يكون، رأيت في منامي كابوسًا تلو الآخر، ثم استيقظت فجأة وأطلقت صرخة، على يقين بأن كلارا كذبت عليَّ، وأنها ليست مريضة بالسرطان، وأن شيئًا ما يصيبها منذ عشرين عامًا لا شك. شيء صغير ومكدر، يجمع ما بين الهراء والابتسامات، ولكن ألّا تكون مصابة بالسرطان.

دقت الساعة الخامسة صباحًا، استيقظت وتوجهت إلى الممشى البحري في اتجاه الريح، وهو مما يثير الدهشة، لأن الرياح غالبًا ما تأتي صوب الاتجاه المعاكس من البحر نحو المدينة، وفي مرات قليلة تكون من قلب المدينة ناحية البحر.

واصلت السير حتى وصلت إلى كابينة التليفون العمومي بجوار إحدى المقاهي الكبيرة بالممر البحري، وكانت مغلقة والمقاعد مربوطة بالموائد بسلاسل، وشاهدت متسولًا نائمًا بعيدًا وركبتيه إلى أعلى، وينتفض من وقت لآخر، وكأنه يحلم بكوابيس. طلبت رقم التليفون الوحيد في دفتر أرقام الهاتف للمدينة التي تسكن بها كلارا، وهي ليست مدينتها الأصلية. وبعد فترة طويلة أجاب صوت امرأة. سألتها من تكون، ثم أحسست فجأة بأنني غير قادر على الكلام. سمعت صوت نقرات متقطعة ثم شفاه تزفر دخانًا.

سألتني السيدة: هل مازلت هناك؟

أجبتها: نعم.

سألتني: هل تحدثت مع كلارا.

أخبرتها بالإيجاب، فسألتني ثانية: هل أخبرتك أنها مريضة بالسرطان؟

قلت لها: نعم أخبرتني.

قالت: إنها الحقيقة.

أحسست فجأة بالسنوات الماضية تجري أمام عيني، وتظهر لقطات لقاءاتي بكلارا خلالها، وآخرى لم تظهر بها. لا أعرف ما الذي قالته المرأة في الهاتف عبر مسافة تتجاوز ألف كيلو متر بين الطرفين، أعتقد أنني وبالرغم مني -مثلما في قصيدة «روبن داريو» - وجدتني أبكي، بحثت عن السجائر في

جيبي، وسمعت كلمات من قصص متقطعة، أطباء، عمليات، استئصال ثدي، مناقشات، وجهات نظر مختلفة، مداولات، جميعها تشير إلى كلارا التي لن أتمكن من إنقاذها أبدًا.

حينما وضعت السماعة وجدت المتسول واقفًا إلى جواري، على بعد متر تقريبًا. لم أسمع خطواته وهو يقترب مني، كان طويلًا، متدثرًا بثياب ثقيلة لا يتطلبها الجو، نظر إليَّ بثبات وكأنه قصير النظر، أو يخشى ردة فعلي.

كنت حزينًا لدرجة كبيرة، حتى أنني لم أشعر بالخوف، على الرغم من ذلك، عندما خرجت إلى الشوارع الملتوية للمدينة أدركت أنني نسيت كلارا وأن ذلك لن يدوم.

تحدثنا مرات عديدة. في بعض الأحيان كنت أحادثها مرتين في اليوم، مكالمات قصيرة، سخيفة، أقول فيها كل شيء فيما عدا ما رغبت في قوله بالفعل، فكنت أتكلم في أي شيء، أول ما يخطر ببالي وقد يكون بلا معنى، فقط لمحاولة إضحاكها.

في بعض الأحيان كان الحزن العميق يتملكني، وحاولت أن أستدعي الأيام الخوالي، ولكن كلارا كانت تتحصن بدرعها الجليدي الواقي، وبعد قليل بدأت أفقد حزني. وضاعفت مكالماتي لها قبل خضوعها للعملية. وذات مرة تحدثت مع ابنها، ومرة أخرى مع باكو. وكانا بحالة جيدة، لمحت ذلك في صوتهما، بل كانا أقل توترًا منِّي. ربما أكون مخطئًا، بل مؤكد أنني مخطىء. قالت لي كلارا ذات مساء إن الجميع يشعر

بالقلق من أجلي. وأعتقدت أنها تقصد زوجها وابنها، ولكن اتضح أن هؤلاء «الجميع»، كانوا أكثر بكثير مما تخيلت.

اتصلت بها قبل يوم من التاريخ المحدد لدخولها المستشفى.

أجابني باكو. لم تكن كلارا موجودة، فمنذ يومين لم يعرف أحد أين ذهبت، وفهمت من نبرة صوت باكو أنه يشك في وجودها بصحبتي.

قلت له بصراحة إنها ليست معي. في تلك الليلة تمنيت من كل قلبي أن أرى كلارا في بيتي.

انتظرتها والمكان مضاء، ثم استلقيت على الأريكة وغرقت في النوم، فحلمت بامرأة. رائعة الجمال، لم تكن كلارا، بل امرأة أخرى طويلة، صدرها صغير، نحيفة، وساقاها طويلتان، عيناها عسليتان وعميقتان، امرأة لن تكون كلارا أبدًا، ووجودها يجُب خيال كلارا، تركتها في شبحها الأربعيني ترتعش وتضيع.

لم تحضر إلى منزلي. عاودت الاتصال بباكو اليوم التالي. واتصلت مجددًا بعد يومين، ولم تظهر كلارا. والمرة التالية، شكا باكو من سلوك كلارا وتحدث عن ابنه. كنت أتساءل في كل الأيام التالية عن مكانها. وفهمت من نبرة صوته وتحول موقفه أنه كان في حاجة إلى صداقتي، أو صداقة أي شخص آخر. ولكنني لم أكن في حالة تسمح لي بمنحه هذه السلوى.



جوانا سلفيستري

إلى بــاولا ماســوت

هذه هي أنا، «جوانا سلفيستري»، ٣٧ عامًا، ممثلة أفلام إباحية، ولي صورة بوستر بعيادة "لوس ترابيثيوس دى نيمس" أمضي الأمسيات وأشاهد مسلسل شهير لأحد المخبرين في شيلي.

أتساءل: عمن يبحث هذا الرجل؟ أعن شبح؟ إنني أعرف الكثير عن عالم الأشباح. قلت ذات مرة لرفيقي

في لقائنا الثاني، وكانت المرة الأخيرة التي التقينا فيها حين جاء لزيارتي، عندئذ افتعل ابتسامة فأرة عجوز، فأرة عجوز توافق على الأشياء دون حماسة، فأرة عجوز مؤدبة بشكل خارق للواقع.

على كل حال، الشكر على باقة الزهور، الشكر على المجلات،

ولكنني قلت له: أنني لا أتذكر الشخص الذي تبحث عنه.

قال لي: لا تجهدي نفسك، مازال لديَّ وقت.

وحين يقول رجل إنه لازال لديه وقت، فمعنى ذلك أنه قد وقع في المصيدة (وحينها فمن غير المنطقي أن يكون لديه وقت من عدمه)، وهكذا تستطيع المرأة أن تفعل ما يحلو لها. وبالطبع فهذا يشوبه شيء من الكذب لا جدال.

أحيانًا أتذكر الرجال الذين رأيتهم عند حذائي وأغلق عيني، وحين أفتحهما أنظر إلى جدران الحجرة لأجدها مطلية بألوان، وليست بالأبيض الباهت الذي أطالعه كل يوم، ولكنني أرى اللون القرمزي المتعرق، الأزرق المثير، مثل لوحات «أتيليو كورسيني»، شيء كالعدم. مثل صور لا فائدة منها، تفضل المرأة عدم تذكرها، ومع ذلك تلح عليها فتدفعها لوقع ثقلها، وذكريات أخرى لونها أحمر قان، تبعث أمسيات مرتجفة في موجات رقيقة، كان من الصعب تحملها في البداية، ولكن أصبحت ممتعة فيما بعد.

الحقيقة أن الرجال الذين قابلتهم وكانوا عند حذائي قليلين، ربما اثنين أو ثلاثة، وانتهوا جميعًا وراء ظهري، ولكن هذا هو قدر العالم الأزلي. ولكنني لم أقل ذلك للمحقق الشيلي، بالرغم من أن ذلك هو ما كنت أفكر به في تلك اللحظة، وكنت أرغب في مشاطرته أفكاري، رغم أنه رجل غريب تمامًا بالنسبة لي. ولأتجاوز هذه الحساسية، عاملته على أنه محقق، قلت

أشياء عن الوحدة والذكاء، وبالرغم من أنه قال بسرعة إنه لبس محققًا سريًا «يا سيدة سلفيستري»، ولكنني لاحظت إعجابه بكلماتي، فنظرت إليه في عينيه وأنا أنطق بكلماتي، وبالرغم من أنه ظاهريًا ظل ساكنًا، فإن آيات الانفعال بدت عليه، ولاحظت نبضات على وجهه وكأن طائرًا اخترق رأسه. وهكذا جلب الشيءُ الشيءَ.

لم أقل له شيئًا عما كان يجول في رأسه، بل شيء ينال إعجابه.

قلت شيئًا أعرف أنه سيجلب له ذكريات محببة.

مثلما يحادثني الآن أي شخص عن مهرجان سينما البورنوجرافيا بمدينة «سيفينافيتشيا»، ودورة سينما الإثارة في برلين، ومعرض السينما والفيديو البورنوجرافي في برشلونة، فيستحضر نجاحاتي، حتى نجاحاتي الخيالية، أن أتحدث عن عام ١٩٩٠، أفضل الأعوام في حياتي، حين سافرت إلى «لوس أنجلوس» سافرت إلى «ميلانو» ومنها إلى هناك، وتوقعت أن الرحلة ستكون مرهقة، ولكنها على العكس، مرت مثل الحلم، مثل ذاك الحلم الذي رأيته في الطائرة، على الأرجح لأنني كنت أعبر المحيط الأطلنطي، فرأيت أن الطائرة المتوجهة إلى المدينة الأمريكية، غيرت مسارها نحو الشرق، فهبطت في تركيا والهند والصين، ومن الطائرة، التي لا أعلم سبب هبوطها على هذا النحو (ومن دون أن يشعر الركاب بأي خطر)، تمكنت من رؤية عربات القطارات، عربات مستطيلة وطويلة،

تسير بحركة جنونية، ولكن بدقة فائقة مثل الساعة، يجوب أراض تلك البلاد التي لا أعرفها (إلَّا إذا استثنيت رحلة كنت قمت بها إلى الهند عام ١٩٨٤، ولكن الأفضل عدم تذكرها)، الركاب يصعدون ويهبطون، تُفرغ أمتعة وتُحمل آخرى، كل شيء بنظام دقيق، وكأنها أحد أفلام الرسوم المتحركة. التي يتحدث خلالها متخصصو الاقتصاد، فيشرحون حالة الأشياء، منشأها وموتها والتغيرات التي تمر بها.

وحين وصلت إلى لوس أنجلوس كان في انتظاري بالمطار «روبي بانتوليانو» شقيق «أدولفو بانتوليانو»، وذهب فور أن شاهد شقيقه، وأدركت أنه فارس حقيقي، على العكس تمامًا من شقيقه أدولفو (فليحفظه الرب في عظمته السماوية أو حتى في المظهر، لا أتمنى الجحيم لأحد)، وحين خرجت كانت في انتظاري سيارة ليموزين، من الطراز الذي تراه في لوس أنجلوس فقط، وليس حتى في نيويورك، فقط في «بيفرلي هيلز» أو في »أورانج»، ثم أوصلوني إلى الشقة التي أستأجروها من أجلي، منزل صغير ولكنه رائع وقريب من الساحل.

وبقي معي روبي وسكرتيره روني لترتيب أغراضي (بالرغم من أنني أخبرتهما أنني أفضل ترتيب حقائبي بنفسي)، كما أرشداني على طرق تشغيل المنزل، وكأنهما يعتقدان أنني لا أعرف ما هو جهاز الميكروويف، فالأمريكيون أحيانًا يكونوا هكذا، أدبهم الشديد أحيانًا ما يؤدي إلى سوء أدب غير مقبول، ثم قاما بتشغيل شريط فيديو لأتعرف على زملائي

وزميلاتي، «شان بوجارت»، وكانت أعرفه من خلال فيلم صورناه من إنتاج شقيق روبي، و«بول إدواردز» ولم أكن أعرفه هو أو «دارس كريسك»، وربما سمعت عن «جاليلو بوالاني»، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة آخرين، ثم ذهب [illegible] وبقيت بمفردي، فأحكمت إغلاق الأبواب مرتين مثلما أصروا على أن أفعل، ثم أخذت حمامًا وارتديت روبا أسود، وبحثت عن فيلم أبيض وأسود في التلفزيون، شيء ما ليجعلني أشعر بالاطمئنان، ولم أعرف متى غافلني النوم بينما أنا مستلقية على الأريكة.

وبدأنا التصوير في اليوم التالي. كان كل شيء مختلفًا بحسب ما أتذكر.

صورنا أربعة أفلام في أسبوعين. بالفريق نفسه تقريبًا، وتحت أوامر روبي بانتوليانو. كان كأنه يلهو ويعمل في الوقت نفسه. كان الأمر بمثابة رحلة إلى الريف ينظمها البيروقراطيون، أو موظفو المكاتب، وخصوصًا في روما. يذهبون إلى الريف مرة كل أسبوع فينسون مشاكل العمل، ولكن هذا أفضل، الشمس والبحر، ولقاء الأصدقاء، والأجواء المحيطة بالتصوير، كل ذلك كان أفضل.

ربما تبقت بعض الشرور، ولكنها محدودة، مثلما يجب أن تكون. وقد علقت على الأمر والتغيرات مع «شان بوجارت» وفتاة أخرى، وقد أرجعته إلى وفاة «أدولفو بانتوليانو»، رجل العصابات وأحد أسوأ المهربين والقوادين، فكان يسيء

لفتيات الليل البائسات، واختفاء عنصر مثله له تأثير بالغ. واستُقبِل بسعادة كبيرة حتى من شقيقه نفسه. الذي لم يصرح علانية بالتغيرات التي شملت هذا النوع من الصفقات. وجدد منظومة من الأشياء المؤثرة في هذه الصناعة وأموالها. مثل اشتراك آخرين من قطاعات مختلفة. والمرض أحيانًا. والتحدي في إنتاج جديد في نوع الصناعة نفسها. ثم بدأوا بالحديث عن الأموال، وفي القفزة النوعية التي قدمتها نجمات البورنو في شرائط السينما في تلك الأيام. ولكنني لم أستمع إليهم، ركزت انتباهي في حديثهم على موضوع الأمراض. وعن «جاك هولمز»، الذي كان منذ سنوات قليلة أهم وأشهر نجوم البورنو في كاليفورنيا، وحين انتهينا أخبرت روبي وروني أنني أحب أن أطّلع على أخبار جاك هولمز، وإذا كان بالإمكان الحصول على رقم هاتفه، وإذا ما كان لازال يعيش في لوس أنجلوس. وبالرغم من أن الفكرة بدت لهما غريبة، فإنهما أعطياني الرقم في النهاية، وقالا إنهما يفعلان ذلك إرضاء لرغبتي، على ألّا أعوّل كثيرًا على النجاح في الاتصال به، والاستماع إلى ذاك الصوت المألوف. وتناولت العشاء ذاك اليوم مع روبي وروني و«شارون» جروف التي كانت تشارك في أفلام الرعب، وصرّحت أنها سوف تشارك فيما بعد في أعمال مع «كاربنتر» أو كليف باركر، وهو ما تسبب في إثارة غضب روني الذي لم يسمح بعقد مقارنات من هذا النوع في العمل، معلقًا أن القياس مع كاربنتر لا يقدر عليه سوى قليلون جدًّا. وكان في حفل العشاء «داني لوبيو» وكان

لي معه قصة حين عملنا معًا في ميلانو. وأيضًا «باتريشيا باجى» زوجته ذات الثمانية عشرة عامًا. التي ظهرت في أفلام «داني»، ووقعت عقدًا سمح لزوجها فقط خلال تصوير أحد المشاهد بمضاجعتها بالكامل. فيما مع الآخرين يقتصر أداؤها على لعق العضو وحسب. ونظرًا للاشمئزاز الناجم عن ذلك. عاني المخرجون مشاكل معها، ووفقًا لما قاله روني فإنها آجلًا أو عاجلًا سوف تعيد النظر في هذه المهنة. أو أن تفجر مع داني أعمالًا بقوة الديناميت.

كنت هناك أتناول العشاء في أحد أفخم المطاعم في فينيسيا ، أتأمل البحر بينما أجلس على المائدة. منهكة بعد يوم عمل شاق، ودون أن أعير أي اهتمام إلى الحديث الساخن الدائر بين رفاقى، تركز كل تفكيرى في جاك هولمز. الشاب الطويل النحيف، بأنفه المستقيمة، وذراعيه الطويلتين مكسوتين بالشعر الغزير مثل القرد. ولكن إلى أية فصيلة قرود قد ينتمي جاك؟ قرد في الأسر. هذا هو بلا شك. أم قرد حزين. مع أن ملامحه تبدو كذلك في الحزن وليس في شيء آخر. وانتهى العشاء مبكرًا نوعًا ما، مما يسمح لي بمكالمة جاك في منزله دون إزعاجه، فالعشاء في كاليفورنيا يكون في وقت مبكر، أحيانًا قبل أن يحل الظلام.

لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، طلبت منهما تليفونه الجوال، ثم توجهت إلى إحدى الشرفات المطلة على رصيف خشبي مخصص للسائحين، بالإمكان الشعور بالأمواج أسفله، وكانت

حركتها هادئة وقصيرة المدى لحد ما، دون رغام، تتكسر في سكون كأنه طول الدهر. اتصلت بجاك هولمز.

لم أتوقع أن يجيبني، هذه هي الحقيقة.

في البداية لم أتعرف على صوته، ربما مثلما قال روبي، وهو بالمثل لم يتعرف على صوتي.

قلت له: هذه أنا، «جوانا سيلفستري»، إنني في لوس أنجلوس. انتاب جاك صمت لفترة طويلة، ثم لاحظت على حين غرة، أنني أرتعش، وبالمثل الرصيف الخشبي، وأصبحت الرياح باردة، تلك الرياح التي لفحتني أثناء وقوفي عبر العواميد الخشبية، والتي جعلت سطح الأمواج يبدو بلا نهاية، ثم نطق جاك: جوانا، لقد مضى وقت طويل، إنني سعيد بسماع صوتك، وقلت لنفسي وأنا أيضًا سعيدة جدًّا بسماعك، ثم توقفتُ عن الارتعاش وكففت عن النظر لأسفل، وجعلت أنظر للأفق وأضواء المطاعم على الشاطئ، حمراء، وزرقاء، وصفراء، بدت لي هذه الأضواء تعسة في بداية الأمر، على أنني شعرتُ فيها بشيءٍ من السلوى، ثم سألني جاك: متى أستطيع رؤيتك جواني؟

شعرت لثوان وكأنني أطفو فوق نسمات الهواء، وكأنني منتشية أغزل جدائل من الكريستال اللامع، ثم استعدت الوعي وضحكت، وفهم هو على الفور مما كنت أضحك دون الحاجة إلى سؤال أو لأن أقول شيئًا.

أجبته: كما تشاء جاك.

قال: لا أعرف ما إذا كنت تعلمين أنني لم أعد بلياقة الماضي نفسها. فسألته: هل أنت بمفردك يا جاك؟

فقال: إنني دائمًا بمفردي.

فوضعت السماعة وطلبت من روبي وروني أن يخبراني بعنوان جاك. فأخبراني أنني قد أضل الطريق، وأننا سنبدأ التصوير غدًا في ساعة مبكرة، ولن يحملني تاكسي إلى هناك لأن جاك يقطن في «مونوروفيا»، في بيت من طابق واحد في مكان بعيد ومهجور، وقلت لهم إنني سأذهب اليوم مهما كلفني الأمر.

فقال لي روبي: خذي سيارتي البورش، على شرط أن تعودي غدًا في الموعد المحدد. فقبلتهما ثم أخذت السيارة البورش، وانطلقت أجوب طرق لوس أنجلوس وبدأ الليل يسقط، وكأنني في إحدى أغنيات «نيكولادي باري»، تحت عجلات المساء، ولم أرغب في الاستماع إلى موسيقى، بالرغم من وجود جهاز سي دي حديث ربما ديجيتال أو ليزر بسيارة روبي.

ولكنني لم أكن في حاجة إلى موسيقى، كفاني أن أدير السيارة وأستمع إلى صوتها.

ضللت الطريق أكثر من اثنتي عشرة مرة، وكلما سألت شخصًا كيف أصل إلى مونوروفيا، أخبرني بوصف جعلني أشعر أنني أكثر بعدًا عن الطريق، ولكنني لم أرغب في العودة، بل قضاء الليل كله في السيارة البورش، كنت أغني

إلى أن وصلت إلى مونوروفيا، وهناك جعلت أبحث لمدة ساعة أخرى عن شارع «جاك هولمز» وحين عثرت على منزله، كان الليل قد انتصف.

مكثت في السيارة برهة لا أرغب ولا أقدر على الخروج، أنظر إلى نفسي في المرآة، شعري أشعث، ووجهي سالت عليه الأصبغة، من عيني وشفتي، وتراب الطريق على وجنتي، وكأنني أتيت جريًا، أو كأنني كنت أبكي طوال الطريق، عيناي كانتا جافتين (ربما يشوبهما إحمرار ولكنها جافتان)، ولم أعد أرتعش، وشعرت برغبة في الضحك، وكأن أحدًا ما ألقى بشيء من المخدرات في عشائي عند الشاطئ، وحينها أدركت أنني منتشية وسعدت بذلك. ثم نزلت من السيارة، وضبطت جهاز الإنذار، بالرغم من أن الحي لم يتطلب هذه الدرجة من الحذر، وسرت نحو المنزل، وكان مثلما وصفه روبي تمامًا، بيت صغير في حاجة إلى طلاء، وسقفه متداع، والعديد من الألواح الخشبية على وشك الانهيار، وإلى جواره حمام سباحة صغير، إلَّا أن مياهه نظيفة، وهو ما لاحظته على الفور لأن أضواء المسبح كانت مضاءة.

فكرت أنه على الأرجح أن جاك لا ينتظرني، أو أنه نائم بداخل المنزل، فلم تكن الأنوار مضاءة.

كانت الأرض تصدر صريرًا لدى سيري عليها، ولم أجد جرسًا لدى الباب، فطرقت عليه، في المرة الأولى بأطراف أصابعي ثم بكفي، فأضاء نور وسمعت شخصًا يتحرك من

داخل المنزل، ثم فتح جاك الباب وبدا عند العتبة، بدا أكثر طولًا ونحافة وقال: «جواني»؟ وكأنه لم يتعرف عليَّ أو كأنه لم يستيقظ بعد، فأجبته: نعم يا جاك، إنه أنا، تعبت حتى عثرت عليك، ولكنك الآن هنا، ثم احتضنته. في تلك الليلة تحدثنا إلى الساعة الثالثة صباحًا.

ونام جاك أثناء الحوار مرتين على الأقل.

بدا عليه التعب والوهن، بالرغم من أنه بذل جهدًا ليبقى متيقظًا.

في النهاية لم يستطع المواصلة وأخبرني أنه سيذهب لينام.

وأخبرني: ليس لديَّ حجرة للضيوف جواني، فاختاري ما بين الفراش أوالأريكة.

قلت له: فراشك ومعك، إلى جوارك.

فأجاب: حسنًا، فلنذهب. أمسك بزجاجة تكيلا وذهبنا معًا.

قلت له: منذ سنوات طويلة لم أر حجرة بمثل هذه الفوضى، هل لديك منبه؟ فقال: لا يا جواني في هذا المنزل لا توجد ساعات. ثم أطفأ الأنوار وخلع ملابسه ودس نفسه في الفراش. لاحظته وأنا واقفة دون أن أتحرك. ثم توجهت إلى النافذة وفتحت الستارة، لكي أستيقظ عند ضوء الفجر. وحين دلفت إلى الفراش بدا جاك نائمًا، ولكنه لم يكن قد نام بعد، فقد تناول جرعة من التكيلا، ثم قال شيئًا لم أفهمه.

مررت بيدي على بطنه وجعلت أداعبه إلى أن غرق في النوم.

ثم أمسكت بعضوه وكان باردًا مثل الثعبان.

بعد ذلك بساعات استيقظت، فأخذت دشًا ثم أعددت الفطور، وتبقَّى وقت لديَّ لأرتب الصالة والمطبخ. تناولنا فطورنا بالفراش، وبدا جاك سعيدًا لرؤيتي، ولكنه تناول قهوة فقط.

قلت له إنني سأعود هذا المساء وعليه أن ينتظرني، لأنني لن أتأخر هذه المرة، فأجابني: تعال وقتما تشاءين جواني، فليس لديَّ شيء لأفعله، بدت لي كلماته وكأنها دعوة تخبرني بألا أعود مرة ثانية إلى هناك، ولكنني قررت أن جاك في حاجة إليَّ، وأنا أيضًا في حاجة إليه. سألني: مع من تعملين؟

أجبته: مع «شان بوجارت».

قال: إنه شاب جيد.

عملنا معًا في بداية نشاطه، شاب متحمس، ولا يحب أن يزج بنفسه في مشاكل.

أجبته: فعلًا، إنه شاب جيد.

وأين تعملون، في فينيسيا؟

أجبت: نعم، في المنزل المعتاد نفسه.

سألني: هل تعلمين أن «أدولفو العجوز» قد قُتل؟

أجبته: طبعًا أعرف ذلك يا جاك، فقد وقع هذا منذ سنوات.

قال: لا أعمل كثيراً منذ سنوات.

ثم قبلته في شفتيه قبلة صبية صغيرة، فوق شفتيه الباردتين الرفيعتين الجافتين، ثم ذهبت.

كانت الرحلة أكثر سرعة هذه المرة، وصاحبتني أشعة الشمس في كاليفورنيا، أشعة شمس حوافها لامعة معدنية، تجري إلى جواري. ومنذ هذه اللحظة كنت أذهب إلى منزل جاك بعد انتهاء جلسات العمل، فنخرج معًا، استأجرت سيارة «الفاروميو» بمقعدين، فكنا ننطلق بها حتى الجبال حيث «ريدلاندس»، ثم نذهب إلى «بالم اسبرنج» من طريق (١٠)، وأيضًا «بالم ديسرن»، و«إنديو»، إلى أن نصل إلى «سالتون سي»، وهي بحيرة كبيرة، وليست بحرًا، وهي بحيرة قبيحة جدًا، وتناولنا هناك طعامًا نباتيًا، وهو ما كان جاك يتناوله في ذاك الوقت من أجل صحته.

ذات يوم ركبنا السيارة ووصلنا إلى «كاليباتريا»، جنوب غرب البحيرة، وذهبنا إلى زيارة أحد أصدقاء جاك، يعيش في منزل من طابق واحد أسوأ من منزل جاك، وكانت زوجته تدعى «ميزكال»، ولا أعلم هل لهذا علاقة بالمشروب المسمى بهذا الاسم، على الرغم من أننا لم نتناول غير البيرة (بينما لم أستطع تناول البيرة لأنها تزيد الوزن)، ثم أخذ ثلاثتهم حمام شمس، واغتسلوا بعد ذلك بخرطوم ماء، وارتديتُ «مايوه بيكيني» وكنت أنظر إليهم، لا أفضل التعرض إلى الشمس بكثرة لأن جلدي ناصع البياض، وأحب الحفاظ عليه، ولكن بالرغم

من أنني أبقى في الظل، ولا أستحم بخرطوم المياه، فإنني أحب أن أبقى لأتطلع إلى جاك، وإلى ساقيه اللتين أصبحتا أكثر نحافة مما عهدتهما، وأنظر إلى جذعه الذي أصبح أكثر تجويفًا، إلَّا أن عضوه بقي على حاله، وبالمثل عينيه، ولكن الأقوى عضوه، مثلما اعتادوا أن يطلقوا عليه «المثقاب العظيم» في الإعلانات ومواد الدعاية، ذلك الذي كان يخترق مؤخرة «مارلين شامبر»، وعيناه تتقدان بنفس إضاءة مصابيح الـ ألفاروميو التي أقودها، وتجوب وادي «الأجوانا» في صحراء «استات بارك» المضاءة بنور صباح يوم أحد يحتضر.

أعتقد أننا مارسنا الحب مرتين. فقد جاك الرغبة. أخبرني أنه بعد كل هذه الافلام أصيب بالجفاف. قلت له: أنت الرجل الوحيد الذي يخبرني بذلك.

أضاف: أحب رؤية التليفزيون يا جيني وقراءة الروايات البوليسية.

سألته: روايات مرعبة؟

فأجاب: لا بوليسية، عن المحققين، وتلك التي يموت فيها البطل في النهاية.

قلت له: لا توجد مثل هذه الروايات.

فأجاب: بالطبع توجد يا شقيقتي، هي روايات رخيصة وقديمة وتباع بالكيلو. الحقيقة أنني لم أجد أية كتب في منزله، باستثناء دليل طبي، وثلاثًا من الروايات الرخيصة

التي أشار إليها، الواضح أنه كان يعيد قراءة هذه الكتب مرة بعد المرة.

وفي لقائنا الثاني أو ربما الثالث بمنزله، بدا جاك بطيئًا مثل الحلزون ،فيما يخص حديثه ومكاشفته عن أسراره وأموره الخاصة.

أخبرني بينما نحتسي النبيذ إلى جوار حمام السباحة بأنه سوف يموت قريبًا، مضيفًا: وتعلمين كيف هذا الأمر يا جواني، فحين تأتي الساعة.

شعرت برغبة في الصراخ بوجهه ليمارس الحب معي، أن نتزوج، أن نرزق بطفل أو نتبنى طفلًا يتيمًا، أن نشتري تميمة وسيارة كارافان، لنسافر إلى كاليفورنيا والمكسيك، أعتقد أنني أفرطت في الشراب وقتها، وشعرت بالتعب، فالعمل ذاك اليوم كان مرهقًا جدًّا، ولكنني لم أقل شيئًا، واعتدلت في جلستي على الكرسي الخشبي أتأمل العشب الذي قمت بنفسي بقصة، احتسيت المزيد من النبيذ، وانتظرت الكلمات التالية من جاك، الكلمات التي كان يجب أن يقولها، ولكنه صمت، مارسنا الحب في تلك الليلة لأول مرة بعد وقت طويل.

تطلب الأمر جهدًا كبيرًا لمساعدة جاك، جسده كان قد توقف عن أي نشاط، واعتمد على إرادته وحسب، كما أصر على استخدام واق، واق لعضو جاك، وكأنه سيقدر على احتوائه، على الأقل جعلنا هذا نضحك كثيرًا، ثم استلقينا، واخترق ما

بين فخذي، بعضوه الضخم الرخو، ثم احتضنني برقة، ونام.

واستغرقت وقتًا لأروح في النوم، وجعلت أفكار غريبة تجوب برأسي، وشعرت للحظات بأنني تعسة، وبكيت في صمت كيلا أوقظه، ولكيلا أفقد احتضانه لي، ثم شعرت بالسعادة، ولكنني بكيت أيضًا، وكنت أشهق دون تحفظ، أحتضنته وأستمعت إلى تنفسه، وجعلت أخاطبه: جاك، أعلم أنك تدَّعي النوم، افتح عينيك يا جاك وقبلني، إلَّا أن جاك واصل النوم أو التظاهر بالنوم، بينما أواصل مشاهدة الأخيلة تطل برأسي، مثل محراث أو جرار أحمر بسرعة مائة كيلومتر في الساعة، بسرعة تحول دون التأمل، أردت وقتها أن أواصل التأمل في خططي، وهو شيء لم يكن في الحسبان، ولدقائق متتالية لم أبكِ، ولم أشعر بالفرحة أو السعادة، شعرت فقط بأنني على قيد الحياة، وأنه أيضًا على قيد الحياة، وبالرغم من أن كل شيء بدا مثل المسرح، أو المشهد الهزلي، ولكنه مشهد بريء، ومناسب، كنت أعلم أن الأمر حقيقة، ويستحق العناء، ثم وضعت رأسي أسفل عنقه، واستغرقت في النوم.

وذات يوم ظهر جاك في موقع التصوير. وكنت على بعد أربع خطوات منه في مشهد بورنو مع بول إدواردز، و«شان بوجارت» في الوقت نفسه وفي وضع عكسي.

في البداية لم ألحظ دخول جاك إلى البلاتوه، كنت أركز فيما أفعل، فليس من السهل إصدار أصوات فيما يتم لعق عضو طوله ٢٠ سنتيمترًا، فبعض الفتيات الحسناوات لا يتحملن

ذلك، ولكنني أفضل أن يتم تسليط الضوء على وجهي وأن يخرج في أحسن حال. حسنًا، كنت أركز في عملي، ولم ألاحظ ما يتم حولي، إلَّا أن «بول» و«شان» كانا في وضع جذعي مستقيم، وحين لمحا دخول جاك انتصبا فجأة وبشدة، ومثلهما المخرج «راندس كاش» و«داني» و«لوبيو» وزوجته وروبي وروني، وعمال الكهرباء، والجميع.

أعتقد جميعهم فعلوا فيما عدا المصور ويدعى «خاسينتو بينتورا»، وكان شابًا مرحًا ومهنيًّا، ولم يكن بإمكانه تحويل عينه عن الكاميرا، جميعهم أبدوا ردة فعل لدى دخول جاك بشكل مفاجيء، وعم البلاتوه صمت ثقيل، ليس الصمت الذي ينبيء بأخبار سيئة، ولكن صمت مشرق، إذا كان بالإمكان تسميته هكذا، صمت، قطرة ماء تسقط في تصوير بطيء، وفسرتُ هذا الصمت لإجادتي للمشهد، نتيجة الأيام السعيدة التي قضيتها في كاليفورنيا، ولكنني شعرت بشيء آخر، عجزت عن تفسيره، جعل شان يضرب فخذي بهذا العنف، وبـ بول بين شفتي، فأدركت أن هناك شيئًا ما يحدث في البلاتوه، ولكنني لم أرفع بصري، بالرغم من أنني أحسست أنه يخصني، وأن الأمور تتعقد على نحو ما، شيء عميق مثل ندبة الجرح بعد عمليات جراحية متعددة، من العنق وحتى الفخذ، ندبة غليظة، وجافة، ولم أقدر على الاحتمال أكثر من ذلك، ولكنني واصلت، إلى أن انتهى شان وقذف على الفخذ، ثم تبعه بول على الوجه، ثم ألقيا بي، ومكثت فاغرة فمي، وتمكنت من رؤية وجوههم ، في تركيز لأدائهما،

ثم أخذا يلاطفاني بكلمات رقيقة، فأعتقدت أن هناك شيئًا ما، لاشك أن في البلاتوه أحد المتخصصين في عملنا، أحد القطط السمان من هوليود، ولاحظ ذلك بول وشان فأجادا في الأداء من أجله، ثم أذكر أنني نظرت بطرف عيني والخيالات المحيطه بنا، جميعها هادئة ومأخوذة، هذا هو ما فكرت به بالضبط، فقد بقوا مأخوذين تمامًا، فكرت أنه لابد أنه منتج مهم، ولكنني واصلت دون توانٍ، كنت على العكس من بول وشان، لا طموح كبيرًا لي في هذه المسألة، أعتقد أن الموضوع يتعلق بأنني أوروبية، فنحن الأوروبيين نظرتنا مختلفة، ثم قلت لنفسي ربما أنه ليس منتجًا، ولكن ملاك حط على الصالة وفي هذه اللحظة نفسها وقعت عيني عليه. وقف جاك إلى جوار «داني» و«لوبيا» وزوجته، و«جنيفر بولمان» و«مارجوكيلر»، و«سامانتا إيدج»، واثنين آخرين يرتديان ملابس داكنه، و«خاسينيو بينتورا» الذي انقطع عن التصوير وقتها، وقفوا جميعًا صامتين لمدة دقيقة، وكأنهم فقدوا الكلام والقدرة على الحركة، وبدا جاك في البلاتوه الذي تحول بوجوده إلى مكان مقدس، أو هذا هو ما فكرت فيه أنا بعد ذلك، حينما كنت أراجع هذا المشهد مرة بعد مرة ثم انتهت الدقيقة، وبدأت الدقيقة الثانية، نطق أحدهم مشيدًا بالتصوير، وأحدهم أحضر الروب لـ بول وشان ولي أيضًا. ثم اقترب مني جاك وقبلني، ولم أعبأ بالمشاهد التالية في ذاك اليوم، ثم طلبت منه أن نذهب للعشاء في أحد المطاعم الإيطالية، فأخبرني أن هناك مطعمًا في شارع «فيجيروا»، ثم دعانا روبي إلى إحدى الحفلات في منزل أحد شركائه الجدد، لم يرغب جاك ثم أقنعته.

ثم ذهبنا إلى منزلي في سيارة «ألفا روميو»، ومكثنا نتحدث ونحتسي الويسكي، ثم خرجنا لتناول العشاء، ومنه إلى منزل شركاء روبي.

كان الجميع في الحفلة، الكل يعرف جاك أو يرغب في التعرف إليه والاقتراب منه، ثم ذهبنا إلى منزل جاك، وكنا نتبادل القبل في الصالة بينما نشاهد فيلمًا من السينما الصامتة إلى أن استغرقنا في النوم.

لم يعاود الحضور إلى البلاتوه مرة أخرى، وعملت أسبوعًا آخر، بالرغم من أنني كنت أرغب في الذهاب إلى لوس أنجلوس بعد انتهاء التصوير.

كانت لديَّ ارتباطات في إيطاليا وفرنسا، ولكنني فكرت أن بإمكاني تأجيلها، أو أن أتحدث مع جاك، وأقنعته أن يرافقني.

زار «جاك» إيطاليا عدة مرات، وصور أفلامًا في سيشلي، وحازت نجاحًا فائقًا، بعضها معي والآخر مع بطلات أخريات، كان جاك يحب إيطاليا. كان يجب أن أتراجع عن هذه الفكرة، وأنتزعها من رأسي، كان يجب أن أجتثها من رحمي، مثلما تقول نساء مدينة نابولي في «برج الجريكو»، وبالرغم من أنني لم أيأس، ولكنه لم يشرح لي الأسباب، ومع ذلك تفهمت أسباب جاك ولو أنها غير مقنعة، هذا الصمت تشوبه الأضواء الخافية والنسمة الرطبة، كان يمر ببطء، ويلف كلماته القليلة، وكأن قامته الطويلة النحيفة على وشك التلاشي ومعها مدينة كاليفورنيا بالكامل،

وبالمثل ما كنت أعتقد أن فيه سعادتي وهنائي.

فهمت أيضًا أن هذا الوداع ليس إلَّا طريقة للمواساة والتضامن، طريقة غريبة ومتحيزة، وكأنها مواساة خفية، ولكنها مواساة في البداية والنهاية. وجعلني هذا اليقين أشعر بالسعادة وأجبرني على البكاء، جعلني أعيد زينة وجهي في كل وقت، وجعلني أرى كل شيء بعيون مختلفة، وكأن لدى أشعة إكس، أقلقتني هذه القدرة، ولكنني أعجبت بها.

أحسست أنني مثل «مارفيلا»، ابنة ملكة الأمازون، بالرغم من أن شعر مارفيلا أسود وشعري أشقر. وذات مساء شاهدت شيئًا ما في الأفق وأنا في فناء منزل جاك، ربما طائر، أو طائرة، وشعرت بألم حتى أنني فقدت الوعي، حتى أنني تبولت على نفسي، وحين أفقت وجدتني بين ذراعي جاك، حينها تأملت عينيه الزرقاوين وانفجرت في البكاء، ولم أتوقف عن البكاء لوقت طويل.

رافقني إلى المطار روني وروبي وداني لوبيو وزوجته ليودعوني، وقرروا زيارة إيطاليا في غضون عدة أشهر.

وودعت جاك وتركته في منزله بـ مونوروفيا. قلت له: لا تقم، ولكنه نهض ورافقني حتى الباب. وقال لي: كوني فتاة طيبة يا جواني واكتبي لي يومًا ما. فأجبته: سوف أحدثك بالتليفون، فالحياة مزدحمة.

كان متوترًا حتى أنه نسي أن يلبس قميصه، لم أقل شيئًا،

وأمسكت بحقيبتي ووضعتها في السيارة الـ ألفاروميو، عندما عدت لرؤيته في المرة الأخيرة فكرت أنه لن يكون هناك، عند باب منزله الخشبي المتهالك، بل سيكون خاويًا، وامتدت هذه اللحظة لإحساسي بالخوف، كانت المرة الأولى التي أشعر بالخوف في لوس انجلوس، مع أنه وخلال فترة إقامتي، في بعض المرات السابقة كنت أشعر أيضًا بالضجر، وضايقني هذا الشعور بالخوف، ولم أرغب في العودة، حتى أنني لم أفتح باب السيارة وأدخلها، وأخيراً حين فتحت باب السيارة كدت أرجع، ولكن جاك كان هناك، واقفًا إلى جوار الباب فعرفت أن كل شيء كان معدًا، وأنه عليَّ الرحيل. أي أن كل شيء كان سيئًا، وأن عليَّ الرحيل.

أن كل شيء يدعو للحسرة، وأن علي الرحيل.

وبينما ظل المحقق ينظر إليَّ من طرف عينه ويفتعل أنه ينظر إلى قوائم الفراش، فيما يسترق النظر إلى ساقيَّ، ساقيَّ الطويلتين أسفل الملاءة، ظل يتكلم عن مصور كان يعمل لحساب «مانكوسو» و«مارك أنتونيو»، شخص إنجليزي يدعى «ر. ب»، وهو رجل الكاميرا الثاني لدى ماراك أنتونيو المسكين، أعلم أنني في كاليفورنيا بطريقة ما، مع أنني في تلك اللحظة لم أكن أعرف بعد، ولم أعرف أن جاك كان لايزال حيًا، يتأمل السماء بمقعده إلى جوار حمام السباحة، وقدماه داخل الماء أو في الفراغ، وتركيبة غرامنا وانفصالنا الضبابية، وترى ماذا فعل الإنجليزي؟ سألت المحقق. فضل عدم الإجابة، ولكن

تحت ضغط نظراتي قال: أفعال غير مقبولة، قال كلمته وكأنه ممنوع من النطق بمثل تلك الكلمات في مستشفى «لوس ترابيثيوس دى نيمس»، وكأنني لم أعرف أفعالًا غير مقبولة على مدار حياتي. وبالوصول إلى هذه النقطة تجرأت على سؤاله عن أشياء أخرى، ولكن لمَ؟ فالأمسية أكثر جمالًا من تخصيصها لإجبار رجل على أن يحكي قصصًا تعسة. كما أن الصورة التي أراني إياها للإنجليزي المزعوم قديمة وممحاة، لشاب في العشرينيات من عمره، بينما الانجليزي الذي أتذكره كان في الثلاثينيات من عمره، ربما يقترب من الأربعين، خيال محدد يوائم المفارقة، شبح مهزوم، لم أهتم بإبقاء ملامحه في ذاكرتي، عينان زرقاوان، ووجنات بارزة، وشفاه ممتلئة، وأذنان صغيرتان. ولكن وصفه على هذا النحو غير صادق.

لقد عرفت ر.ب الانجليزي خلال إحدى جلسات التصوير العديدة في إيطاليا، ولكن صورته اختفت مثلها مثل صور أخرى في طي النسيان.

ويقول لي المحقق، حسنًا، استغرقي الوقت اللازم لكِ يا مدام «سيلفستري»، على الأقل فأنتِ تتذكرينه، وهذا في حد ذاته إفادة لي، فعلي الأقل هو ليس شبحًا لا وجود له. وحينها أوشكت أن أقول له إننا جميعًا أشباح، وإننا ولجنا جميعًا إلى أفلام الأشباح، ولكن هذا الرجل يبدو طيبًا، ولم أرغب أن ألحق به أذى، ولذلك آثرت الصمت. فضلًا عن شيء آخر، فمن يؤكد لي أنه لا يعرف الحقيقة بالفعل.



الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm